

زَوْجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تأليف
صالح الدين محمود السعيد



دار البيان العربي

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

زَوْجَاتِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تَأَلَّفَتْ
صِلَاحُ الدِّينِ مُحَمَّدُ السَّعِيدُ

الْبَيْتُ
دَارُ الْبَيَّانِ الْعَرَبِيِّ



زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جميع حقوق الطبع محفوظة للناسخ

اسم الكتاب : زوجات النبي ﷺ

اسم المؤلف : صلاح الدين محمود السعيد

مقاس الكتاب : ٢٤ X ١٧

عدد الصفحات : ٢٩٦ صفحة

عدد الأجزاء : جزء واحد

رقم الإيداع : ٢٢٦٠١ / ٢٠٠٦ م



طبع - نشر - توزيع

دَارُ الْبَيَانِ الْغَزَالِي

الأزهر الشريف - القاهرة ت: ٥١١٨٠٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

(آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإن موضوع زوجات النبي ﷺ يأخذ مكانه — عادة — في الجزء الأخير من كتب السيرة يتحدث الكتاب فيه عن سيرة أمهات المؤمنين باختصار ويتعرضون في بعض الأحيان للشبهات التي أثارها بعض المستشرقين حولهن: تعددهن وبعض الأحداث التي مرت في حياتهن.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يبين قضية المرأة ودورها في حياة الرجل والأسرة والمجتمع وفي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإن كانت هذه القضية مختلف عليها ففريق يرى أن رسالتها العظمى تكمن في حسن التبعل وإدارة البيت وتربية الأبناء وإعدادهم للحياة، وفريق يرى أن للمرأة حقوقًا تتجاوز هذا الحد وهي تكافئ

حقوق الرجل إن لم تكن بالنوع، فمن يحسم هذا الخلاف؟ تحسمه النصوص الصحيحة وسيرة أمهات المؤمنين اللواتي نزلت النصوص في بيوتهن وكن التطبيق العملي لهذه التعاليم... طبقن ذلك تحت سمع وبصر النبي ﷺ فسددهن وعلمهن وأطلقهن معلمات لنساء ذلك الحيل ومرشدات لأجيال النساء فيما بعد:

نريد أن نبحث عن الحقيقة في سيرتهن وعن العظمة التي اكتسبتها في بيت النبوة فأصبحن المثل الرائد والقُدوة المتفردة عبر العصور، إن البحث المستأنى في سيرة أمهات المؤمنات يكشف لنا أن في زواجه ﷺ من كل واحدة منهن حكمة، إما تعليمية أو تشريعية أو سياسية أو اجتماعية، ولقد حاولنا أن نتتبع تلك الخيوط ونكشف عنها.

أولاً الحكمة التعليمية:

وهي أهم تلك الحكم وأبقاها فالحكمة السياسية أو الاجتماعية في حياة أمهات المؤمنين ربما انتهت بانتهاج أسبابها، أما الحكمة التعليمية فباقية، فهي الموصولة بمنبع العلم الناشرة عرفه في المجتمع الإسلامي، النافذة إلى كل امرأة وفتاة في ذلك العصر، الباقية أثرًا يقتدى به في كل العصور.

تروى السيدة عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من الحيض فعلمها كيف تغتسل ثم قال لها: خذي فرصة ممسكة (أي قطعة من القطن بها أثر الطيب) فتطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: تطهري بها، قالت: كيف يا رسول الله أتطهر بها؟ فقال لها: سبحان الله تطهري بها!!

قالت السيدة عائشة: فاجتذبتها من يدها، فقلت: ضعيفا في مكان كذا وكذا وتتبعي بها أثر الدم، وصرحت لها بالمكان الذي تضعها فيه.

وفي حديث أم سلمة قالت: جاءت أم سليم (زوج أبي طلحة) رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن الله لا يستحيى من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال لها النبي ﷺ: [نعم إذا هي رأت الماء].

فقالت أم سلمة رضي الله عنها: لقد فضحت النساء، ويحك أوتحلتم المرأة؟ فأجابها النبي ﷺ بقوله: [إذا فبم يشبهها ولدها؟].

وكانت المؤمنات يسألنه عن كل ما يعرض لهن على اختلاف درجاتهن في الحياء حتى كان بعضهن يشكو إليه هجر بعولتهن لهن اشتغالاً بالتعبد أو لغير ذلك، وكان لا بد من تعليمهن وإنصافهن من بعولتهن.

مثل هذه الأسئلة (الخاصة) كانت تخرج النبي ﷺ فتتولى أمهات المؤمنين شرحها وتبينها.

تقول عائشة رضى الله عنها: رحم الله نساء الأنصار ما منعهن الحياء أن يتفقهن في الدين، كانت المرأة من هؤلاء تأتي إلى السيدة عائشة رضى الله عنها لتسألها عن بعض أمور الدين وعن أحكام الحيض والنفاس والجنابة وغيرها من الأحكام التي تستحي المرأة عادة من ذكرها كأداب المعاشرة والجماع والزينة وغيرها.

ومن المعروف أن السنة المطهرة ليست قاصرة على أقوال النبي ﷺ بل تشمل على قوله وفعله وتقريره، وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأمة اتباعه فمن ينقل لنا أخباره وأفعاله ﷺ في المنزل غير هؤلاء النسوة اللواتي أكرمهن الله فكن أمهات للمؤمنين وزوجات لرسوله الكريم ﷺ^(١).

كان الرجال والنساء يرجعون بعده ﷺ إلى أمهات المؤمنين في كثير من أحكام الدين ولا سيما الزوجية فمن كان له قرابة منهن كان يسألها دون غيرها.

فكان أكثر الرواة عن السيدة عائشة رضى الله عنها أختها أم كلثوم وأخاها من الرضاعة عوف بن الحارث وابنا أخيها القاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر وحفصة وأسماء بنتى أخيها عبد الرحمن، وعبد الله وعروة ابنا عبد الله بن الزبير من أختها أسماء، وروى عنها غيرهم من أقاربها فمن الصحابة والتابعين وهم كثيرون جدًا.

كذلك كان أكثر الرواة عن السيدة حفصة رضى الله عنها أخاها عبد الله بن عمر وابنه حمزة وزوجه صفية بنت عبید وأم بشر الأنصارية رضى الله عنهم أجمعين.

وأكثر الرواة عن السيدة ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها أبناء أخواتها ولا سيما أعلمهم وأشهرهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهم أجمعين.

(١) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول، محمد على الصابوني ص (١٣ - ١٨).

وأشهر الرواة عن السيدة رملة بنت أبى سفيان ضى الله عنها ابنتها حبيبة وأخوها معاوية وعنبسة وابنا أخيها وأختها رضى الله عنهم أجمعين.

أما السيدة صفية بنت حبي رضى الله عنها فقد روى عنها ابن أخيها ﷺ. وهكذا نرى كل واحدة من أمهات المؤمنين قد روى عنها علم الدين كثير من أولى قرباها ومن النساء والرجال الآخرين، وجملة القول: إن أمهات المؤمنين التسع اللاتي توفى عنهن رسول الله ﷺ كن كلهن معلمات ومفتيات لنساء أمته ولرجالها مما لم يعلمه عنه غيرهن من أحكام شرعية وآداب زوجية وحكم نبوية^(١).

ثانياً الحكمة التشريعية:

وأوضح مثال لهذه الحكمة التشريعية زواجه ﷺ من زينب بنت جحش رضى الله عنها، روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد ابن محمد حتى نزل القرآن ﴿ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥).

فقال النبي ﷺ: [أنت زيد بن حارثة بن شرحبيل] وقد زوجه ﷺ بابنة عمته (زينب بنت جحش الأسدية) ولم يكن زواجها موفقاً فقد كانت تعامله بشدة، ولم تنس لحظة أنها ذات الحسب والنسب وأنه عبد مملوك قبل أن يتبناه النبي ﷺ، وطلق زيد زينب فأمر الله رسوله أن يتزوجها ليبطل بدعة التبنى ويعيد الأمور إلى نصابها.

وخشى رسول الله ﷺ السنة المنافقين أن تقول: تزوج محمد امرأة ابنه وفى ذلك ما فيه من حرج شديد، تباطأ النبي ﷺ فى تنفيذ ذلك حتى نزلت الآية ﴿ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

كان لا بد من إبطال هذه العادة السيئة وإرجاع الأمور إلى نصابها فكانت حكمة الله أن يتزوج رسول الله من زينب بنت جحش، روى البخارى بسنده أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوجكن أهليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات.

(١) حقوق النساء فى الإسلام محمد رشيد رضا ص (٦٣ - ٦٥).

ثالثاً: الحكمة الاجتماعية:

وهذه الحكمة تتجلى في أمرين:

الأمر الأول: أنه ﷺ وثق صلته بالمصاهرة مع أقرب أصحابه إليه، فقد تزوج عائشة بنت أبي بكر ؓ الذى قال فيه رسول الله: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة».

وتزوج من حفصة بنت عمر بن الخطاب ؓ فكان ذلك قرّة عين لأبيها عمر على صدقه وإخلاصه وتفانيه فى سبيل هذا الدين، وعمر هو بطل الإسلام الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين ورفع به منار الدين، فكان اتصاله ﷺ به عن طريق المصاهرة خير مكافأة له على ما قدم فى سبيل الإسلام^(١).

وكذلك زوج بناته من عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وهكذا وثق رسول الله صلته الاجتماعية عن طريق المصاهرة بأكرم طبقة من الصحابة وأعظمهم دوراً فى خدمة الدعوة.

الأمر الثانى: هو الدور الذى لعبته أمهات المؤمنين فى توعية النساء ورفع مستواهن وحثهن على المطالبة بحقوقهن فكن بحق زعيمات الإصلاح الاجتماعى فى المجتمع المسلم.

كان الناس يترسمون فى معاملة أزواجهم ما يفعله النبى وكان ﷺ معهم لين الجانب حلو العشرة سهل المقادة كن يراجعنه فى كثير من أموره ويرددن عليه حتى صرن قدوة يقتدى بهن بقية النساء، فإذا أنكر زوج حق زوجته فى مراجعته احتجت عليه بعمل رسول الله فأسكتته، وما أطرف حديث عمر بن الخطاب يقص فيه ما جرى له معهم ويصف هزيمته وكيف انكسر لهن، على الرغم من شدته، قال: والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم، فبينما أنا فى أمرأتى تمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا، فقال لها: وما لك أنت ولما هنا؟ وما تكلفك فى أمر أريده؟.

(١) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ، محمد على الصابونى ص ٢٥.

فقلت لى: عجبًا لك يا بن الخطاب: ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فأخذ ردائي ثم أخرج مكانى حتى أدخل على حفصة فقلت لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟ فقلت حفصة: والله إنا لنراجعه، فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، ثم خرجت حتى أدخل على أم المؤمنين أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها فقلت لى: عجبًا لك يا ابن الخطاب: قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟ فأخذتني أخذًا كسرتنى به عن بعض ما كنت أحد فخرجت من عندها^(١).

لقد ارتفعت مكانة المرأة فى المجتمع الإسلامى وكانت أمهات المؤمنين رائدات التغيير فى ذلك المجتمع قريب العهد من الجاهلية، كانت عائشة رضى الله عنها زعيمة الأخذين بناصر المرأة، والمنافحين عنها بلا منازع وإليها وحدها تتطلع أبصار المستضعفات لما تم لها من المكانة الكبيرة فى العلم والأدب والدين حتى تقطعت دون مقامها الأعناق، وكانت أستاذة لمشايخ الصحابة الأجلاء فى كثير من أمور العلم والدين.

ولبث الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها، وهى واقفة بالمرصاد لكبارهم.

تصحح لهم كلما رأيت خطأ فى حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه، وقد ألف الزركشى كتابًا قائمًا برأسه على الأمور التى استدركتها عائشة على أعلام الصحابة. بلغها أن عبد الله بن عمرو بن العاص يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رعوسهن، فقلت: يا عجبًا لابن عمرو: يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رعوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رعوسهن؟! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد وما أزيد أن أفرغ على رأسى ثلاث إفراغات^(٢).

أما إذا تعلق الأمر بكرامة المرأة ولو من بعيد فى لهول ما يلقي المخطيء من عنفها، وإذا لا يقوم لغضب السيدة شىء: دخل عليها رجلان فقالا: إن أبا هريرة يحدث

(١) الإسلام والمرأة، سعيد الأفغانى ص (٤٨، ٤٩).

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، الزركشى (ص ١٢٣).

أن نبي الله كان يقول: (إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار) فطارت شقة منها في السماء وشقة منها في الأرض وقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول: إنما قال: (كان أهل الجاهلية يقولون: الطيرة في المرأة والدابة والدار) وبلغها عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب) (فقال عاتشة معنفة مصححة: أشبهتمونا بالحمير والكلاب والله لقد رأيت رسول الله يصلى وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذى رسول الله فأنسل من عند رجله) فيخضع الأصحاب لفتواها ويزيدونها على الزمن إجلالاً.

وإلى السيدة عائشة رضى الله عنها يرجع الفضل الأكبر بعد رسول الله ﷺ في تقدير الناس المرأة التقدير اللائق حتى ظهر في كثير من اللاتي طمحن إلى اقتفاء أثرها في الشجاعة الأدبية والجرأة^(١).

ولقد أثمرت هذه السياسة في رفع شأن المرأة حتى آنت أكلها ورأى النساء في أنفسهن والرجال سواسية حتى اعتدن بأنفسهن الاعتداد كله وحتى قالت عائشة: (إنما النساء شقائق الرجال).

ولم يأل الرسول في بث حكمه الغالية في قلوب الأصحاب وصية بالنساء، كما أنس داعياً إلى القول.

واستفاضت الأحاديث استفاضة شافية توصى بالمرأة أما وتوصى بها زوجاً وتوصى بها بنتاً وتوصى بها جنساً^(٢).

رابعاً: الحكمة السياسية:

لقد وقفت قريش في وجه الدين الجديد منذ اليوم الأول الذي أعلن فيه رسول الله دعوته، وكذلك فعلت قبائل العرب، فقد أخذت موقف قريش لما للأخيرة من زعامة أدبية ودينية بين قبائل العرب وكان إصهار النبي إلى بعض البيوتات القرشية أو القبائل العربية الأخرى من الوسائل التي اتخذها النبي ﷺ لكسر حدة الخصومة بينه وبين هذه

(١) الإسلام والمرأة، سعيد الأفغانى ص (٤٨ - ٥٢).

(٢) الإسلام والمرأة، سعيد الأفغانى ص (٥٣).

القبائل، فمن المعلوم أن الإنسان إذا تزوج من قبيلة أو عشيرة أصبح بينه وبينهم قرابة ومصاهرة وذلك بطبيعته يدعوهم إلى نصرته وحمايته.

فقد تزوج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق، وكانت قد أسرت في الحرب التي دارت بين قومها والمسلمين، فعرض عليها النبي أن يؤدي عنها كتابتها ويتزوجها، ولقد كان زواجًا ميمونًا على عشيرتها، فعندما خرج الخبر إلى الناس قالوا: أصهار رسول الله يسترقون؟ فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بنى المصطلق، وعندما علم أبوها بذلك أسلم وأسلم معه قومه.

وكذلك كان زواجه ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب سيدة بنى قريظة فأعتقها وتزوجها.

وكذلك زواجه ﷺ من أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش وقائد جيش المشركين، فلما بلغ الخبر أبا سفيان... أقر ذلك الزواج وقال: هو الفحل الذي لا يقدر أنفه، وكان هذا الزواج سببًا لتخفيف الأذى عنه وعن أصحابه المسلمين وسببًا في تأليف قلبه وقلوب قومه وعشيرته.

وفي هذا الكتاب أستعرض سيرة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أزواج النبي ﷺ فهن القدوة والأسوة، هذا وأسأل الله أن ينفعني والمسلمين به، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

نساء النبي ﷺ
أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد رضی الله عنها

أول الناس إسلامًا، وصديقة المؤمنات الطاهرة خديجة رضی الله عنها.
أولى أمهات المؤمنين وواسطة العقد الفريد في نساء أهل البيت النبوي وأم أولاده
ﷺ.

كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة رضی الله عنها وأرضاها.
خصها الله عز وجل بالسلام على لسان جبريل ﷺ، وبشرها ببيت في الجنة من
قصب.

سيرتها بهجة المجالس، وأنس المجالس، ورحيق مختوم بالمسك رضی الله عنها.

أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد رضی الله عنها

الطاهرة وبداية موقنة عنها:

من أين نبدأ أيتها السيدة الكريمة؟.

من أين نبدأ أيتها الأم التي لا يدانى فضلك فضل؟.

إن سيرتك كلها فضيلة في فضيلة في فضيلة...

إن حياتك من أول يوم عرفت فيه سيدنا رسول الله ﷺ كلها بركة في بركة في

بركة، وخير في خير في خير، وعطاء في عطاء في عطاء...

فالحديث عنك سيدتي بل أمي واسع الآفاق، عميق المدى، ندى العطاء... فيه

سُبُحات مباركات في بحار أنوار صفائك وسخائك الذي كان قبلة النساء في هذا

المجال...

إن تاريخ النساء في دنيا التاريخ، لم يحفظ في أوراقه أن امرأة من فضليات النساء

في دنيا النساء قد فاقت سيرتها بالعطاء والسخاء كما كنت أنت يا أمي..

تناول التاريخ النسوى سير نساء كثيرات، اشتهرت بجانب أو أكثر، ولكنه لم

يحدثنا كما حدثنا عنك بأنهن بلغن قمم المكارم في الفضائل كلها كما بلغتِ أنتِ، وقد

حفظ التاريخ كثيرًا من فضائلك ولكنه على الرغم من ذاكثرة الواسعة لم يستطع أن يحصى تلك الفضائل بين دفتيه...

كنت يا أمى ولا تزالين واسطة العقد فى نساء أهل البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا.

أنت يا أم عنوان كل فضيلة وفضيلة فى نساء البيت النبوى الطاهر الذى بارك الله فيه وعليه.

فهل تسمحين أيتها الأم الرعوم أن نتفياً تحت ظلال سيرتك ساعة لكى تكون زادًا لما فى هذه الحباة التى نحيهاها، ولتكون تلك السيرة جواز مرور إلى مرتبة الفضل، وسدة العطاء؟.

ما أحلى تلكم الأوقات التى نحيهاها مع أمنا، أم المؤمنين خديجة بنت خويلد^(١) زوج رسول الله ﷺ، وأم الذرية الطاهرة، وسيدة نساء العالمين، وقدوة نساء المسلمين!.
إذن، فلنبداً رحلتنا السعيدة إن شاء الله مع سيرتك المعطار، وفيض غيتك المدرار، ومع وقفات نبيلة كريمة من حياتك، ومن عطائك المستعد من شخصية النبى الرعوف الرحيم حبيبنا محمد ﷺ.

الطاهرة وأنداء الماضى:

هبط ظلام الليل مرخيًا سدوله على مكة... وخيم على الكون سكون عميق... لكن الحركة لم تتقطع حول البيت العتيق، فقد كان الطائفون بالكعبة يقطعون بالابتهاال والدعاء ذلك السكون الرقيق.

مع ثلة الطائفين والطائفات كانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنها تلوذ بالبيت العتيق يسترها عن عيون رجال قريش هى ونسوة كن معها.

كانت خديجة رضى الله عنها تطوف مع النساء، وتبتهل إلى رب العباد أن يبارك لها فى تجارتها... وفى مالها ويلهما الرشاد.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩ - ١١٧) أسد الغابة (٦/ ٧٨ - ٨٥) الإصابة (٤/ ٢٧٣ - ٢٧٦) الاستيعاب (٤/ ٢٧١ - ٢٨١).

كانت راضية النفس، رضية القلب بما حققته من نجاح في تجارتها، فقد بانَتْ قافلتها إلى الشام مع قوافل قريش... كانت راضية بما بلغته من شأورٍ في التجارة، وبما وصلت إليه في سلطان المال، وفي سلطان الجاه.

ويبدو أن فكرة وقادة قد لمعت في ذهنها وهي في طوافها، وبرزت الفكرة في مخيلتها بشكل واضح، فنقلتها إلى ظلال ماضٍ قريب، إلى ذكريات ما زالت تتداعى حتى أخذت مساحة واسعة في ذهنها المتوقد، وعقلها الحصيف.

صحيح أنها سعيدة الآن في تجارتها، إلا أن سعادتها في حياتها الزوجية قد اضطربت وتمزقت أكثر من مرة، ولم تعرف إلى قلبها الكبير سبيلاً، بل تعثرت منذ بدايتها.

كان قلب خديجة يهفو إلى حياة زوجية هائلة رفيعة وادعة موججة بالعواطف، فيها سمو وبذل وتضحية وكفاح في سبيل تحقيق غاية سامية نبيلة... تزوجت أبا هالة بن زرارة التميمي، ولما تبلغ الخامسة عشر ربيعاً من عمرها، راحت تسعى ليكون زوجها سيذاً بين سادات الرجال المعدودين في الجاه والشرف والسيادة... ولكن الموت غيبه فأطفاً بريق أحلامها فقد توفى قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، وقبل أن يسلك ويغدو رجلاً مشهوراً.

انقضى زمن على موت أبي هالة بن زرارة التميمي، فتقدم لخطبتها أحد أشرف قريش وهو عتيق بن عابدين عبد الله المخزومي، فتزوجته ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً.

أصبحت خديجة بلا زوج مرة أخرى، قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين وهكذا انتهت هذه الفترة العصيبة من حياتها، ثم تلاشت ذكرياتها الأليمة ودفنت في أغوار الماضي ودهاليز النسيان.

كانت خديجة رضى الله عنها امرأة عالية الهمة، واسعة الأفق، مفطورة على التدبير والنقاء والطهر، حتى عرفت بين أترابها من نساء قريش بـ «الطاهرة» وناهيك بهذه الصفة التي ارتقت بها فجعلتها في سماء السُّبُق إلى ساحة المعالي وذر الفضائل.

اتخذت السيدة خديجة لنفسها طريقاً جاداً بعيداً عن الأهواء والنوازع والرغبات، ولم تَلْهُ مع النساء اللاهيات، على الرغم من شغف النساء عموماً باللهو والسهر والترفيه، غير أن هذه المغريات كلها لم تغرّ خديجة مهما كان نوعها.

كانت السيدة خديجة مشغولة عن الناس، وعن التحدث في أمورهم بالبحث والسؤال عما وراء هذه الحياة، ولعلها كانت تسأل عن الأنبياء والرسول وقد أبعدتها هذا التفكير السامى عن لغو الحياة ولهوها، فارتفعت إلى مقام محمود بين نساء مكة جعلها تفوز بلقب سيدة نساء قريش.

كانت خديجة رضى الله عنها تصغى بعض الأحيان إلى أحاديث ابن عمها ورقة ابن نوفل عن الأنبياء والمرسلين، وعن الدين، وكانت أحلامها المجنحة كثيراً ما ترفرف في سماوات عالية من الفضل والفضيلة في وقت لم تكن لتصل إليها أمانى أهل عصرها من رجال أو نساء.

غير أنها كانت تشعر بان شيئاً ما يعزز أحلامها، ويزرع الطمأنينة في نفسها الكبيرة المشرقة، ولكنها لم تكن لتدرك جلية هذا السر، ولكنها تحس به، بل تتوقع بحدسها أن حدثاً ما ينتظرها، وكان يساورها شعور بهذا لا يتوقف، وقد ملأ عليها إحساسها وتفكيرها، ولكن متى، وأين، وكيف؟ هذا ما لم تستطع أن تتنبه له، أو تعلم شيئاً عن كنهه، فكيف الطريق إلى هذا السر؟! هكذا كانت السيدة خديجة تحدث نفسها بين حين وآخر.

الطاهرة ورؤيا نورانية:

في ليلة غابت نجومها، واحلوك ظلامها، ورق نسميها، جلست خديجة في بيتها بعد أن طافت بالكعبة ومن ثم دلفت إلى فراشها وقد ارتسمت على شفيتها علائم الرضا والابتسام، لم يدر في ذهنها أى خاطر فى ذلك الوقت، وما أن أسلمت جنبها للرقاد حتى استسلمت لنوم هنى، ورأت فيما يرى النائم شمساً عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها وتملأ جوانب الدار نوراً وبهاء ويفيض ذلك النور من جوارها ليغمر ما حولها بضياء يبهر النفوس، قبل أن يبهر الأبصار بشدة ضيائه.

قعدت خديجة من نومها، وراحت تدير عينيها فيما حولها فى دهش، فإذا بالليل لا يزال يسربل الدنيا بالسواد، ويجثم على الوجود والموجودات، وإذا بالنسيم العليل يجاذب

الليل أطراف الأحاديث، بيد أن ذلك النور الذى بهرها فى المنام ما زال مشرقاً فى وجدانها ساطعاً فى أعماقها، كما تسطع النجوم الزاهرة فى وسط السماء الصافية. مرت لحظات تتبعتها لحظات، والنور والإشراق لا يفارقان وجدان خديجة... بعد لحظات تمددت لتعاود رقادها، ولكن الوسن لم يطف بعينها، بل صحا ذهنها، وخفق قلبها، وأشرق عقلها، وتألقت تفكيرها...

أخذت تستعيد من جديد ههفة ذلك الحلم، وتلك الرؤيا، وهى موزعة النفس بين مشاعر شتى من الأمل والرغبة، والماضى والحاضر، إنه حلم غريب حقاً! جميل حقاً! تساءلت خديجة: «شمس فى دارى؟ نور بضىء الدنيا من هذا البيت؟ إن هذا لشيء عجيب!!».

تنفس الصبح وغادر الليل الدنيا مجرراً ذبوله، فغادرت خديجة فراشها، ومع بزوغ الشمس، وصفاء الكون، كانت الطاهرة خديجة فى طريقها إلى دار ابن عمها ورقة بن نوفل، لعلها تجد عنده تفسيراً لحلمها البهى فى تلك الليلة المباركة الصافية. دخلت خديجة على ورقة، فألفته كعادته عاكفاً على قراءة صحيفة من الصحف السماوية التى شغف بها، وما أن مس صوتها سمعه حتى رحب بها وقال متعجباً: خديجة؟ الطاهرة؟.

قالت: «هى، هى».

قال فى دهش: «ما جاء بك الساعة؟».

جلست خديجة، ثم أخذت تقص عليه ما رأت فى منامها حرفاً حرفاً، ومشهداً مشهداً، كأنه يراه بعينه...

كان ورقة يصغى إلى خديجة فى اهتمام جعله ينسى الصحيفة فى يده، وكان شيئاً ما نبه إحساسه وعقله، وجعله يتابع سماع الحلم إلى النهاية...

انتهت خديجة من كلامها فتهلل وجهه بشراً، وارتسمت على شفثيه ابتسامة رضى، وقال لخديجة فى هدوء ووقار: «أبشرى يا ابنة العم... لو صبقت رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك وليفيض منها نور خاتم النبيين...» الله أكبر... ماذا تسمع خديجة؟ وما الذى يقوله ابن العم؟ وجمت لحظات... سرت فى بدنها قشعريرة، جاشت فى صدرها

عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرحمة والرجاء... تحركت في ذهنها أشياء بدأت تتوضح...

كانت الأشياء بالأمس سرّاً، بدأت غيوم من الغموض تنقشع عن تلك الأشياء، لا ريب أن ورقة عنده علم من الكتاب، وعلم عن هذه الأشياء الغامضة التي تنساب إلى صدرها، وتستقر في نفسها ووجدانها.

أفاقت من شرودها الذي دام لحظات وانتهت إلى ورقة وهو ينظر إليها، فلم تشأ خديجة أن توصل ذلك الباب الذي انفتح على أعظم نيا تبحث عنه منذ زمن بعيد... شرعت تسأل ورقة عن خاتم النبيين وعن صفته، وعن أحواله، وورقة يجيب في هدوء العلماء العارفين، كانت خديجة سعيدة تعي ما يقوله ورقة حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وجملة جملة، وفي عقلها الصافي اختزنت كل المعلومات والمعارف التي ذكرها ورقة عن خاتم النبيين، ورسول رب العالمين.

ظلت خديجة رضى الله اعنها تعيش على رفرف الأمل، وعبير الحلم الذي رأته، فعسى أن تتحقق رؤياها، وتكون مصدر خير للبشرية، ومصدر نور للدنيا، فقد كان قلبها الكبير منبعاً للخيرات أما عقلها فكان يستوعب كل ما حولها من أحداث بشكل يتفق مع حياتها المفعمة بالخير والعطاء والنقاء.

كانت خديجة رضى الله عنها إذا تقدم إليها سيد من سادات قريش لخطبتها، تقيسه بمقياس الحلم الذي رأته ومقياسه، والتفسير الذى سمعته من ورقة لتسير على أساسه... ولكن إلى الآن لم تنطبق صفات خاتم النبيين على الذين تهافتوا على خطبتها، فكانت تردهم ردّاً جميلاً، وتخبرهم أنها لا تود الزواج، فقد كانت تنظر بفراسرتها إلى أن القدر الإلهي يدخر لها شيئاً جميلاً لا تدرى ما هو، لكنها تستشعر أن منه ما يدخل الطمأنينة إلى قلبها، والارتياح إلى نفسها.

ذكر أهل الأخبار أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه عند الحرم، وفي أحد الأعياد، خرجت خديجة من بيتها نحو الكعبة وطافت بها وراحت تبتهل إلى الله وتدعوه في صدق أن يحقق لها حلمها، ثم انطلقت نحو نسوة كى بالقرب من الكعبة، وجلست معهن ثم أخذن يتجاذبن أطراف الحديث، وطرائف الأخبار، في تلك الأحداث قطع حديثهن صوت وقف بالقرب منهن، صارخاً بأعلى صوته: «يا معشر نساء قريش...»

فالتفتت النسوة إليه فأصخن السمع فقالت: «يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون فرائشاً له فلتفعل».

ويظهر أن النسوة حسبنه يهذى، فرماه بعضهن بالحصباء، وبعضهن الآخر قدقنه بسيل من الشتائم والسباب، بينما قبحنه أخريات وأغلظن له القول، وبعضهن أغضى عن قوله، فما ألقين له بالاً، ولا سمعن منه مقالاً.

أما الصحيفة خديجة فقد خفق قلبها، ولاح سعدها، فحديث هذا الرجل أثار ذكرياتها، وأعاد إلى ذاكرتها حلمها الذي ليس هو ببعيد...

إن ذلك الرجل ليس يهذى، وليس بمجنون بل إنه يعي ما يقول، فقد أعلن على الملأ أن نبياً قرب وجوده، وهو يدعو من استطاع من نسوة قريش أن تكون زوجاً له، وخديجة قد رأت في منامها أن الشمس هبطت من سماء مكة لتستقر في دارها... أشياء كثيرة ازدحمت في ذهن خديجة... أفكار ازدهرت في مخيلتها تساءلت: «أبكون ذلك كله عبثاً؟! كلا ورب هذا البيت...» إنها تحس في نفسها الصافية أن رؤياها ليست أضغاث أحلام، ولا تخيلات ولا أوهام، وأن ما ذكره الرجل ليس عبثاً، وأن ما قصه عليها ورقة بن نوفل من بشارات في التوراة الإنجيل والصحف عن النبي المنتظر ليس عبثاً أيضاً، بل ليس مصادفة، إن ذلك كله مجتمعا لا بد له من حقيقة ستكون في يوم من الأيام ساطعة... واضحة وضوح الشمس عند الظهائر... ترى متى يكون هذا اليوم؟ وهل هو قريب؟!..

الطاهرة ترسل إلى محمد:

كانت خديجة بنت خويلد تعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة، فعمته صفية بنت عبد المطلب زوجة أخيها العوام بن خويلد، وقد ترامت إلى أسماعها سيرته العطرة، وأخباره المباركة، فودت لو أنه عمل لها في تجارتها، ولكنها كانت تعتقد أن في تجارة بنى هاشم منفساً له، وما درت أن كثرة العيال قد ذهب بتجارة أبي طالب، وأن حمزة ابن عبد المطلب قد شغل بالقنص والصيد والفتوة عن التجارة، وأن العباس بن عبد المطلب يخرج هو في تجارته...

ويبدو أن أبا طالب عم النبي ﷺ قد رغب إلى ابن أخيه محمد ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن ذكر له قلة ماله، وأن الزمان قد اشتد عليه، ونصحه أن يستجر بما لها، ففعل الله أن يسوق له رزقاً حسناً من ماله الممدود.

روى سيد الناس رحمه الله في «العيون» خبر تجارة سيدنا محمد ﷺ بمال خديجة بسند رفعه إلى نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية قال: «لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه من خصال الخير، قال له أبو طالب: يا بن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكورة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرانها، فيتجرون لها في مالها ويصيبيون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها، لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدءاً، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجارًا، ومن لم يكن تاجرًا من قريش فليس عندهم بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «فلعلها ترسل إليّ في ذلك» فقال أبو طالب: إنني أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرًا مدبرًا... وبلغ خديجة ما كان من محاوره عمه له، وقبل ذلك بلغها ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيتك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك، ففعل رسول الله ﷺ ولقى أبا طالب فذكر له ذلك، فقال: «إن هذا لرزق ساقه الله إليك» فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام، وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم الشام، فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له: نسطورًا، فاطلع الراهب إلى ميسرة - وكان يعرفه - فقال: «يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟».

فقال ميسرة: «رجل من قريش من أهل الحرم».

فقال له الراهب: «ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي».

ثم قال له: «فى عينيه حمرة» قال ميسرة: «نعم، لا تفارقه».

قال الراهب: «هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج» فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى، فباع سلعته التى خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل خلاف فى سلعة، فقال الرجل: «أحلف باللات والعزى».

فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما».

فقال الرجل: «القول قولك».

ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبى تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم، فوعى ذلك ميسرة، ثم انصرف أهل العير جميعاً.

كان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو على بعيره، وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله ﷺ، المحبة من ميسرة، فكان كأنه عبد لرسول الله ﷺ، وباعوا تجارتهم، وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، فلما رجعوا فكانوا بمر الظهران، قال ميسرة: «يا محمد» انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف لك ذلك، فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة فى ساعة الظهرية - وخديجة فى عليّة لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية - فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره، وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها، فعجب لذلك ودخل عليها رسول الله ﷺ، فخبّرها بما ربحوا، فسرت بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته، فقال لها ميسرة: «قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام» وأخبرها بقول الراهب نستوراً، وقول الآخر الذى خالفه فى البيع، وربحت فى تجارتها ضعف ما كانت تربح، وأضعفت لرسول الله ﷺ ضعف ما سمت له...

الطاهرة وأطياف من الذكريات:

يبدو أن سيدتنا خديجة رضى الله عنها قد وعت جيداً ما أخبرها به غلامها ميسرة عن كرامة محمد ﷺ، فذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وقصت عليه ما حدثها به غلامها ميسرة عن أخبار محمد ﷺ، وعمّا فعل الأمين فى رحلته، فقال لها ورقة: «إن كان هذا حقاً يا خديجة، إن محمداً نبى هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة منتظر هذا زمانه».

شغلت خديجة بأحاديث متنوعة وذكريات قريبة العهد، فقد شغلت بحديث ميسرة عن محمد ﷺ، ويقول ابن عمها ورقة: إن محمداً نبي هذه الأمة، واحتل الحلم — الذى رأت فيه الشمس تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها — كل تفكيرها، وصار صوت ورقة يتردد فى أعماقها: «أبشرى يا ابنة العم، لو صدقت رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك، وليفيضن منها نور خاتم النبيين».

وظافت بذهنها ذكرى أخرى، ذكرى يوم العيد الذى خرجت فيه نساء مكة إلى الكعبة، تذكرت ما قاله ذلك الرجل هنالك «يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبي قرب ظهوره، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل».

كانت خديجة تطلق لخيالها العنان ليحلق كيف شاء وأنى شاء، فهذا سيل الذكريات يتدفق على خيالها فيملاً حياتها أنساً وسروراً.

إن الدلائل لتشير إلى أن محمد بن عبد الله ذو شأن، فهو خير أهل مكة، وأفضل أهل الحرم، فإذا لم تكن النبوة فيه، ففيمى تكون؟!.

الرهبان والكهان، بشروا به وبقرب ظهوره، وتكلموا عن علاماته وموطنه، حتى إن ابن عمها ورقة الذى أنفق عمره فى النظر فى الكتب القديمة، وعرف اللغات الأخرى قال لها: «إنه نبي هذه الأمة».

ثم إن خديجة هى نفسها لتحس إحساساً خاصاً، بأن محمداً ﷺ ليس كغيره من الناس، أو من رجالات قريش...

انتقلت خديجة من أطياف ذكرياتها إلى الواقع الذى تحياه، نظرت وفكرت فى محمد ﷺ، فإذا هو يملأ شطر خيالها، إن شخصيته كانت أقرب إلى هالة من نور تشرح الصدر، وتملأ النفس نقاءً وضياءً، وتوقظ فى الوجدان عوامل الخير والعطاء.

إن محمداً ﷺ هو هو... هو الذى خلق ليكون سيّداً، ليكون راعياً للبشر، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، فهو لطيف المحضر، يصل الرحم، ويصدق الحديث، هو الأمين، وهو أصدق الناس لهجة وأوفى الناس نمة، لكنما خلق من مكارم الأخلاق، فهو على خلق عظيم، وخلق كريم، أحب الناس، وأحبه الناس، بل استولى على قلوبهم برفقه ورقته ودمائه خلقه.

اجتمعت الدلائل الواضحة والقرائن الأكيدة عند خديجة بأن سيدنا محمدًا ﷺ هو الرحيق الصافي الذي يختم به الأنبياء، فباتت ترجو أن تكون زوجًا له ولكن أين الطريق إلى ذلك؟! وكيف تسلكه?!.

الطاهرة ورغبة مباركة:

كان تقدير خديجة رضى الله عنها لسيدنا محمد ﷺ تقديرًا واقعيًا، دافعًا لها على أن تفكر في شأنه تفكيرًا آخر أكبر من كونه يتجر في مالها فتربح ويربح. عرفت محمدًا ﷺ بما عرفه به قومه أمينًا صدوق الحديث، عزوفًا عن الدنيا، طموحًا لعوالم الأمور ومكارم الأخلاق، متساميًا بنفسه عن مغامر المروءة، كسوبًا للخير، فعالًا له، داعيًا إليه، بل إن خديجة قد عرفت محمدًا ﷺ أكثر مما عرفه قومه وذووه.

إن خديجة الآن امرأة خلية من الزوج، شريفة حسبية، ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تدبره وتنميته وتحوطه، ثم إن محمدًا ﷺ في نزوة الشرف من قومه وقومها، أليس هو سليل عبد المطلب شريف قريش وسيدها؟! بلى... أوليس هو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة، وأكمله مروءة؟! ثم إنه خلى هو الآخر لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب فما يمنعه أن تكون زوجًا له، وما يمنعه أن يكون زوجًا لها?!.

علمت خديجة رضى الله عنها وهي ذات الشرف الطاهر، والمال الوافر الطاهر، والحسب الفاخر، أن محمدًا ﷺ حاله حال التقى والزهد والحياء، وهذه السمات فيه سجية وطبيعة في تكوينه الخلقى والخلقى يراه كل من تعامل معه جليًا لا غموض فيه، زد على ذلك ما حملته الأخبار لخديجة من قرب ظهور النبي الخاتم، وما أشيع عن بعض صفاته وأنها لا تعدو محمدًا، خصوصًا إذا ما أخذت بعين الاعتبار رواية ميسرة في سفرته التجارية معه، وما أخبر به الراهب المتعبد: «إن هذه الشجرة ما نزل تحتها إلا نبي» فبسبب ذلك خطبته خديجة، وعرضت نفسها بطريقتها الخاصة عليه، وما أحسن بلوغ الأذكى ما يتمنونه، والله در البوصيرى عندما أشار إلى ذلك في همزته اللطيفة الشهيرة:

ورأته خديجة والتقى والزهد د فيه سجية والحياء
وأثاها أن الغمامة والسر ح أطلته منهما أفياء

وأحاديث أن وعد رسول الله - بالبعث حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحسن أن يبلغ المنى الأذكىاء

عرفت خديجة كل شيء عن محمد ﷺ، عرفت كل خصائله وحصائله، ولكن ما الطريق الذي يوصلها إليه؟! إذن فلتنمى إليه صديقة من صديقاتها اللاتي تثق بهن، ويعرفن رغباتها، ومن ثم تلقى إليها هذه الرغبة حتى تعرف مكانها من نفسه.

روى ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي عن نفيسة بنت منية قالت: «كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة، جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قریش نسبا، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال فأرسلتني دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من غيرها من الشام».

فقلت: «يا محمد ما يمنعك أن تزوج؟».

فقال: «ما بيدي ما أتزوج به».

قلت: «فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟».

قال: «فمن هي؟».

قلت: «خديجة...».

قال: «وكيف لي بذلك؟».

قلت: «على».

قال: «فأنا أفعل».

فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته، فزوجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد: «هذا البضع لا يُقرع أنفه» وتزوجها رسول الله ﷺ، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

ظهر الطريق وسهلت مهمة الصديقة خديجة ودعى محمد ﷺ إلى الجمال والشرف والعقل والكمال، إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء قریش وأطهرهن، فأجاب كفاء كريم، وزوجها عمها عمرو بن أسد وزوج محمدًا ﷺ عمه.

كانت خديجة رضى الله عنها فى سن اكتمال الأمومة ونضجها وكان محمد ﷺ فى سن اكتمال الشباب واستوائه، وفى هذا من أسرار الموافقات النفسية ما يجعلنا نعجز عن أداء ذلك بالكلام، لأن محمداً ﷺ كان إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزوجة وحبها، وخديجة رضى الله عنها كانت هى الزوجة فى حبها، وهى الأم فى حنانها وبرها، ومن ثم كانت امرأة واحدة فى تاريخ الدنيا لم تتكرر فى الحياة.

الطاهرة وخطبة الزواج:

فى بيت خديجة رضى الله عنها كانت ثلة من رجال بنى هاشم منهم سيدنا وحبينا محمد ﷺ وأعمامه: حمزة والعباس، وصديقه: أبو بكر، وعمار بن ياسر، وجمع المجلس ابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام، بينما كانت صفيية وعاتكة ابنتا عبد المطلب عند خديجة، وبعض نسوة من صويحباتها وإمانها.

فى تلك اللحظات ما كان أحد يقدر ذلك الموقف مثل خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش، فكانما قد رفع عن بصيرتها الحجاب، فرأت مستقبلها مع محمد ﷺ الأمين الذى تنتظر الأمم مبعثه.

فى ذلك المجلس اللطيف، قام أبو طالب يخطب، ذكر أبو العباس المبرد رحمه الله وغيره، أن أبا طالب خطب خطبة الإملك فقال: «الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضى - أصل - معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح عليه برأ وفضلاً، وشرفاً، وعقلاً، ومجداً ونبلاً، فإن كان فى المال قُل - قلة - فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها ما آجله وعاجله من مالى عشرين بكرة، وفى رواية: وقد بدل لها من الصداق اثنتى عشرة أوقية ذهباً ونشاً - أى نصف أوقية - ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد ذلك نبأ عظيم، وخطر جليل، فزوجها».

ولما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل، فقام عندئذ خطيباً وقال: «الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحنى سادة العرب، وقادتها، وأنتم أهل

ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربع مائة دينار».

وفى رواية أنه أصدقها عشرين بكرة.

وفى رواية أخرى أنه أصدقها اثنتى عشرة أوقية ذهباً.

ثم سكت، فقال أبو طالب: «قد أحببت أن يشركك عمها» فقال عمها: «اشهدوا على يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد» وشهد على ذلك صناديد قريش.

إن ورقة بن نوفل هذا هو ابن عم خديجة، ومن أشراف قومها، وذوى أسنانهم، فلا غرابة أن يقدموه في الرد على خطبة أبى طالب وكأنى وكأنما أحب أبو طالب أن يوثق العقد، ويؤكد الرضا، فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها، فأسرع عمها إلى إجابة أبى طالب إلى طلبته فتولى زواجها.

وقد أولم رسول الله ﷺ على زواجه بخديجة، وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحاً شديداً.

روى أن رسول الله ﷺ لما تزوجها، ذهب ليخرج، فقالت له: «إلى أين يا محمد؟ اذهب وانحر جزوراً أو جزورين، وأطعم الناس» ففعل.

قال صاحب كتاب «إنسان العيون» فامرت خديجة جواريتها أن يرقصن بالدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكراً من بكراتك، وأطعم الناس، وهلم فقلّ مع أهلك، فأطعم الناس، ودخل ﷺ فقال معها، فأقر الله عينه، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال: «الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الهموم» وهى أول وليمة أولمها رسول ﷺ.

الطاهرة والسعادة الروحية والزوجية:

رفرفت السعادة بأجنحتها على بيت خديجة رضى الله عنها، فقد وجدت الطاهرة خديجة فى الأمين محمد ﷺ خير الأزواج، فهو لطيف المعشر، سابغ العطف، يحيط به كل إنسان وكل حى، وكل شىء، فأخلاق محمد ﷺ كانت تنبع من فطرته بنسب متفقة متكاملة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وخصائصه ﷺ كثيرة فى الفضل والخير والمعروف.

إنه ليس بفظ ولا غليظ القلب، قد وسع حبه جاريته بركة الحبشية، فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزوجية، وأكرمها وغمرها بحنانه، وفاض قلبه الكبير رقة مست قلوب أبناء خديجة - من زوجها السابق - فكان هند ابن خديجة عند أمه بعد زواجها من محمد ﷺ وكان سعيدًا غاية السعادة أن يشب وينشأ في كنف أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وأعظمهم مودة.

وسع حب محمد ﷺ زيد بن حارثة، ذلك الفتى اللطيف الحصيف الذى اشتراه حكيم ابن حزام من سوق عكاظ، ووهبه لعمته خديجة، وقد تعلق محمد ﷺ بزيد، وأحب زيد محمدًا حبًا لم يحبه أحدًا مثله من قبل، وقد فطنت خديجة إلى هذا الحب الأبوى، فوهبت زيدًا لزوجها فأعتقه، ولم يكتمف بأن رد إليه حريته السلبية، بل شرفه ورقاه بأنه نسبه إلى نفسه فكان زيد ابن محمد، فأعظم بهذا الشرف.

أحبت خديجة رضى الله عنها زوجها محمدًا ﷺ حبًا ملك عليها كل مشاعرها، أحبته حب الزوجة لزوجها الكريم الذى تمثلت فيه مكارم الأخلاق ومعالي المكارم، فقد كانت على مر الأيام وطول العشرة تزداد يقينًا بأن الرجل الذى احترته لنفسها هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالته، والنهوض بأمره.

صارت خديجة رضى الله عنها تهيئ لرسول الله ﷺ كل أسباب الراحة وكل أطراف النعيم، إذا أشار لبت إشارته متهلة النفس، رضية القلب، كريمة اليد، فما كانت تبخل بما تملك، وكانت سخية بعواطفها ومشاعرها وأموالها، بل لم تكن تبخل بحبها على من يحب زوجها، وكانت تكرم من يحبه إكرامًا يملأ النفس رضى وسرورًا.

فى جلسة غمرتها أنوار ربانية كان محمد ﷺ يتحدث مع خديجة، فكان صوته العذب اللطيف يمس شفاف فؤادها، وكانت الحكمة المتدفقة من بين شفثتها تغمر روحها بطمأنينة مريحة مجنحة تسمو بها فوق وجودها الملموس، وتعيش فى أفق نورانى محسوس.

فى تلك اللحظات البهيجة جاءت مولاة خديجة وقالت: «مولاتى، إن حليلة بنت عبد الله بن الحارث السعدية تود الدخول» ولم سمع رسول الله ﷺ بحليلة السعدية، خفق قلبه الشريف حنانًا، وراحت الذكريات الحانية الدافئة تداعبه، ذكريات حبيبة إلى نفسه، تذكر بيداء بنى سعد ورضاعه هنالك، كانت لحظة مفعمة بالمشاعر الناعمة، لحظة

أحيث — فى مثل لمح البصر أو أسرع — أيام طفولته، وأيام نشأته بين نراعى حليلة، وفى أحضانها.

قامت خديجة رضى الله عنها لتدخل حليلة، فطالما حدثها عنها حديثاً يقطر حباً ورحمة ودفناً ومودة، وعندما وقع بصره الشريف عليها، مس سمع خديجة صوته اللطيف وهو ينادى فى لهفة وحنان «أمى، أمى».

نظرت خديجة إلى رسول الله ﷺ فألفته قد فرش لها رداءه، ومرر يده على رأسها فى حنان دافق، وقد تفرقت فى وجهه الشريف سعادة عارمة، وتألقت فى عينيه فرح غامر، لكننا كان يحتوى فى أحضانه أمه آمنة بنت وهب وقد بعثت من مرقدها.

وفى غمرة اللقاء المفعم بالسرور بين رسول الله ﷺ وحليمة، سألتها عن حالها، فشرعت تشكو إليه قسوة الحياة والجذب الذى نزل ببادية بنى سعد، ثم شكت ضيق العيش، ومرارة الفقر، فأسبغ عليها من كرمه ما أذهب حزنها.

وبعد ذلك حدث محمد ﷺ خديجة فى تأثر واضح ما ألم بمرضعته من ضيق، وما حاق بها من كرب، فتدفقت نفس خديجة بالعطف والرحمة، وأعطتها أربعين رأساً من الغنم، كما وهبتها بعيراً يحمل الماء وزودتها بما تحتاجه فى رجوعها إلى باديتها، وكانت خديجة رضى الله عنها متأهبة لتجود بمالها، إرضاءً لزوجها محمد ﷺ، فشكر لها أريحتها، ثم انطلق ليضع بين يدي مرضعته ما جادت به كف خديجة ونفسها.

الطاهرة وذرية طيبة:

مضت مدة على الزواج الميمون، وخديجة تُدخلُ الهناء والصفاء إلى البيت النبوى وتدخل السرور والطمأنينة على القلب المحمدى ﷺ، وتعمل على مرضاته، كانت تضىفى على بيتها روحها الصافية، وتعمره بما استطاعت من عطف وحنان ومودة وونام.

وذاث يوم كانت خديجة تحمل بشرى عظيمة إلى زوجها، فما هى إلا شهور حتى تضع ما فى بطنها وكانت تهتز سروراً لهذا الحادث المفرح، لأنها تشعر فى صميم وجودها أن فى إنجابها الذرية من محمد ﷺ شىء يثلج الصدر ويجعل النفس تشرق بأمال عظيمة، فمرور الأيام يؤكد لها أن سيكون لزوجها نبأً عظيم وشأن كريم، وخبر جسيم.

عرف الهناء طريقه إلى قلبه الشريف ﷺ فهل هناك فرحة أعظم لرجل من أن يكون له عقب؟ وخصوصاً في المجتمع المكي؟! لقد كان سروره عظيماً بالنبا السار السعيد الذي بشرته به زوجته الرعوم خديجة بنت خويلد.

وما هي إلا بضعة شهور حتى وضعت خديجة طفلة جميلة، فضمها محمد ﷺ إليه في عطف وحنان، وشكر الله على ما وهبه وسماها زينب، مضت أيام وشهور كانت زينب خلالها فلذة فؤاد البيت المحمدي، تتفتح تفتح الزهر، وكان قلبه ﷺ يخفق حباً لها وتتبسط أساريره عندما يراها فيرفعها ويقبلها في حنان.

تخطت زينب ربيعها الأول، وها هي ذى تدخل عامها الثاني، كانت طفلة حلوة لطيفة، بينما كانت أمها خديجة تنتظر مولودها الثاني، وكانت إذ ذاك مسرورة غاية السرور، عرفت السكينة بعد القلق، وذائق حلاوة نعيم الحياة وحياة النعيم، تحت ظلال زوجها الأمين محمد ﷺ الرعوف الرحيم.

كان محمد ﷺ يتقرس في وجه ابنته زينب، وقد امتلأ قلبه حباً واستبشاراً، فقد كانت تشبه خديجة، وهذا مما يزيد حباً لها، وعطفاً عليها.

وأما خديجة رضى الله عنها فقد وضعت مولودة أخرى، وفرح محمد ﷺ بما آتاه الله عز وجل، وشكره بقلبه أن من عليه بذرية طيبة، ثم إنه سمي ابنته الثانية رقية، ثم إن خديجة بعد ذلك ولدت ابنتها الثالثة أم كلثوم، أما رسول الله ﷺ فقد راح يرنو إلى أسرته الكريمة في انشراح، فهو لا يفرق في حبه بين بناته وهند بن أبي هالة، وكذلك زيد بن حارثة مولاه، فقد وسعهم جميعاً قلبه الكبير، وفاض عليهم من كنوز حنانه وفيض رفته وكرم رحمته وخلقه ما جعلهم يشعرون بالسعادة أجمعين.

كانت الأسرة المحمدية الخديجية المباركة تعيش حياة ناعمة هادئة، فخديجة رضى الله عنها امرأة نادرة المثال في الصفار والنقاء، وفي فهم الحياة الزوجية على أساس صحيح، فكانت كلما طالت عشرتها مع محمد ﷺ ازدادت إعجاباً به، فقلبه أصفى من الصفاء، ونفسه أنقى من النقاء، فهو بكل جوارحه ووجدانه وقلبه لله، ومن كان لله كان الله له سنداً ومعيناً وحافظاً وراحماً.

ثم بعد ذلك وهب الله عز وجل للبيت المحمدي ابنة كريمة، أضحت فيما بعد سيدة نساء العالمين في زمانها أم الحسنين، وأما أبيها فاطمة الزهراء الصابرة الدّينة الخيرة

الصيّنة القانعة الشاكرة لله عز وجل، وقد وهب الله سبحانه وتعالى خديجة ولدين هما: «القاسم وعبد الله» إذن فقد ولدت خديجة أربع بنات وولدين.

وشاءت إرادة الله عز وجل ألا يعيش للنبي ﷺ ولد ذكر، في زمن كان العرب يتعلقون بالبنين تعلقاً شديداً، ويحرصون على الإنجاب حرصاً عجيباً، ولكن في تلك البيئة المفتونة بالبنين دون البنات، كان الحبيب المصطفى ﷺ القدوة للمؤمنين، والمثل الأعلى للناس كافة على مر العصور.

ومن أمثلة قدوته ﷺ وحب الناس له قضية إعادة بناء الكعبة الشريفة، فقد تصدع بنيانها من عوامل السيل، وهابت قريش هدمها وإعادة بنائها، إلى أن استقر رأيها على البناء، فبدأت العمل، ولما تم البناء، اختصمت قريش في الحجر الأسود، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه إلى موضعه، إلى أن اهدتوا إلى أن يحكموا أول من يدخل من باب المسجد، وما هي إلا دقائق حتى أقبل محمد ﷺ فقالوا: «هذا الأمين محمد بن عبد الله رضيتم بحكمه».

فطلب ثوباً ثم وضع الحجر الأسود فيه بيده الشريفة وأمرهم أن تأخذ كل قبيلة بطرفه، فرفعه جميعاً، ثم وضعه ﷺ بيده الشريفة، وكان عمره آنذاك (٣٥ عاماً) وبالتالي لم يحدث خصام بين القبائل، وعاد إلى بيته حيث كانت خديجة تضع مولودتها الكريمة فاطمة الزهراء، وكان هذا الحدث الجليل قبل البعثة بخمس سنين عدداً. وما أجمل أن نترنم بهذه «الدالية» الجميلة التي ترسم خطوات بناء الكعبة الشريفة وتبين حكمة النبي ﷺ:

تساجرت الأحياء في فصل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة	وأوقدوا ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده	ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد	فقلنا رضينا بالأمين محمد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعم وأرضى في العواقب اليد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا	له حصّة من رفعها قبضة اليد
فقالوا ارفعوا حتى إذا ما علت به	أكفهم وافى به غير مسند

وكل رضينا فعله وصنيعه فأعظم به من رأى هاد ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة يروح لها مر الزمان ويغتدى

الطاهرة ومكارم المعالي:

إن الأخلاق العالية، والمكارم النبيلة، التي فطرت عليها أمتنا خديجة جعلت منها معقد الفضل لأهل الفضل، وينبوع الحياة لكل من استظل تحت سقف بيتها المبارك الذي اكتتفته العناية الإلهية، وسطعت منه شمس البشرية ونور الدنيا سيدنا وحبیبنا محمد ﷺ.

كانت خديجة رضى الله عنها تملك أسباب المكارم، فقد استطاعت أن تغذى بيتها بألوان الرحمة والعطف والمودة، وتجعل الأفراد الذين يعيشون في كنفها يتعلقون في محبتها تعلق الوحيد بأمه، ويشعرون بأن خديجة أهم التي ولدتهم ورعتهم.

فقد انتظم في البيت النبوي أحد أفراد الإسلام وعباقرة الدنيا، وأحد أكارم بنى هاشم وأكابرهم، سيدنا على بن أبى طالب ؑ، إذ كفله رسول الله ﷺ وهو طفل صغير، وكذلك كان بطل مؤتة سيدنا زيد بن حارثة حبّ النبي ﷺ ممن ظللته رعاية خديجة، وناله من عطفها وعطف محمد رسول الله ﷺ ما جعله ينسى أهله وعشيرته الأقربين، بل إنه فضل البيت المحمدي على أبويه اللذين أنجباه، ومن كمحمد وخديجة؟.

فقد كان محمد يحب زيداً، وكانت خديجة تحب كل من يحبه محمد ﷺ وهواها دائماً مع من يكون هوى زوجها معه، فقد أحببت على بن أبى طالب، وأحبت الحاضنة أم أيمن الحبشية، وأحبت زيد بن حارثة ذلك الذى ضرب أجمل الأمثلة فى الوفاء لخديجة، وفى الوفاء لعطفها وبرهه به وكرمها معه وإحسانها إليه.

وقد أثبت زيد هذا الوفاء النادر فى أدق المواقف وأخرجها وأصعبها، وقد وعت ذاكرة التاريخ ذلك الموقف المبارك لزيد، فقالت ما مفاده ومحصله: «فى أحد أيام الحج، كان رسول الله ﷺ فى عرفة، وكان معه مولاه زيد بن حارثة فى أهل بيته، وكان زيد قد سبى من عند أهله، وهناك فى عرفة رآه بعض قومه من بنى كلب فعرفه، فذهب إليه وقال له: من أنت يا غلام؟.

قال زيد: من أهل مكة.

قال الرجل: من أنفسهم؟.

قال زيد: لا.

قال الرجل الكلبى: فخر أنت أم مملوك؟.

قال: مملوك.

قال الرجل مستوضحًا: عربى أنت أم أعجمى؟.

قال زيد عبي الفور: بل عربى من بنى كلب، وبالتحديد من بنى عبد ود...

فقال الرجل: ابن من أنت؟

قال زيد: ابن حارثة بن شراحيل.

قال الرجل: وأين سببت يا بن حارثة؟.

قال زيد: من عند أخوالى فى طيى، وكنت يومها بصحبة أمى.

قال الرجل: ما اسم أمك وابنة من تكون؟.

قال زيد: سعدة بنت ثعلبة.

قال الرجل: اسمع حال أبيك حارثة، وما ينشد فى التفجع عليك، وكيف كان يبكى

فى غيبتك التى لا يعرف لها نهاية، ولا يعرف لك فيها مستقرًا أو مقامًا، وراح الرجل

ينشد قول حارثة والد زيد:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإنى لسانل أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل

واستمر الرجل فى إنشاده، وزيد مطرق الرأس تتجاذبه عواطف شتى، فأراد أن

يكفكف دموع أبيه وقومه، ويخفف من لهفتهم عليه ببعث الطمأنينة إلى قلوبهم، وإرسال

بريد شفوى يعلمهم من خلاله بحياته وسلامته، ويخبرهم مع ذلك بسعادته العظيمة، فها

هو ذا يقيم فى أرغد مقام، وقد أبدله الله بأب خير من أبيه، وبأم خير من أمه، وبأخوة

خير من إخوته، ثم قال للرجل ومن معه من بنى كلب ممن عرفوه وعرفهم: أبلغوا

أهلى هذه الأبيات، فإنى أعلم أنهم قد جزعوا على، فقال:

أحن إلى قومى وإن كنت نائيا فإنى قطين البيت عند المشاعر

فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ولا تعملوا فى الأرض نص الأباغر

فإنى بحمد الله فى خير أسرة كرام معد كابرًا بعد كابر

انتهى موسم الحج، وانطلق الرجل الكلبى وقومه، فأعلموا أباه حارثة، وعمه كعب، ووصفوا له موضعه، وعند من هو وأنشدوا شعر زيدا بنهم، فكانت الدموع تجرى، والألم يتجدد، وإن تحرك الصدر بالأمل، وإن خفق القلب بالرجاء، شد حارثة وكعب ابنا شراحيل الرحال إلى مكة لفداء زيد، حتى إذا ما بلغاها، انطلقا إلى الدار الخديجية، وسألا عن محمد ﷺ، فقيل لهما: هو فى المسجد فدخلا عليه فقالا: يا بن عبد المطلب، يا بن هاشم، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العانى، وتطمعون الأسير، جئناك فى ابنا عندك، فامن علينا، وأحسن إلينا فى فدائه، فإننا سترفع لك فى الفداء قال رسول الله ﷺ ولم تفارق الابتسامة شفثيه الشريفتين: من هو؟ قالوا: زيد بن حارثة يا بن الأكارم الأطهار والأكابر الأخيار .

فقال ﷺ لهما: أوغير ذلك؟ قالوا: ما هو؟ .

قال ﷺ فى صدق وبقين: أدعوه فأخبره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا .

فرح حارثة وكعب فرحًا شديدًا، فما كان يخطر فى بالهما أن يعرض أحد مثل هذا العرض الكريم السخى الذى ينم عن خلق عظيم، ومنتهى مكارم الأخلاق ومعاليها، وعندئذ قالوا لرسول الله ﷺ: أحسنت وزدتنا عن النصف .

دعا النبى ﷺ زيد بن حارثة، فلما جاءه قال له فى رفق أبوى هامس ودود رحيم: هل تعرف هؤلاء؟ وأشار بيده الشريفة إلى حارثة وأخيه كعب.

قال زيد فى هدوءٍ وأدب جم: هذا أبى حارثة بن شراحيل وهذا عمى كعب بن شراحيل .

فقال النبى ﷺ لزيد: فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتى لك، فاخترنى أو اخترهما .

لم يتردد زيد فى الإجابة أو يتلجلج لسانه بحرفٍ واحد، وإنما قال وهو يرنو إلى النبى ﷺ فى حب صادق وقول أكيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا، أنت منى بمكان الأب والعم، والأخ والقريب .

اضطرب أبوه حارثة وعمه كعب وقد اعتراها دهش وخيبة أمل، ولم يتوقعا أن يصدر عن زيد مثل هذا الكلام، وقالوا: «ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟».

قطع زيد على أبيه وعمه دهشهما وحيرتهما فقال دون تردد: «نعم، إنى قد رأيت من هذا الرجل الكريم الحليم شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحدًا مهما بلغ شأنه، فكفا عنه طلبكما».

فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجته إلى الحجرِ أمام الكعبة وقال: يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابني، يرثني وأرثه.

ولما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما واطمأن فؤادهما، فانصرفا ودعى زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، ونزل قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٥) فدعى يومئذ زيد بن حارثة.

الطاهرة ومعرفتها قدر النبي ﷺ:

رسالة سيدنا محمد ﷺ أكمل الرسالات كمالاً، وهو ﷺ أفضلهم فضلاً، وأعلامهم قدراً، وأشرفهم شرفاً، وأقربهم قرباً، وأرفعهم منزلة، وأعلمهم بالله، وأتقاهم الله، وأخشاهم الله وأكرمهم إلى الله، وأعزهم عند الله، وأهداهم سبيلاً، وأبلغهم قبلاً، وأعمهم رسالة وأشملهم دعوة إلى الله، وأحكمهم حكمة، وأيسرهم هدى، وهو خاتم النبيين، وسيد المرسلين ﷺ.

وكانت خديجة رضى الله عنها الزوجة الأمانة الوفية بفطرتها الأصيلة أعرف الناس بقدر محمد ﷺ، وأعلمهم برفعة منزلته وعلو مقامه عند الله.

عرف محمد ﷺ ربه قبل أن يبعث رسولاً، وأشرق قلبه بأنوار كاشفة يسرت له مشاهدة ما وراء حواسه، فاستوى بصره وبصيرته، وأرشد إلى طريق الحق، حتى إذا ما أتم الله إعداده واستعداده لتحمل نزول الوحي عليه كلف بالرسالة، فكان عليه نشر رسالة التوحيد بتأييد من ربه عز وجل.

وقد حبيب الله عز وجل إلى محمد ﷺ الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده ليأنس بربه، وما كانت الطاهرة خديجة لتضيق ذرعاً بهذه الخلوات المباركة التي تبعده أحياناً، وما كانت لتعكر صفو تأملاته وإنما حاولت أن تحوطه بالرعاية ما

استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وذلك معرفة لقدره، فإذا ما انطلق إلى غار حراء للعبادة أعدت له ما يحتاجه من ماء وزاد، وظلت عيناها تشيعه بالحب والرعاية حتى يغيب عن بصرها، ولم تكف بهذا، بل كانت ترسل وراءه من يحرسه ويرعاه دون أن يقتحم عليه خلوته، أو يعكر عليه صفاءه، أو يقطع صلته بربه في ذلك الغار الميمون.

في غار حراء، أقبل محمد ﷺ بكيانه على الله، يحفه النور الرباني فيتلألأ الغار بهجة وضياء، فتزول وحشته وتأنس أركانه وصخوره، فتومض الظلماء وكأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة، وإذا بالرحمة الإلهية تنزل على من اصطفاه ربه ليكون رسوله إلى الناس، وإذا بالروح الأمين يحمل له التكليف برسالة تنوء بحملها السموات والأرض والجبال، رسالة هداية ونجاة للبشرية جمعاء، ودعوة خير للناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له...

الطاهرة وبدء الوحي:

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه القيم زاد المعاد : فلما كمل له ﷺ أربعون أشرفت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده .

في تلك الأثناء، وفي بداية نزول الوحي جبريل الأمين ، على الأمين محمد ﷺ، كانت خديجة ذات أثر كريم، وفضل جسيم، في هذا الموقف العظيم، إذ أثبتت أنها سيدة النساء العاقلات الحصيفات في هذا المقام، واستطاعت برباطة جأشها أن تشد من عزمته ﷺ، وكذلك بكلماتها الوضيئة السنية التي لا يزال شعاعها ينير العقول على مر العصور .

ولنقف الآن أمام السيدة الطاهرة العاقلة خديجة رضى الله عنها، ولننتصور ذلك الموقف عندما نزل الوحي على رسول الله ﷺ للمرة الأولى.

روى البخارى رحمه الله فى الجامع الصحيح عن أمنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة أو الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه - يتعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى

الطاهرة وكلمات النور والإلهام:

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضوان الله عليها أعرف الناس بقدر محمد ﷺ ومكانته، فهي رضى الله عنها عندما عاد إليها ﷺ من متعبده وخلوته إثر مفاجأة الملك له في غار حراء، تحدث إليها، بعد أن استراح متزماً، متدنثاً في فراشه، لتهدأ نفسه الكريمة من هول ما كابدت من عناء المفاجأة، وما ألم بها من الغط الجاهد المجهد، الذى هز بشريته هزاً بالغ الأثر فى بدنه، ويقول لها: «أى خديجة ما لى؟ لقد خشيت على نفسى ويخبرها خبر ما رأى وما سمع وما جرى له.

وكانت خديجة عليها سحائب الرضوان على يقين تام بما يملك محمد ﷺ من رصيد فى مكارم الأخلاق، وفضائل السمائل، فتقول له مستلهمة من إيمانها الفطرى بتوفيق الله: كلا، لا تخش شيئاً يعوقك عن الوصول إلى ما أريد بك من الخير والشرف، وإنك لبالغ من فضل الله وإنعامه وكرمه وفيضه ورعايته، ما يبلغك أهداف ما حملت من أعباء الحق والهدى والهداية، ولن يخزيك الله أبداً، لأنه أعدك بما ألبسك من خلع المكارم الإنسانية، فقد جعلك بأحوال المكارم والمحاق التى لا يخزى من يحلى بها لا سيما أنك لا تغيب عن عين الله ورعايته الصمدانية التى ترفعك عاليًا عاليًا... .

قالت خديجة: «إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدى الأمانة .

إن خديجة أم المؤمنين رضوان الله عليها تُرِيه بهذه الكلمات المشرقة، أنها تستبعد كل الاستبعاد، ما هجس فى نفسه إشفاقاً أن تضعف قواه البشرية عن تحمل أُنقال ما حمل من أعباء الرسالة الربانية.

كانت كلمات الإيمان الفطرى النورانية من الزوجة الأمينة الوفية - وزيرة الصدق، ومأنس الروح والقلب، أعقل نساء العالمين خديجة - سُبُحات تستشرق أفق مستقبل محمد رسول الله ﷺ فى أطوار رسالته بأمل فسيح مبارك موصول بكمال شخصيته وفضائله الإنسانية النبيلة التى كانت معالمها معروفة بين أبناء قومه ومن يعرفه بتلك السمائل الحسنة.

فأما أم المؤمنين خديجة عليها سحائب الرضوان كانت مباركة في إلهامها عندما ترجمت بكلماتها النورانية عنوان تلك المعالم في مستقبل زوجها محمد ﷺ نبياً ورسولاً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

لهذا كله كانت أمنا خديجة رضى الله عنها نعمة من نفحات المدد الإلهي في سجل الرسالة المحمدية، نعمة ندية نادرة لم تتكرر، وتلك نعمة من الله يمن بها على من يشاء من عباده، ورحمة يصيب بها من يشاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم.

الطاهرة ووقفة ندية مع كلماتها:

إن الكلمات الصادقة التي قالتها خديجة لرسول الله ﷺ، وهو في ذلك الموقف لدليل على فراسة الإلهام المباركة، ونستطيع أن نقف وقفات ندية تحت ظلال تلك الكلمات النضرة... كلمات النور الخديجية، كلمات الحق والثبات واليقين التي زكت موقفها، وكأنها أرادت أن تقول: إن الذي أتاك ملاك كريم لأنك تحمل صفات الملاك، فأبشر فإنك على الحق المبين، يا أبا القاسم، يا أكمل الكلمة من الخلق، لن يقع لك ما تتخوفه على نفسك الزكية العلية من ضعف عن تحمل أعباء ما شرفك الله به من رسالة الخلود، لن تعجز يا أبا القاسم عن القيام بموجبات تبليغ الأمر الإلهي، لأن الله تعالى هو الذى اختارك له وخصك به، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، إنك يا أبا القاسم، قد فطرك الله على أفضل ما فطر عليه أحداً من خلقه، فلن تخزيك أبداً، ولن يحزن قلبك الكبير السليم بوقوع شيء مما تشفق منه وتخافه على نفسك، لأن فيك من خصال الجبلية الكمالية ومحاسن الأخلاق الرضية، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأعلى معالي المكارم، وأكرم خصائل المعرفة، ما يضمن لك الفوز، ويحقق لك الفلاح والصلاح والنجاح، وستظهر بطلبتك، وتؤدى رسالتك، ويخلد ذكرك، ويعلو أمرك، ففبك من الخصال الحميدة، والصفات الرشيدة، ما يجعلك خالد الذكر، أبد الدهر .

فمن نفحات الكلمات الأولى للطاهرة خديجة: «إنك لتصدق الحديث» أرادت أن تقول: فأنت الصدوق المصدق، وأنت الصادق الأمين، فصدق الحديث عندك سجية، إذا قلت شيئاً قالت الموجودات من حولك وهتفت الدنيا: صدقت... أبا القاسم وصدقته وقومك على الرغم من عجرهم وبجرهم دعوك فيما بينهم الأمين وقد جهروا بهذا

اللقب معترفين لك بهذه الخصلة النبيلة، خصلة الصدق في الحديث... شهدوا على أنفسهم فقالوا: ما جربنا عليك كذباً بل إن أعتى أعدائك يشهد لك بسحبية الصدق في القول والعمل .

ففي حديث أبي مسرة أن رسول الله ﷺ مر بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد والله ما نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكن نكذب ما جنبت به فنزلت الآية الكريمة: ﴿ فَأَيُّهَا لَّا يُكذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣) إى وربى . فالصدق أشرف الخصال وأكرم الخلال وروح الجمال والجلال.

وفى ظلال الكلمة الثانية لخديجة رضى الله عنها: «وتصل الرحم» تقول: وأنت يا أبا القاسم، وصول للرحم، تقرب البعيد، وتدنى القصي، وتغسل الأحقاد والعداوات، وتزرع الألفة والمودات، وتغضى عن الزلات، وهذه فضيلة ومكرمة توثق عرى المحبة بين نوى القربى، وتجمع القلوب على الصفاء والود، وتمحو من النفوس الأحقاد، وصلة الرحم هذه أصل من أصول مكارم الأخلاق التى هى نفحة من سجايك .

وثالثة الكلمات تقول: «وتحمل الكل» أرادت خديجة أن تقول: وأنت تحمل الكل حمل الضعيف الذى أعجزته الأيام والليالى، فنفسك الكريمة، وقلبك الرحيم، لا يرضيان أن يريا ضعيفاً أتقلت كاهله الحياة، فأنت تحسنين إليه بإحسان تنتعش من خلاله روحه وتُحى فى نفسه الآمال، وتجعله يشعر بالحياة وهو عزيز الجانب مرعى الحال .

ورابع الصفات من الكلمات الخديجيات المباركات قولها: «وتكسب المعدوم» تقول: إنك يا أبا القاسم، تكسب المعدوم بجودك وإيثارك وعطائك وسخائك، فقد فطرك الله على مكارم الجود فأنت أجود الناس وأسأخاهم، بل أنت أجود بالخير من الريح المرسلة .

يقول الإمام القسطلانى رحمه الله فى كتابه النفيس: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية : وقد كان جوده ﷺ كله لله، وفى ابتغاء مرضاته ، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج وتارة ينفقه فى سبيل الله وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى

وقبصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع.

نعم يا أبا القاسم، ومن يعطى عطاءك؟ إنك تعطى ذوى الحاجة المعدومين ما لا يمكن أن يمنحه غيرك، ولا تسمح به نفس غير العليّة، فأنت أكرم العالمين، وأسخى الأكرمين، وأجود الأنام، فأنت الذروة في السخاء وفي الإيثار والعطاء، إن الكرم مجمعة للقلوب، يملك السخى بكرمه زمام محبة الأفئدة، ويستأثر من أكرمهم بإحسانه بفواضله فيؤثرونه بمودتهم على كل محبوب، ويرحم الله العلامة أحمد بن محمد القسطلاني، إذ استقصى هذه النواحي في شخص النبي ﷺ الذي كان كما وصفه سيدنا علي بن أبي طالب ؓ فقال: كان أجود الناس كفاً، وأصدق الناس لهجة قال القسطلاني: فهو ﷺ بلا ريب أجود بنى آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يروى حديث الندى والبشر عن يده	ووجهه بين منهل ومنسجم
من وجه أحمد لى بدر ومن يده	بحر ومن فمه در لمنتظم
يمم نبياً تبارى الريح أنمله	والمزن من كل هام الودق مرتكم
لو عامت الفلك فيما فاض به يده	لم تلق أعظم بحر منه إن تَعِم
تحيط كفاه بالبحر المحيط قلذ	به ودغ كل طامى الموج ملتطم
لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت	كل الأنام وروت قلب كل ظمى

فسبحان من أطلع أنوار الجمال من أفق جبينه، وأنشأ أمطار السحاب من غائمه

يمينه .

وخامسة أفياء كلمات خديجة قولها: «وتقرى الضيف» أرادت خديجة أن تقول: إنك يا أبا القاسم لن يخزيك الله أبداً، فإكرام الضيف من أعظم الفضائل الإنسانية، ففيه عظيم الأثر في قوة اجتذاب القلوب، وأسر النفوس .

وخصوصاً في البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ، تلك البيئة الشحيحة بمطالب العيش ووسائل الحياة لوجود الصحارى والجبال الجرداء والأودية والقفار.

ولذا قد كانت فضيلة قرى الأضياف موضع منافسة المتنافسين في صنائع المعروف، وكانت مما يتمدح بها أجواد العرب وفضلاؤهم لتنتشر محاسنهم في القر بين الأقباط، ولقد احتفظ تراثنا بكثير من تلك القصص الطريفة وحفظ المستجاد من فعلات الأجواد بما تضيق عنه الصفحات والسجلات.

وسادسة كلمات أم المؤمنين خديجة قولها: «وتعين على نواب الحق».

كان أم المؤمنين خديجة أرادت أن تقول: يا أبا القاسم، إن من أخص صفاتك أن تعين على نواب الحق، إذ إن ذلك فطرة فطرك الله عليها، وخليقة جبلك بها، والإعانة على تلك النواب أفضلية الفضائل، ومكرمة المكارم، فهي أجمع موارد الخير ومصادره، وهي منقبة البر والمعروف .

ومن فتوحات الكلام ما قاله الإمام ابن حجر رحمه الله في الفتح : قولها — أى خديجة —: وتعين على نواب الحق، هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم .

والحقيقة، فقد كانت هذه الخليفة خلقاً لمحمد ﷺ إذ شارك قومه في صنع المكارم، وها هو ذا الرجل المتميز بارز في حلف الفضول، يتعاهد مع المتعاهدين بالله ليكون مع المظلوم ويرفع الظلم عنه حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة.

ومما يعزز هذه السمة في شخصية محمد ﷺ قصة الإراشى الذي ابتاع منه فرعون قريش وفرعون الأمة، أبو جهل بن هشام، إبلاً ومطله أثمانها ابتغاء غصبها، فلم يُعنى الرجل الإراشى إلا محمداً ﷺ إذ ذهب مع الإراشى إلى أبي جهل الذي دفع الحق راغماً خائفاً ذليلاً حقيراً مذموماً مدحوراً، ونجدة المظلوم والإعانة على النواب الحق تملأ صفحات السيرة النبوية ولا يمكن حصرها في هذا المقام.

وختام الكلمات الخديجة النورانية قولها: «وتؤدى الأمانة».

أرادت أننا أن تقول: نعم يا أبا القاسم، أنت الأمين في السماء، وأنت الأمين في الأرض، فالأمانة أجمع مكرمة لمكارم الأخلاق، فالأمين هو ذو الخلق العظيم، الجامع

لأشتات الفضائل، وقد كان خلق أداء الأمانة خلقاً أثيراً في مكارمك، فلم يعرف لقب الأمين على إطلاقه إلا لك.

لقد قالت قريش يوم أن اختلفوا على وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة: هذا الأمين رضيناها حكماً وحكمت بحكمك حكماً أطفاً نيران فتنهم، وأصلح ذات بينهم، وجمع شملهم.

تلكم هي ظلال وأنسام ففي رحاب الكلمات الخديجية، كلمات أمانة الطاهرة خديجة لحبيبنا محمد ﷺ، كلمات نابعة من يقين إيمانها، وصدق وفائها مع الله عز وجل ومع رسوله ﷺ، فكانت فراسة الإلهام في كلماتها مصداقاً لصفات الحبيب الأعظم محمد رسول الله ﷺ.

الطاهرة والفراسة والإلهام:

أقسمت خديجة رضى الله عنها بالله تعالى بأنه لن يخزي محمداً ﷺ، وأكدت ذلك بلفظ التأييد لوثيق معرفتها بأخلاق محمد الفطرية التي خبرتها فيه بتجاربها وفرادتها، وبما كان يخصه به مجتمعه من الإكبار وحسن الأحذوثة، واستدللت بوحي عقلها الرصين على ما أقسمت به بأمر استقرائي، فوصفته بأصول مكارم الأخلاق ومعاليها. قال العلماء في هذا: وإنما كان ما ذكرته خديجة أصول المكارم، لأن الإحسان إما إلى الأقارب كما في صلة الرحم، وما يتفرع عنها من التعاطف والتراحم وفروعها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، وإعطاء المعدوم المحتاج إلى المعونة من الضعفة، وإما على من يستقل بأمره، كما في مكرمة الإعانة على نوائب الحق، أو من لا يستقل بأمر كما في الكَلِّ الضعيف الذي لا يقوم بأمر نفسه .

أجل، كانت كلمات أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها نوعاً من الحصافة، ونوعاً من فراسة الإلهام الذي ينظر إلى ما وراء الحجب، خففت بها عن رسول الله ﷺ ما شعر به من آثار المفاجأة عند نزول الوحي وقد آب إليها من خلوته ومتعبده في حراء، فرأت منه ﷺ حالاً من مشقة الجهد لم تكن تراها عليه من قبل في أوباته إليها، ليتزود لخلوته، ويجد ببيته وولده وزوجه عهد الحنان والحب والمودة والإكرام.

لذلك جلس إلى خديجة بعد أن هدأت نفسه، وحدثها وحدثته، وسمعت منه جديداً، لم تكن من قبل تسمعه منه، وكان حديثاً رقيقاً يمس شفاف القلب، فتلمس منه خديجة دفء الحنان في مَحْضِنِ الوفاء.

كانت آمال خديجة رضى الله عنها منذ صارت زوجة محمد ﷺ تحلق حوله في آفاق تطلعاتها إلى الأفق العلوى، وتجليات الملامح الأعلى لمحمد ﷺ في لقاء المواجهة ولقاء الرسالة، فكانت آمال الفراسة النورانية وإلهام التوسم تتحقق شيئاً فشيئاً عند السيدة خديجة رضوان الله عليها، فقد حدث رسول الله ﷺ زوجه الوفية خديجة عند خلجات ضميره، فما كان من الزوجة العاقلة إلا أن شجعتة وكانت وزير صدق على الإسلام، ولكى تشد أزره ﷺ، ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل - كما مر معنا - الذى ود أن ينصره نصرًا مؤزرًا إن أدرك يوم التبليغ وبدء الدعوة إلى الله، وأعتقد أن ورقة شدد وصيته لخديجة بأن تكون شديدة الاهتمام والرعاية لمحمد ﷺ، فكانت كذلك رضى الله عنها وأرضاها.

عن هذا الموقف العطر لخديجة تتحدث بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن قائلة: «هل كان لأنثى غيرها أن تهيب له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها فى إيثار نادر ما أعده لتلقى رسالة السماء؟ هل كان لزوج غيرها أن تستقبل دعوته من غار حراء بمنزل ما استقبلته هى به من حنان مستثار، وعطف فياض، وإيمان راسخ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنلها يقينها فى أن الله عز وجل غير مخزيه أبداً؟ هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه فى أحلك أوقات المحنة، وتعيّنه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟ كل... بل هى وحدها التى من الله عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، وإن كانت أول الناس إسلامًا، كما بها جعل لرسول الله ﷺ ملا أو سكن ووزير».

حقاً إن خديجة رضى الله عنها معقل كل فضيلة، ومعقل كل رجاء عند كل ملحة، والرحيق المنعش لكل أمر يعرض لرسول الله ﷺ أو يعترضه، لم تبخل لحظة واحدة من حياتها المعطاء فى تقديم كل ما يذلل صعوبات الدعوة المحمدية.

كانت أمنا خديجة عليها سحائب الرضوان، تروح عن قلبه ﷺ الهموم، وتذهب عن صدره الأحزان بما لها من كياسة وفطنة، وبما وهبها الله عز وجل من رفق ولين، وتضحية وفداء، وصبر ونبل، وأمل ورجاء، ووفاء وعزيمة، ناهيك بخلقها الذي كان منبع فيض الخيرات لكل من أراد أن يقتدى بها من النساء على مر العصور.

الطاهرة أول السابقين:

أجمع أهل العلم من أئمة الإسلام على أن أمنا خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، كانت أول البشر قاطبة إيماناً بالله عز وجل، وبرسوله محمد. يقول عز الدين بن الأثير رحمه الله: خديجة أول من أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة .

ويقول البيهقي رحمه الله في الدلائل: إن أول من أسلم من هذه الأمة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها .

وقال ابن إسحاق رحمه الله: كانت خديجة أول من أمنت بالله ورسوله، وصدقت ما جاء من عند الله عز وجل، وواظرت النبي ﷺ على أمره، فخفف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج عنه بخديجة رضى الله عنها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقته، وتهون عليه أمر الناس .

ومن الطبيعي أن يكون طليعة السابقين إلى دوحة الإيمان برسالة حبيبنا محمد ﷺ سيدنا على بن أبي طالب ؑ، فهو ثاني اثنين في السبق إلى الإسلام، إذ كان ربيب النبوة، ورضيع ندى الرسالة، المتقلب على فراش الإيمان، الناهد في مهد أكرم المكارم، فقد آمن في سن الصبا قبل أن يبلغ الحلم، فشب معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه ومشاشه وملاً قلبه، وأفعم بالنور روحه، وكانت العناية الربانية قد ساقته إلى حجر رسول الله ﷺ وزوجه خديجة الطاهرة رضى الله عنها وأرضاها.

ومن الذين حازوا قصب السبق في حلبة التسابق إلى ساحة الهداية، زيد بن حارثة الحب الذي كان ثالث ثلاثة في السبق إلى الإسلام، وهو الذي أفرده الله عز وجل بأشرف الشرف، فذكره في القرآن الكريم والذكر الحكيم باسمه، ممتناً عليه بإنعام

رسوله ﷺ بالحرية والولاية، قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) .

قال ابن عبد البر رحمه الله في كتابه النفيس الاستيعاب : روى عنه ﷺ أنه قال: أحب الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمت عليه .

وزيد الحب ﷺ من صميم العرب، وغلياً قبائلهم، فهو صريح النسب من جهة أبيه وأمه، عاش في كنف البيت المحمدي تحت إشراف السيدة الطاهرة خديجة رضى الله عنها، واستقى من مناهل عرفان الإيمان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فكان من الأوائل الميامين.

كان بيت أمنا خديجة رضوان الله عليها واحة الإيمان والسراج المنير، يذكر فيه اسم الله بالغدو والآصال، فلا عجب أن يمتضىء قلب زيد وعلى رضى الله عنهما بنور الإيمان وسنائه منذ أن هبت أنسامه العطران على البيت المحمدي الطاهر.

كان أولاده ﷺ من خديجة من السابقين إلى الإسلام، ولم يذكر العلماء في هذا الصدد أسبقية أولاده الأطهار إلى الإيمان برسالاته والتصديق بدعوته، لأن أبناءه الذكور: القاسم، عبد الله، ماتا في سن الطفولة، وكذلك ابنه إبراهيم من السيدة مارية بنت شمعون المصرية، مات صغيراً أيضاً.

وأما بناته الطاهرات العابدات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضى الله عنهن، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، ونعمن بنعيمه العظيم، وكى مع أمهن الطاهرة خديجة في أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ نبياً ورسولاً.

ومن المسلم الطبيعي أن تكون بنات خديجة ومحمد ﷺ من السابقين، لأنهن رضعن لبان الإيمان من أصولها، ونشأن على التمسك بالهدى المحمدي، والسيره الحسنة قبل البعثة.

روى ابن إسحاق رحمه الله عن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما قالت: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته .

وفى رواية أخرى عنها قالت: أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة وبايعت حين بايع النساء، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن .

فبنات النبي ﷺ في قرن ميمون مع أمهن السيدة الطاهرة خديجة ينظمن معها عقد أسبق السابقين، وأسبق السابقات إلى الإسلام، والتصديق برسالة أبيهن سيد الخلق ﷺ الذي كان أباً قبل أن يكون رسولاً، وقد كانت مكارم أخلاقه، ورفيع صفاته وكريم معاملته، يرينها رأى البصر والبصيرة، ويسمعن أحاديث الناس عنها، والولد على نهج أبيه وأمه ينهج ويدرج وينشأ.

ثم آمن أول مدعوٍ إلى الإسلام، الصديق الأعظم، فخر الملة، وإمام الصحابة، وعلم المسلمين وعيالمهم، وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، ثانی اثنين إذ هما في الغار، من وسمه الله عز وجل بأشرف الألقاب سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه.

روى الطبراني رحمه الله أن علياً ﷺ كان يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء صديقاً، قال علماؤنا من السلف والخلف: وهذا حكمه الرفع إلى رسول الله ﷺ إذ لا مدخل للرأى والاستنباط في مثله .

الطاهرة ورحلة مع المكارم:

كان لأمنا خديجة رضى الله عنها في مطالع إيمانها عند مشرق الرسالة سوابق لم تكن لبشر قط، وقد انفردت بفضيلة السبق وشرف الإيمان بمكرمة لا يلحقها فيها لاحق ولا يتقدمها سابق.

فأسبقية خديجة وبناتها من رسول الله ﷺ إلى الإسلام، من المكارم التي تتضح برحيق الفضل، وكذلك أسبقية على بن أبى طالب وزيد بن حارثة رضى الله عنهما، ونظرة لطيفة إلى هؤلاء الغر الميامين، نجد أنه كان يظلم البيت النبوى المبارك، في رعاية أطهر الطاهرات أمنا خديجة رضى الله عنها.

فإسلام هذه الأسرة الكريمة أسرة رسول الله ﷺ وزوجة خديجة وبناته الطاهرات، وربيب رعايته وتربيته على بن أبى طالب، ومولاه وحببه زيد، كان إسلام الفطرة الطاهرة النقية، التي ولدت في مهد الإيمان، ونشأت بين محضنى النبوة، حيث شاهدت أكرم مكارم الأخلاق، ورأت معالم النبوة وآياتها تتجلى في حياة النبي ﷺ قبل نزولها، ثم رأت معالم الوحي وسمعت آيات الله تعالى في بيت خديجة، والحكمة تنزل بينهم، فتمثلوا هذا كله، فسرت نسماة الإيمان والتصديق برسالة النبي ﷺ.

إن هذا كله على ما اعتقد من المكارم الجليلة الفواحة التي خص الله بها سيدة النساء خديجة رضوان الله عليها، إذ لم يكن في بيتها إلا مؤمن بالله، ومصداق بمحمد ﷺ، ومغمور بأنوار هدايته منذ بدأت الرسالة بقوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١).

فالسيدة خديجة عليها سحائب الرضوان ذات مكارم ندية، وكرامات جليلة، ومكانة نفيسة عند الرسول ﷺ فقد كانت الزوجة الأمينة الوفية التي حباها الله عقلاً لماحاً، ووهبها فطنة صافية زكية، وأنعم عليها بنفس صافية طاهرة، فلم يعرف تاريخ الإنسانية لها نداءً في صدق وفائها، وأمانة سرها، واستشراف عقلها إلى مطالعة أعماق النفوس البشرية، في ظلال مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله ﷺ فكانت في مقدمة السبق، وكانت الظاهرة في ذلك السباق الإيماني الميمون، فرزقت الخلود في دار النعيم مع الخالدين.

الطاهرة والصلاة:

ذكر رواية السيرة النبوية وغيرهم من العلماء أن الله عز وجل فرض على رسوله ﷺ الصلاة ركعتين أول ما أوحى إليه، وكان لخديجة رضوان الله عليها فضيلة السبق إلى الصلاة، وامتنال أمر الله عز وجل، فكانت أول من صلى مع النبي ﷺ.

ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن بعض أهل العلم حدثه أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريه كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله، صلى كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

ورد في عدد من المصادر عن شاهد عيان ما يؤكد أولية خديجة رضى الله عنها في السبق إلى الصلاة، وقد كانت الصلاة في مطلع شمس الإسلام شيئاً غريباً عن المجتمع المكي، بل والمجتمع الجاهلي آنذاك.

حدّث عفيف الكندي عن هذا فقال: كان العباس بن عبد المطلب لى صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام ليصلى، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلى، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلى فقلت: و يحك يا عباس، ما هذا الدين؟! قال: هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخى، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعت على دينه، قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ فى الإسلام: يا ليتنى كنت رابعاً .

فلتحلق خديجة فى سماء المكارم وفضاء المحاسن، ولتكن أول امرأة تقيم الصلاة فى دنيا نساء أهل البيت الطاهر.

الطاهرة تتحمل أذى الكفار:

أخذ رسول الله ﷺ يدعو عشيرته الأقربين، ويدعو قومه إلى الإسلام بالله تعالى رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وراح يدور على مجالس قريش يدعوهم إلى الإسلام، فيلقون إليه أسماهم مرة، ويعرضون عنه مستهزئين مرات، والرسول الكريم ﷺ صابر يصدع لأمر الله عز وجل، ويلقى من عطف زوجه خديجة رضى الله عنها ورعايتها وتشجيعها ما يخفف عنه آلام الدعوة، وأعتقد أن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تدعو من تعرف من جماعة النساء إلى الإيمان بالله عز وجل وبرسوله محمد ﷺ، ولا شك أنها كانت تجد بعض الإعراض من النسوة اللاتي كانت تدعوهن إلى صراط العزيز الحميد، الله رب العالمين.

وتابع البيت المحمدى المضمخ بأريج النبوة الدعوة إلى الله عز وجل، ووقف المجتمع الوثنى يريد أن يسد منافذ النور، بينما انطلق كبار الفجار، وأسياد الأشرار يظهرون غلظتهم فى تعذيب من استجاب لدين الحق وبدأت مساوماتهم مع رسول الله ﷺ ليكف عن ذكر أصنامهم بسوء.

ولكن رسول الله ﷺ كان يتنزل عليه القرآن، ويقص عليه أحسن القصص، فكان يقرأ عليهم بعض الآيات ويسمعهم بعض السور، فإذا بالقرآن الكريم يحرك العجب فى

نفوسهم، وكانت كلماته البليغة ترن في أحوارهم وينبعث صداها في أفئدتهم، وهم صفوة العرب فيعرفون إذ ذاك عظمة القرآن، وأنه ليس من كلام البشر.

إلا أن ملأ الأشرار غلبت عليهم الشقوة، وصعب عليهم أن يفارقوا ما ألفوا آباءهم عليه عاكفين، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وتواصوا فيما بينهم أن يتابعوا طريق اللد والعداد، ويرموا رسول الله ﷺ بالسحر، وكان زعيم الفجار عتبة بن ربيعة، وقد شايعه عدد من أكابر المجرمين.

كانت قريش غنية بأموالها، معتدة برجالها، معتزة بمكانتها في العرب، بينما كان محمد ﷺ وصحبه أغنياء بنور الله الذي أشرق في قلوبهم، وأضاء نفوسهم، كانوا أقوىاء بالله رب العالمين، فلم يثتثم عن إيمانهم تعذيب المشركين، وإنما تابعوا طريق الإيمان مع رسول الله ﷺ، تابعوا ذلك الطريق القويم ليكونوا من الذين يرثون الفردوس، فيكونوا فيه خالدين.

الظاهرة وصور من صبرها:

حارب الرجال والنساء في مكة دعوة الإسلام والسلام التي يدعو إليها الحبيب المصطفى محمد ﷺ وكان بعض رجال بنى أمية ونسائهم، وبعض من رجال بنى مخزوم ونسائهم، قد اشتبهوا في عداوتهم لرسول الله ﷺ.

كانت أم جميل بنت حرب حمالة الحطب زوج أبي لهب من لد أعداء بنى الإسلام، فقد سخرت زوجها أبا لهب لكي يصد عن سبيل الله وما نزل من الحق، حتى نزلت في حقهما سورة كاملة تتدد بهما وتندرها بنار ذات لهب.

ومن المتوقع أن تكون أم جميل قد صبت غضبها على خديجة رضى الله عنها، وحاولت أن تضع العوائق العديدة لمنع سير رسالة الإسلام، وأوعزت إلى ولديها أن يفسخا زواجهما من ابنتى رسول الله ﷺ لإرهاق الدعوة الربانية، وإرهاق محمد ﷺ وخديجة عليها سحائب الرضوان، وكذلك إرهاق ابنتى النبى ﷺ.

غير أن الله عز وجل قد أكرم ابنتى رسول الله ﷺ وصانتهما عن البيت اللهبى بيت أبى لهب وزوجه الحاقدة أم جميل، وتزوج عثمان بن عفان رضى الله عنه رقية رضى الله عنها، ثم تحملت رقية هى الأخرى مع زوجها نصيباً من أذى قريش، وها هى ذى تهاجر إلى

الحبشة بصحبة زوجها عثمان، وثلة من الأولين الذين تحلقوا حول دوجة اليمن في مشرق الإسلام وبزوغ شمسها على الدنيا.

كانت خديجة تودع ابنتها رقية، وهي تتجدد، وإن كانت الدموع تسبقها، لكن خديجة عاهدت الله أن تكون مع رسوله الأمين لآخر نفس من حياتها...

إن خديجة رضى الله عنها قد جادت بأموالها وضحت براحتها في سبيل الله عز وجل، وفي سبيل إعلاء كلمته، وهي على استعداد لأن تجود بكل شيء لتكون كلمة الله هي العليا، ويشرق نور الإسلام على الوجود، وتكون كلمة الذين كفروا السفلى.

إن فراق الأحبة ليهون ما دام ذلك الفراق في طلب مرضاة وجه الله ليس غير، وما أخف لوعة بعاد فلذات الأكباد إذا ما قيست بلذة القرب من الله عز وجل، الذى أعد للمتقين جنات ونهر، في مقعد صدق عند وجهه الكريم وفيضه العميم!.

بدأ المسلمون يتأهبون للهجرة بدينهم إلى الحبشة خيفة الفتنة، وودع رسول الله وخديجة، وعثمان ورقية، وانطلق المهاجرون مصحوبين بعناية الله، ودعوات رسول الله ﷺ وزوجه خديجة رضى الله عنها، كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة من صفوة قریش حسباً ونسباً.

مضت سنون ولم يدخل في الدين القويم سوى عدد من المؤمنين ثمانين رجلاً أو يزيدون قليلاً فقد أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين، وصقل نفوسهم بجوهر الحق المبين، فباتوا أسعد الثقلين بارتباطهم بالله عز وجل الذى خصهم بالاصطفاء والسبق إلى الفضائل، فأضحوا سادة الدنيا وأسياد العالم.

ينس المشركون والكفار من ثبات المسلمين على التوحيد ومضيههم في طريق الدعوة إلى الله لا يباليون بما اتبعه كفار قریش من طرائق للتعذيب والصد عن ذكر الله لا تلهيهم طريقة فجور، ولا تثنى عزائمهم فظائع المشركين، وراح رعوس الفجرة الكفرة من قریش، يتشاورون فيما بينهم عما يتخذونه من إجراء لتحطيم الدعوة وقتلها في مكة، قبل أن نعم الأرض، وانتظم في ركبهم كل فاجر وغوى وكان من بينهم فاجر خبيث هو أبو لهب بن عبد المطلب الذى فارق عشيرته وانفرد دونهم بالعداء المعلن والأذى المستحکم، وظاهر على رسول الله ﷺ قریشاً وأجمعوا أن يقتلوا محمداً ﷺ.

وثار بنو هاشم وبنو المطلب على ما أجمع به كفار قريش، وأعلن بنو هاشم حمايتهم لرسول الله ﷺ وإن لم يكونوا جميعاً على دينه، وهاهنا اقترح النضر بن الحارث العبدري أحد أكابر المجرمين من قريش مناظرة بنى هاشم وبنى المطلب، وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق، وألا يناكحهم، وألا يقبلوا لهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ للقتل، وارتفعت الأصوات مؤيدة مرددة ما قاله الفاجر الخبيث النضر بن الحارث، كأنما قد وضع كلامه فى أفواههم: لا تناكحهم، ولا تتكحوا إليهم، ولا تبيعوهم شيئاً ولا تبتاعوا منهم شيئاً، ولا تقبلوا منهم صلحاً .

واتفق المجرمون على أن يكتبوا بذلك صحيفة، ويعلقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، ثم ذهب الذين اتبعوا أمر الرشاة إلى الكعبة وعلقوا الصحيفة فيها، فرأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على قومه، فجمع بنى هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أن يدخلوا برسول الله ﷺ الشعب ويمنعوه، فانطلقوا إلى الشعب ورسول الله ﷺ فيهم.

كان دخول النبي ﷺ والذين معه الشعب هلال المحرم سنة سبع من البعثة النبوية، فضرب كفار قريش حول شعب أبى طالب نطاقاً من الحراس يمنعون الناس من الدخول، أو الاتصال بمن قبلوا الدخول لحماية رسول الله ﷺ تطوعاً.

مرت الأيام، وانقضت سنة، وبنو هاشم والمطلب فى ضيق، فقد نفذ ما كان عندهم من قوت، وخوت بطونهم، وزاغت عيونهم، وخارت قواهم، وعانى نساؤهم ، وبكى صغارهم جوعاً وراحوا يصرخون ويطلبون الطعام، فكانت دموع النساء تنهمر وقلوبهم تتألم، وأكباد الرجال تتفتت...

مضت ثلاث سنوات كانت عجافاً على المسلمين، وهم محاصرون داخل الشعب، كانت أيامهم فيها أيام شدة وضيق، لكنهم صبروا صبر الكرام لهذه المحنة العظيمة، وهم ممثلون لأمر العليم الخبير، ليقتضى أمراً كان مفعولاً وفى الكتاب مقدوراً.

ثم جاء الفرج الإلهي، إذ نادى أفراد من قريش بفك الحصار عن المسلمين، ومزقت الصحيفة الظالمة، وخرج المسلمون وهم يقولون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر... .

وهكذا فرج الله عز وجل عن المحاصرين وأزال ما أهمهم وما أغمهم وأحزنهم، خرجوا جميعاً ليمارسوا حياتهم الطبيعية بين أفراد المجتمع المكي، وكان خروج سيدنا محمد ﷺ ومن معه من محنة الحصار في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بثلاث سنين.

الطاهرة ورحلة الخلود:

كانت أم المؤمنين خديجة رضوان الله عليها أعرف الناس وأقدرهم على وزن ما حمل رسول الله ﷺ من أمانة التبليغ، لقد آمنت به وصدقته رسولاً أميناً لله تعالى، يتلقى وحيه، ويبلغ رسالته، فيلقى من البلاء ما تتوء بحمله الجبال الرواسي، فتتفس عنه وتشجعه وتعينه على الصبر، وتمسح عنه ضائقات الصدور، وتهمس له بلواطف العواطف النبيلة، حتى يتم تبليغ ما أمره الله.

قضت الطاهرة خديجة رضى الله عنها في كنف رسول الله ﷺ أشق مراحل الدعوة، فكانت حياتها معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأبر شريكة لشريكها، كانت تشاركه مباحجه ومسراته، وتهيئ له أسباب تفرغه لعبادة ربه، تخدمه في بيتها وعقلها وروحها ووجدانها، وترد عنه عاديات الحياة ونوائبها بين قومه، حتى إذا جاءت النبوة بطلائعها ووحياها، كانت أول من آمن به وصدقته، وعندما حدثها عن الوحي، وعن المفاجآت التي لقيها، عرفت بفراستها وصادق حدسها، وحسها المرهف، وشعورها المستشرف أن أمر هذا الزواج الأكرم، لم يعد أمر حياة زوجية يملؤها دفء الحنان، وهمس الوفاء، ولكنها ارتقت إلى حياة جديدة في معالمها، إلى حياة رسالة ورسول، إلى حياة خالدة، حياة دعوة تهدم وتبنى، تهدم الشرك والوثنية، وتبنى الأمة المؤمنة، تهدم التقليد الأبله، وتبنى المعرفة والهداية.

بهذه المكارم، فلترتفع خديجة الصديقة الأولى، بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصديقة الأسمى، حياة الإيمان بالرسالة والرسول ولتكن الطاهرة معه وزير صدق،

ورفيقة الإخلاص وفداء، فالرسول ﷺ هو الصادق الأمين، ومجمع مكارم الأخلاق، وموئل الفضائل، ومنج الشمائل ومنبع المحامد، ومصدر الخير، وقد اجتباه الله تعالى أميناً للرسالة، وقد عرفت خديجة الطاهرة رضوان الله عليها هذه المحامد كلها وقدرت شخص الرسول ﷺ حق التقدير.

ومرت الحياة هنية في ظل وفاء الزوجة، وصديقية الإيمان، بين محمد ﷺ الزوج الكريم الحبيب، وبين خديجة الزوجة الوفية الصديقة المؤمنة.

كان عمل خديجة رضى الله عنها في بيتها بالوفاء الزوجي، وتربية أولادها، أكرم عمل كبير يسدى للرسالة فضلاً، ويمدها بقوة، إلا أن رسول الله ﷺ أحوج ما يكون - وهو يخوض نضالاً مريراً في سبيل تبليغ رسالته - إلى عاطفة الوفاء في زوجة صادقة الإيمان برسالته، تنسكب في قلبه برداً وسلاماً عندما يثوب إلى بيته، فيحدث ويتحدث في جو مفعم بالإيمان، فكانت تهون عليه الصعاب، وتجدد فيه العزم، فيخرج إلى حياة الناس مسيح الآلام، فسيح الآمال، روى الفؤاد بالصفح والإحسان والمودة.

بهذا الأدب الإلهي الذي اعتصمت بعواصمه خديجة رضى الله عنها، عاشت في كنف محمد ﷺ الزوج، ومحمد ﷺ الرسول، تتقاسم معه الشعور بالسعادة في التطلع إلى آمال المستقبل في آفاق الحياة، وتقاسمه الإحساس بأعباء تبليغ الرسالة معتصمة بالصبر الجميل تأسياً به ﷺ في مجالات الحياة.

دخلت خديجة رضى الله عنها حصار الشعب مع رسول الله ﷺ، فشاركته آلام المحنة ومرارتها راضية صابرة محتسبة تواسى الحبيب المصطفى ﷺ وتخفف عنه وقع هذا الظلم الأليم الفاجر، إلى أن خرج ﷺ من هذا الحصار ظاهراً منصوراً عزيزاً ينابيع نشر دعوته وتبليغ رسالته، وخرجت معه زوجه الوفية خديجة أطهر الطاهرات إلى بيتها يتابع سيرها في الحياة زوجة أمينة، مستظلة بظل الإيمان وصادق الوفاء.

لكن أمانة خديجة رضى الله عنها لم تلبث إلا قليلاً بعد الخروج من الحصار، حتى ذبلت، ودب الوهن في جسدها، غير أن عزيمتها لم تذبل، وإنما كانت تنتظر إلى رسول الله ﷺ نظرة إكبار، فهو زوجها ورسولها الذي أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والسلام، وأخذ بيدها إلى النبع الروحي الصافي الذي نهلت منه، فلم تظماً بعدها

أبداً، فقد فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال نفحات ربها، وعرفها السعادة الحقيقية بإشراق أنوار المعارف فى عين ذاتها.

وذات يوم لبث خديجة نداء ربها راضية مرضية، مبشرة من رسول الله ﷺ بالنعيم المقيم فى فرديس الجنان، عند ملك مقتدر، انتهت رحلة الحياة مع خديجة رضى الله عنها لتبدأ رحلة الخلود فى نعيم لا يزول، ولتنزل فى أفئدة المؤمنين الذين أحبوا سيرتها وأحبوا أمهم، وأحبوا زوجة نبيهم الحبيب الأعظم محمد ﷺ.

الطاهرة و ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ (يس: ٥٨):

عندما تعرض الإمام الذهبى رحمه الله للحديث عن أمنا خديجة قال: خديجة أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين فى زمانها أم القاسم ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصى بن كلاب القرشية الأسدية، أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به وصدقته قبل كل أحد وثبت جأشه، ومضت به إلى ابن عمها ورقة^(١).

وقال الذهبى أيضاً: ومناقبها جمة، وهى ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة، من أهل الجنة، وكان يثنى عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ فى تعظيمها، بحيث إن عائشة كانت تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة، من كثرة ذكر النبى ﷺ لها^(٢).

ومن كرامتها عليه أنه ﷺ لم يتزود امرأة قبلها وأنجبت له عدداً من الأولاد، ولم يتزوج عليها، ولا تسرى إلى أن توفاه الله، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين.

قد خصها البارى عز وجل بالسلام على لسان جبريل .

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن أبى هريرة ؓ قال: أتى جبريل النبى ﷺ وهو بغار حراء — كما عند الطبرانى فى رواية سعيد بن كثير — فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببیت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧/ ١٠٢، ١٠٣) مسلم (٢٤٣٥).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٨٢٠) مسلم (٢٤٣٢، ٢٤٣٣).

قال ابن حجر رحمه الله فى الفتح: زاد الطبرانى فى رواية سعيد بن كثير المذكورة: فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .
وعند النسائى زيادة: وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته وهذه لعمر الله خاصة لم تكن لسواها.

ولنقف وقفة ندية مع أمنا الطاهرة، فنلاحظ معرفتها بعظمة الله عز وجل فى ردها على سلامها عليها، ونعزز هذا القول بما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى الفتح: قال العلماء: فى هذه القصة دليل على وفور فقهها، لأنها لم تقل: وعليه السلام، كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون فى التشهد: السلام على الله، فنهاهم النبى ﷺ وقال: إن الله هو السلام، فقولوا: التحيات فعرفت خديجة بصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين .

إن هذا من أعظم المنزلة أن تتلقى الطاهرة خديجة السلام من السلام الله رب العالمين، إذ كانت أوفى زوجة، وأصدق صديقة، وكانت دعامة الإخلاص الوفى فى مسير حياة الرسالة السماوية، فاختصها الله عز وجل بهذه المنزلة العظمى، أوليست خديجة أول المؤمنين والمؤمنات بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً؟! إنها الطاهرة الكاملة، وكفى! وهل هناك فخر وراء ذروة المجد والسؤدد الذى لا يتكرر فى هذه الحياة أبداً!.

الطاهرة والحياة الحقيقية:

هل توقفت حياة أم المؤمنين خديجة بانتقالها إلى دار الخلود؟!
إن ذكرى الطاهرة خديجة رضى الله عنها وصورتها لم تكن تبرح خيال رسول الله ﷺ أبداً، وكيف تبرح صورتها ذهنه وهو أوفى الأوفياء وسيد الأصفياء؟!
أعتقد أن الحياة الحقيقية للسيدة خديجة رضى الله عنها لا تزال مستمرة إلى ما شاء الله... لقد رافقت ذكرياتها مسيرة حياة بناتها وأحفادها، ثم فى حياة كل امرأة تؤمن بالله ورسوله، وفى ضمير كل مؤمن يحب الله ورسوله.

إن الثناء لا يكتسب بالمال، وإنما بما يترك الإنسان فى دنياه من فضائل يبقى أريجها مدى الدهر، ينتعش بذكره الأحياء، وتصفو بذكرياته النفوس، وتتغذى بسيرته العقول، قل لى بربك: أليست هذه ذروة السيادة فى الحياة وفى الممات .

إن أمانة خديجة رضى الله عنها لم تكن أم المؤمنين فحسب فإنما كانت أم كل فضيلة، ولها فى عنق كل مؤمن فضل وحق إلى يوم يبعثون، فهل نستطيع أن نفى أمانة جزءًا من حقها؟!.

بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ووفاة أبى طالب عم رسول الله ﷺ، خلا الجو لأحلاس الشرك، وفجار الوثنية فى مكة، فنالوا من الحبيب المصطفى ﷺ ما لم يكونوا نائله منه، فأطلق رسول الله ﷺ على ذلك العام عام الحزن إكرامًا للطاهرة خديجة رضى الله عنها، ولأنه لم يجد متنفسًا لدعوته، ولا منتجًا لتبليغ رسالته فى أم القرى وما حولها، ولكن الله متم نوره ولو كره المشركون، وظلت خديجة رضى الله عنها فى قلب النبي ﷺ فى كل مناسبة، وفى كل مكان وموضع، لا تكاد تسنح سانحة إلا يعطر المجلس بذكرها، أو يثنى عليها، أو يذكرها بالخير، وحسبك بثناء رسول الله ﷺ عليها...

ذكرت أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها خبرًا مباركًا، يدل على مكانة الطاهرة خديجة رضى الله عنها، فيعطر الأسماع، ويبهج القلوب، ويؤنس النفوس، بما للطاهرة من مكانة عند رسول الله ﷺ، وبما لها من رصيد فى ميدان الفضائل، وفى سماء المكرمات فتقول كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها، فذكرها يومًا فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، فرأيتك غضب غضبًا، أسقطت فى خلدى، وقلت فى نفسى: اللهم إن أذهبت غضب رسول الله عنى لم أعد أذكرها بسوء، فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت قال: كيف قلت والله لقد آمنت بى إذ كذبتى الناس، وأوتى إذ رفضنى الناس، ورزقت منها الولد وحرمتوه منى قالت: فغدا رواح على بها شهرًا .

فى اعتقادي أن هذا الثناء من رسول الله ﷺ على خديجة يمثل نزوة الوفاء الصادق، وخالص الود، وعظيم الإخلاص، فخديجة رضى الله عنها أظهر الطاهرات لن يبلغ أحد ما بلغته عنده ﷺ حتى الصديقة ابنة الصديق بما لها عند الرسول الكريم ﷺ تعتذر عندما يغضب لمن يذكر خديجة بما لا يليق بمكانتها الغالية والعالية، حتى ولو

كان تعريضاً أو تلميحاً، فخديجة وإن غيبت في الثرى إلا أنها لم تغب من ذاكرة النبي ﷺ، فلا ينى يذكرها بخالص الود، وجميل العرفان، وحسن الأحدثوة، وكرم المخبر. ولعل ثناء رسول الله ﷺ المتزايد على أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها قد أثار غريزة الغيرة عند أمنا عائشة رضى الله عنها، فتبوح بما فى مكنونها وتترجم عن مكانة خديجة فى نفس رسول الله ﷺ فتقول: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها، وما تزوجنى إلا بعد موتها بثلاث سنوات، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب (١).

إن خديجة رضوان الله عليها خير نساء الأرض فى عصرها، فقد تبوأ مكانة عظمت فى سدة الفضائل لم تتبوأها امرأة غيرها، ولهذا قال عنها الحبيب المصطفى ﷺ: خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران (٢).

أما وفاء عهد رسول الله ﷺ لخديجة الطاهرة فليس له نظير فى دنيا الوفاء والأوفياء، وفى دنيا النقاء، ودنيا الإخلاص، وكيف لا والحبيب المصطفى ﷺ معقل كل فضيلة، ومعقد كل مكرمة، وموئل كل بركة، فقد كان يود صديقات خديجة، وذوى رحماها؟!.

ففى صحيح الإمام مسلم رحمه الله عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا ذبح الشاة قال: أرسلوها إلى أصدقاء خديجة فذكرت له يوماً، فقال: إني لأحب حبيبها (٣) وفى رواية: إني رزقت حبها .

نعم إن الحبيب المصطفى ﷺ ليحب من تحب زوجه الوفية خديجة، فإن المحبوب يذكر بالحبيب، وهذا ما حدث فى بيت الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، فقد روت عائشة رضى الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبى ﷺ وهو عندى، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية .

فقال: بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ .

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخارى (٣٨١٥) مسلم (٢٤٣٠).

(٣) رواه مسلم (٢٤٣٥).

قالت: بخير، بأبى وأمى يا رسول الله .
 فلما خرجت، قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال .
 قال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان (١).
 وكان رسول الله ﷺ يبصر صدائق خديجة رضى الله عنها بعد موتها، إحياء لذكراها،
 ووفاء لظهرها وكرمها.

عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالشيء يقول: اذهبوا إلى بيت
 فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة .

وفى الصحيح عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان
 يذبح الشاة فيتبّع به صدائق خديجة، فيهدّيها لهن (٢) .

ولم يغب عن بال المصطفى ﷺ صوت زوجه البارة خديجة، فكان صوتها الدافئ
 يسكن حناياه الشريفة، ففي الحديث الذى روته عائشة رضى الله عنها مصداق ذلك.

قالت عائشة: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد على رسول الله
 ﷺ، فعرف استئذان خديجة وتذكره، فارتاع لذلك، فقال: اللهم هالة بنت خويلد فغرتُ
 فقلت: وما تذكر عن عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر فأبدلك
 الله خيراً منها (٣) .

بيد أن الحبيب المصطفى ﷺ غضب لذلك، حتى وعدت عائشة ألا تذكر خديجة إلا
 بخير، فكان ذلك منها فيما بعد رضى الله عنهما.

أجل، فخديجة نسيح وحدها، ولها خواص لم يلحقها بها أى واحدة من نساء أهل
 البيت ومن أزواج الرسول ﷺ، فمن خواصها أنها لم تسؤه ﷺ قط، ولم تغاضبه، ولم
 ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هجر، وكفى بهذا منقبة وفضلاً.

وهذه فقرات بلاغية أنشأها ابن الأبار الأندلسى فى الثناء على نساء أهل البيت،
 وعلى أمانا خديجة خاصة، وها نحن أولاء نقتطف بعض زهرات الود والثناء من أكمام
 زهر رياض هذا البلوغ.

(١) انظر فتح البارى (١٠/ ٣٦٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨١٦) مسلم (٢٤٣٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٧).

يقول: ما كانت خديجة لتأتى بخداج - ناقص - ولا الزهراء لتلد إلا أزهاراً كالسراج، مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً، ولا تضع إلا طيباً، خلدت بنت خويلد ليزكو عقبها من الحاشر العاقب، ويسمو مرقبها على النجم الثاقب... .

وعندما نزل الوحي الأمين على رسول الله ﷺ صورها ابن الأبار بقوله: ... طففت بحكم الإجلال تسمح أركانها، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه، فباح لها بالسر المغيب، وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب، فعلمت أنه الصادق المصدوق، وحكمت بأنه السابق لا المسبوق، وما زالت حتى أزلت ما به من الغمة، وقالت: إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة:

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر

لا ترهب فسوف تبهر، وسيبدو أمر الله تعالى ويظهر، أنت الذي سجت به الكهان، ونزلت له من صوامعها الرهبان، وسارت بخبر كرامته الركبان... وما لبثت أن غلقت أبوابها، وجمعت عليها أثوابها، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل، تطلبه بتفسير ذلك المجمل... فاستبشر به ناموساً، وأخبر أنه الذي كان يأتي موسى، فازدادت إيماناً، وأقامت على ذلك زماناً... سبقت لها من الله تعالى الحسنى فصنعت حسناً وقالت حسناً... دانت بالحق دين الإسلام، فحياها الملك بالسلام من الملك السلام... يسرت لاحتمال الأذى والنصب، فبشرت ببيت في الجنة من قصب، مكثت للرسالة مواسية وآسية، فنلت في بحبوحة الجنة مريم وآسية.

وما أجمل أن نعيش في أجواء هذه الأبيات في امتداح أمانا خديجة رضى الله عنها:

علوت فلم تدرك مقاماتك الكبرى فغيرك لا تدعى، وإن عظمت كبرى
وكم في نساء العالمين عظيمة ولكنها إن قورنت بك فالصغرى
تفرست في وجه النبي فراسة عرفت بها ما كان من أمره سراً
فأصبحت مهذا للرسالة حاضناً تلقيتها من حين ما نزلت اقرا
وأنت التي طمأنت طه بأنه تلقى من الله الرسالة والذكرا
وزملته دثرته ولورقة ذهبت به يتلو عليه الذى يقرا

كتبت حروفاً من حياة محمدٍ فأصبحت في أعلى صحائفها سطرًا
وقد شكر المولى صنيعك إنه شكور وهذا الفعل يستوجب الشكرا
فأهداك مولاك السلام سلامه وأعطاك في الفردوس من قصب قصرًا
والآن، لا تزال أمتنا خديجة ملء السمع والبصر والقلب - وأين مثل خديجة -
نحب سيرتها، ونستروح العبير من أزهار حياتها، ونتفياً بالرياض النضرة بقرأة
سيرتها، لتكون لنا زاد المسير في طريق الطهر، وفي درب العطاء، نحبها لتكون يوم
القيامة مع من نحب بإذن الله فعسى أن يحشرنا ربنا معها، وعسى الله عز وجل أن
يكرمنا لكرامتها ولكرامة رسوله الكريم ﷺ.

اللهم إنا نسألك عملاً صالحاً يقربنا إليك، اللهم إنا نسألك أن تلهمنا الصواب،
وتجعل لنا من أمرنا رشداً والحمد لله رب العالمين.

أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها

من السابقات إلى دوحة الإيمان وأفياء الإسلام.
هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة فهي من أصحاب الهجرتين.
سيدة جليلة، نبيلة، كريمة، طيبة النفس والقلب، دخلت خدر أمهات المؤمنين بعد
خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وأرضاها.
روت خمسة أحاديث شريفة.
كانت سيدة التمسك بالهدى النبوى، وتوفيت، فى أواخر خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه
بالمدينة المنورة.

أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها^(١)

رحلة مع السابقين:

الذين استجابوا لله وللرسول من السابقين الأولين، لم يكونوا كلهم ولا أكثرهم من
الضعفاء، والأرقاء، والفقراء، وحواشى بيوتات مكة، وأتباعها، وأرادلها الذين استقروا
فيها بآدى الأمر، بل كانوا فى كثرتهم الكائرة من صميم أبناء بيوت قريش وبطونها،
وعلية شبابها، وأفضلهم فى عليا المكارم، وفى الحسب والنسب والمكانة الاجتماعية...
هؤلاء السابقون معروفون بأسمائهم وأنسابهم، وبيوتهم، وقبائلهم، وعشائرهم، وإن
ما اشتهر على الألسنة وبعض الكتب من أن الذين سبقوا إلى دوحة الإيمان بدعوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا من المستضعفين والمحرومين، أو من الأرقاء والموالى، كلام لا
عمق فيه، ولا تحقيق، ولا يمت إلى ديوان الأخبار الصحيحة بصلة، أو إلى الحقائق
العلمية والعملية بأدنى رابطة، وإن كان بعض السُّبُق ممن استضعفوا فى الأرض.
إن الله عز وجل قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً وبشيراً ونذيراً إلى العباد كافة، وأمره
عز وجل بالإنذار العام فى قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ﴾ (المدثر: ٢) فنهض رسول

(١) انظر الإصابة (٤/ ٣٣٠) والاستيعاب (٤/ ٣١٧) وأسد الغابة (٦/ ١٥٧) وغيرها الكثير.

الله ﷻ بأمر ربه، لا يبالي بما يلقاه من شديد الأذى، وفادح البلاء، لا يتقى أحدا من الناس، ولا يصانع ولا يجامل.

بدأ الحبيب الأعظم ﷻ بتبليغ رسالته، وهو منفرد في قومه، ليس معه من ينصره منهم، ولا من غيرهم، بل كانت قريش والدنيا من ورائها، إلبُ على هذه الدعوة الهادية الهادفة الراشدة التي تتدد بحياة الشرك والضلال والفوضى والضياع التي يعيشونها، تتدد بحياتهم الظالمة التي يحيونها دون رادع يردعهم عن فجور ظلم يرتكبونه، أو عتو بغى يأتونه، إذ لا هدف يعيشون من أجله، ولا دين، ولا نظام، ولا ضمير...

وهذا الحبيب المصطفى ﷻ ماضٍ في دعوته، لا يرده عن سبيلها راد، فاستجاب له أول من استجاب — بعد زوجه الأريبة النجيبة، الحسيبة النسبية سيدة قومها جاهلية، وسيدة نساء العالمين إسلامًا خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية — أبو بكر الصديق، أعلم قريش بقریش، وأحد ساداتها مالاً وشرفاً ومكانة.

كان أبو بكر ؓ مَدْ دُخِلَ في الإسلام قوامًا بالدعوة إلى الله عز وجل، دعا أبناء عليّة قريش، وذرا أحسابها، وشباب بيوتها، فاستجاب له هؤلاء، وكانوا نواة الإسلام الأولى، واللبنات الأساسية في صرحه الكريم.

من هؤلاء المؤمنين السابقين إلى دوحة الإيمان: السكران بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري أخو الصحابي الشهير سهيل بن عمرو العامري، وأسلم معه زوجه وابنة عمه سودة بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية رضى الله عنها.

عرفت سودة بأنها من ذوات السيادة والنبيل والشرف في مجتمع نساء قريش، ولما انتظمت مع زوجها في ثلة المؤمنين الأولين، وأصبحت من جند دعوة محمد ﷺ مع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

وعند ذلك طارت عقول قريش شعاعًا من أدمغتها، ودارت أفئدتهم في حنايا أضالعهم، وتنفسوا الصعداء غمًا وهمًا وكمدًا لإسلام هؤلاء الأبرار الميامين، وتركهم ما كان يعبد آباؤهم الأولون.

بدأت فدائح البلاء تتوالى على هؤلاء البررة المؤمنين بما أنزل الله من الهدى ودين الحق، وطفقوا ينزلون بالمسلمين ألوان العذاب، وراحوا يتقنون فى تعذيبهم بأبشع ما يتصوره عقل بشر...

شعر رسول الله ﷺ بما نال أصحابه الكرام، من قواصم البلاء، ومن شديد الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يؤذن لهم برد الاعتداء، لا لأنهم ضعفاء، بل لكونهم دعاة هداية، وأصحاب رسالة، أريدوا لتبليغها إلى الدنيا كلها فى أرض الله، ولن يستطيعوا أن يبلغوا رسالات ربهم، إذا زجوا بأنفسهم فى الرد على أذى المشركين، فليصبروا، وليصابروا وليعفوا وليصفحوا وليغضوا الطرف عن سفاهة السفهاء وليتساهلوا مع ظلم الأقارب، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، وحتى يأتى بالفرج من عنده، وكانوا بذلك يقتدرون بالحلم والصبر بحبيبهم ونبيهم محمد ﷺ، والله در البوصيرى إذ يقول مصوراً هذه المعانى بشعره الرائق الفائق:

جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علماً وحلماً فهو بحر لم تعيه الأعباء

لمعت بارقة من الفرج، فليخرج المؤمنون إلى مكان يأمنون على أنفسهم من الفتنة فى دينهم، ويبلغون رسالات الله، فى أرض الله، فى الحبشة أرض الصدق والأمان، تلك الأرض لا يجدون فيها ظلماً ولا هضمًا، ولا عداوة ولا رهبة ولا جدالاً ولا مراة.

فَرَجٌ قَرِيبٌ:

عقد المؤمنون آمالهم بالفرج عندما وجههم الحبيب الأعظم ﷺ إلى الهجرة فى قوله وهو يرى ما يُصنَّبُ عليهم من البلاء: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

وفى حديث الزهرى رحمه الله عن عبد الرزاق قال: لما كثر المسلمون، وظهر الإيمان، أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم، يعذبونهم، ويؤذونهم ليردوهم عن دينهم، قال: فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال لمن آمن به: «تفرقوا فإن الله الله، فإن الله سيجمعكم» قالوا: إلى أين نذهب؟.

قال: «إلى هاهنا» وأشار بيده إلى أرض الحبشة، فهاجر إليها ذو عدد، منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه.

كانت سودة بنت زمعة رضى الله عنها مع زوجها السكران بن عمرو مع نفر الثمانية من بنى عامر الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم فى الهجرة الثانية، وركبوا عباب البحر، قاصدين أرض الحبشة حتى وصلوها.

مكثت سودة وزوجها فى الحبشة دهرًا، ثم قدما مكة ليتابعا طريق السلامة فى الإسلام.

سودة فى مكة:

قال ابن سعد رحمه الله: «أسلمت سودة بمكة قديمًا وبايعت، وأسلم زوجها السكران ابن عمرو، وخرجا جميعًا مهاجرين إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية».

قال النووى رحمه الله فى تهذيبه: «كان السكران بن عمر ﷺ مسلمًا، وهو من مهاجرة الحبشة، ثم قَدِمَا مكة، فمات بها السكران مسلمًا ﷺ».

تأثر النبى الكريم ﷺ للمهاجرة المؤمنة التى فقدت زوجها وأضحت أرملة وحيدة، تعيش فى مكة تتحمل آلام الوحدة وإيلامها وعذاب المشركين وغلظتهم وإيذائهم للمسلمين، ولكنها صبرت، واسترجعت، فالإيمان الذى استقر فى أعماقها أضاء لها جوانب الحياة فى ظل السعادة تحت جناح الإسلام.

فى تلك الأيام، كان يؤلم رسول الله ﷺ فراق زوجه خديجة الطاهرة رضى الله عنها، وإذ ذاك قاسى بعدها وحشة ممضئة، فالطاهرة كانت قبل البعثة خير معين له على أن ينقطع للخلوة، والتحنث والتفكر فى خالق هذا الكون، وما كانت تضيق بهذه العزلة، بل كانت تبارك فيه حب النزوع إلى ملكوت السماء، ومحاولة الاتصال بالخير الأسمى، وكمال الكمال.

كانت خديجة رضى الله عنها بعد الرسالة، نبض الإسلام، وحاضنة الدعوة، والبلسم الشافى لكل الجراح، والنور المضىء لكل طريق فما من مرة كان يعود إليها مثقلًا بالهموم والأحزان، إلا كانت تقبل عليه تشجعه وتواسيه، ولا تغادره حتى تمسح عن قلبه الكبير الأوصاب، وحتى يفتت ثغره الشريف بالابتسام، ويتألق فى عينيه

الشريفتين التصميم والعزم على احتمال الآلام كلها في سبيل الله عز وجل، حتى يؤدي الأمانة ويبلغ ما أنزل إليه من ربه.

لقد أذلت خديجة الدنيا بإدبارها عنها، وأعزت الآخرة بإقبالها عليها، ولما توفيت بكأها رسول الله ﷺ وأولادها وصحبه بدمع هتون، لقد رحلت الطاهرة سيدة نساء قریش، وحاضنة الإسلام، وأم المؤمنين وحببية رسول الله رب العالمين، فكان ذلك العام العاشر من البعثة عامًا مفعماً بالأسى والحزن حتى سمي عام الحزن.

في هذه الظروف الصعبة لسير الرسالة المحمدية، كان لا بد من امرأة عاقلة تستطيع أن تملأ الفراغ الذي تركته الصديقة خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، وإن كان مكان خديجة لا يملؤه إلا خديجة، بل إن مكانها ومكانتها في قلب رسول الله ﷺ سيبقى لها وحدها، لا تشاركها واحة من نساته الأخريات فيما بعد، إلا أن من سنن الفطرة الإلهية، وما عليه الهدى النبوي أن يتخذ الرجل زوجة وشريكة حياة.

رؤيا جميلة:

عندما تحدث الإمام الذهبي رحمه الله عن أمهات المؤمنين رضی الله عنهن، ذكر سودة بنت زمعة ووصفها بقوله: «كانت سيدة جليلة نبيلة ضخمة»^(١) يفهم من هذا القول بأن السيدة النبيلة سودة، كانت من النساء اللاتي نشأن على الطهر والنقاء والصفاء، حتى عرفت بهذه الصفة بين النسوة القرشيات ممن اشتهرن في مطلع فجر الإسلام.

ويبدو أن السيدة سودة بنت زمعة رضی الله عنها، كانت من اللواتي دخلن في دين الله مع المبكرات، وقد تفاعلت مع الدين الجديد حتى غدت تنطق بالحكمة، وترى بعين البصيرة ما قد يكون، وقد تمننت الصديقة بنت الصديق رضی الله عنهما أن تكون في مثل هديها وطريقتها، وصفاء نفسها، وجودة قريحتها، ولتلك الصفات اختص الله عز وجل سودة بأن تكون أمًا للمؤمنين، وزوجًا لرسوله الأمين محمد ﷺ.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥).

وقد رأت سودة رضى الله عنها فى منامها ما حققته العناية الإلهية فيما بعد فأوضحت زوج الرسول ﷺ، فى طبقاته روى ابن سعد رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كانت سودة بنت زمعة تحت السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو، فرأت فى المنام كأن النبى ﷺ أقبل يمشى حتى وطئ عنقها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: لئن صدقت رؤياك لأموتن، وليتزوجك رسول الله ﷺ، فقالت: حجراً وستراً، ثم رأت فى المنام ليلة أخرى أن قمرًا انقض عليها وهى مضطجعة، فأخبرت زوجها، فقال: لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت، وتتزوجين من بعدى، فاشتكى السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وتزوجها رسول الله ﷺ»^(١).

أما عن كيفية زواج رسول الله ﷺ سودة، فقد تكفلت بالخبر اليقين واحدة من الصحابيات المؤمنات التى قامت بدور الوساطة فى هذه المهمة الشريفة، هذه الصحابية تدعى خولة بنت حكيم السلمية زوج عثمان بن مظعون رضى الله عنها وعنه.

أذكريها على:

كان الصحابة الكرام رضى الله عنهم رجالاً ونساءً، يعرفون مكانة خديجة رضى الله عنها فى نفس الرسول ﷺ، وعندما توفيت كانوا يرجون له ما يخفف عنه اللوعة واللهافة، أن يتزوج ليعيد لبيته وبناته شيئاً من الأُنس والسلوى.

ولكن، مَنْ للعيال بعد خديجة؟! بل من ذا الذى يجرؤ أن يفتح النبى ﷺ فى أمر زواجه، وكلهم يعرف ويدرك مكانة الطاهرة خديجة من نفسه؟ أم من الذى يملك الشجاعة ليدلى دلوه فى هذا المضمار؟.

لم يكن عند أحد منهم شجاعة، ليفتح رسول الله ﷺ فى أمر أن تحل امرأة أخرى محل سيدة نساء قريش خديجة، حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب العبقرى الشديد، أشفق على نفسه من حمل هذه الرسالة إلى النبى الحبيب ﷺ.

إذن ما العمل؟ لا أحد يقدر على شىء من هذا، ولكن المشيئة الإلهية جعلت خولة بنت حكيم رضى الله عنها واحدة من فضليات نساء الصحابة، ممن كى يدخلن بيت

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٥٦، ٥٧).

النبي ﷺ ويعرفن بعض شئونه، فكانت تراه حزينا لفراق زوجه الطاهرة خديجة رضى الله عنها وذات يوم بينما كان رسول الله ﷺ فى البيت، إذا بخولة بنت حكيم تستأذن للدخول عليه، ولما رآها رحب بها وأكرم مثنواها، فهى من المؤمنات الصادقات الصابرات، قد هاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها عثمان بن مظعون ؓ، ثم ما لبثت أن عادت معه إلى مكة، ليكونا إلى جوار النبي ﷺ، وإلى جوار المسلمين، يتحملان معهم الصبر فيما ينزل بهم من أذى قريش حتى يجعل الله من ذلك مخرجًا.

وأحبت خولة أن تدخل السرور إلى قلبه الشريف، وأن تقترح عليه أن يتخذ زوجة له لتملأ بعض الفراغ الذى تركته خديجة رضى الله عنها، وراحت خولة تجمع أطراف شجاعتها قبل أن يتحرك لسانها بما أرادت أن تقوله أو بما جاءت من أجله، فقالت فى هدوء وأدب: «يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة حزن لفقد خديجة» فأجاب الرسول الكريم ﷺ فى نبرات حزينة: «أجل كانت أم العيال وربة البيت».

ويبدو أن خولة بنت حكيم رضى الله عنها قد وجدت مدخلًا كريمًا، تدخل به إلى نفس النبي الكريم ﷺ من هذا الباب، ووجدت الفرصة للحديث عن الزواج من إحدى عقيلات قريش، وراحت خولة تجمع أطراف شجاعتها من جديد وقالت: «يا رسول الله، ألا أخطب عليك؟» فقال ﷺ فى رفق: «بلى فإنكن معشر النساء أرفق بذلك» سكتت خولة لحظات، وقد أضاء الأمل طريق مساعيها الحميدة، وتساءلت: «لما لا أحدثه عن سودة بنت زمعة وعن عائشة بنت أبى بكر، فقد تحدثت مع سودة بالأمس القريب، وتحدثت مع أم رومان زوج أبى بكر فى شأن ابنتها عائشة، وها هو ذا رسول الله ﷺ يشهد لى بالرفق فى هذا الموضوع؟!!!».

وشعرت خولة براحة عميقة لهذه الفكرة التى تزور مخيلتها الآن، عندئذ فأتحت رسول الله ﷺ بقولها: «يا رسول الله ألا تتزوج، فإنى قد وجدت لك ما يدخل على قلبك السرور، وإن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا؟» فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال: «من؟» قالت: «أما البكر، فعائشة بنت أحب خلق الله إليك أبى بكر، وأما الثيب، فسودة بنت زمعة، وقد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول».

ثم إن خولة أشارت على النبي ﷺ بزواج سودة وذكرت له حالها بعد وفاة زوجها السكران بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «فاذكريها عليّ» وكذلك قال عن عائشة، وطار فؤاد خولة فرحًا لأنها نجحت في مهمتها، ووفقت لإدخال السرور إلى قلب النبي ﷺ، وانطلقت إلى سودة، وقد ارتسم على وجهها الاستبشار، وبان فيه الفرح والسرور.

ولنترك الحديث الآن لخولة لتحدثنا عن بقية مهمتها، ودخولها على سودة بنت زمعة فتقول: «فذهبت إلى سودة وأبيها زمعة، وكان شيخًا كبيرًا قد جلس عن المواسم فقلت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ فقالت سودة في دهشة: وما ذلك يا خولة؟ قلت: أرسلني رسول الله ﷺ لأخطبك عليه.

غمر سودة سرور عميق، واستشعرت دموع القفرح تبلل وجهها وروحها، وتذكرت ما رأت في نومها منذ فترة، وما هي ذى رؤياها قد جعلها ربها حقًا، وما كانت تطمع في أن تكون زوجًا لرسول الله ﷺ بعد أن نالت منها السنون، وإنه لشرف عظيم لا يدانيه شرف أن تصبح من نساء أهل البيت النبوي، ثم توجهت إلى خولة وقالت لها والبشر يملأ وجهها: وددت ذلك، ولكن ادخلي على أبي فاذكري له ذلك، قالت خولة: فدخلت على أبي سودة، وحييته وقلت: أنعم صباحًا، فقال: من أنت يا هذه؟ فقلت: خولة بنت حكيم بن أمية السلمى زوج عثمان بن مظعون الجمحي، قالت خولة: فرحب بي والد سودة، وقال ما شاء الله أن يقول، فقد كان على علم بأني خرجت عن آلهة قومي ودينهم وجاهليتهم، وآمنت وهاجرت إلى الحبشة، ثم عدت إلى مكة، وسألني عن حاجتي وقال: ما شأنك؟! فقلت: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر ابنتك سودة أم الأسود، قال: إن محمدًا كفاء، كريم، ولكن ما تقول سودة؟ قلت: هي تحب ذلك، قال: إذن ادعيها إليّ فذهبت ودعوته، فقال لسودة: أي بنية، إن خولة بنت حكيم تزعم أن محمد بن عبد الله قد أرسل يخطبك، وهو كفاء، أتحيين أن أزوجك منه؟.

فقال سودة في صوت يفصح عن رغبتها: نعم إن أحببت.

فالتفت زمعة إلى خولة وقال لها: قولى لمحمد فليأتنا.

قالت خولة: فجاء رسول الله ﷺ وعقد عليها، وملكها فزوجه إياها بعد أن أصدقها أربع مئة درهم، ودخلت سودة إلى البيت النبوي الكريم لتغدو من أمهات المؤمنين وممن تشرفن بخدمة خاتم النبيين». وما أجمل أن نقرأ هذه التغريدة الجميلة التي تترجم زواج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة رضى الله عنها:

وتجىء خولة للرسول بصورة المتسائلين
فتقول هل لك فى الزواج أيا إمام المرسلين
فأجابها من ذى تكون فأجالت القول المبين
هى بنت زمعة سودة هى خيرة فى المسلمين
قدمت عنها زوجها السكران صارت لا معين
قال الرسول لتذكرينى عندها كالمخاطبين
جاءت لسودة أخبرتها رغبة الهادى الأمين
قالت لها هذا أبى فلتخبريه ليستبين
قالت دخلت على أبيها فى تحية جاهلين
أخبرته عن رغبة الهادى لبنت الأكرمين
الشيخ قال لبنته بمحمد هل ترتضين
قالت فإنى أرتضيه على جميع العالمين
جاء النبى إلى أبيها فى الشيوخ الطاعنين
يا فخر سودة قد تزوجها إمام المتقين
هذا الزواج به غدت فى أمهات المؤمنين

ذكر أهل السير والأخبار أنه كان لأم المؤمنين سودة أخ يدعى عبد الله بن زمعة وكان لا يزال على دين قريش، وصادف أن كان خارج مكة، فلما قدمها، وجد أن أخته سودة قد تزوجها محمد ﷺ فطارت نفسه شعاعاً، وتملكه الغيظ، وركبته حمى الجاهلية وحثاً بالتراب على رأسه أسفاً وحرناً على هذا الزواج، ودخل على أبيه يرغى ويزيد، ويتوعد ويهدد، فأى عار — بزعمه — قد لحقه إذ تزوج محمد بن عبد الله سودة؟.

ولما فتح الله عز وجل بصيرته على محاسن الإسلام وبصره على نوره، آمن بالله رباً، وبمحمد رسولاً ونبياً، قال محدثاً عن نفسه: «إني لسفيه يوم أحتو التراب على رأسى، أن تزوج رسول الله ﷺ أختى»!!.

كانت سودة رضى الله عنها أول من تزوج بها النبي ﷺ، بعد موت خديجة رضى الله عنها، وكان زواجها فى رمضان سنة عشر من النبوة، وانفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر حتى تزوج بعائشة، وهاجر بها إلى المدينة، وبزواجها من رسول الله ﷺ ارتفعت مكانتها إلى أمومة المؤمنين، وهل هناك شىء أعلى من هذه المكانة؟ وأعلى من نساء أهل البيت النبوى؟!.

سودة فى بيت النبي ﷺ:

كانت سودة رضى الله عنها تدرك بثاقب بصيرتها أن فى زواج رسول الله ﷺ منها، إنما هو مواساة لحالها، وتكريم لصبرها، وجهادها، فقد تجاوزت مرحلة الصبا ودخلت مرحلة ما بعد الكهولة، ولكنها فى نضج أنثوى وعاطفة غامرة إلا أنها كانت تدرك أن الرسول الكريم ﷺ لم يتزوجها إلا ليمسح عنها ما قاست من أهوال فى سبيل الله، ولكنها كانت تتجمل بجميل الصبر، وتتغذى برحيق الإيمان لذلك أولاهها الله عز وجل هذه المكانة وهو العليم الخبير.

كانت سودة سعيدة غاية السعادة أن تكون بالقرب من رسول الله ﷺ، وكان وجهها يشرق بالابتسام عندما ترى رسول الله ﷺ ناعم البال، راضياً عنها وأن تخفف عنه بعض ما يلقاه من أذى المشركين.

فى بيت رسول الله ﷺ، راحت سودة تحدثه عن أخبار المؤمنين الذين لا يزالون فى الحبشة عند ملكها الحبشى النجاشى، وتروى ما كان من أمر المؤمنين، وكانت إذا ما تحدثت عن ابنته رقية وعن زوجها عثمان، يبدو الاهتمام فى وجه رسول الله ﷺ إذ كان قلبه الشريف يهفو إلى ابنته رقية التى هاجرت إلى الله ويشتاق قلبه إلى عثمان، وربما كانت سودة تشعر أن الحديث عنهما يدخل السرور إلى قلبه الشريف، فكانت تسهب فى الحديث عنهما لتدخل البهجة إلى نفسه العظيمة وقلبه الكبير.

كان الرسول الكريم ﷺ يصغى إلى أحاديث سودة ليأنس بها، ولكنه لم يكن يحدثها عن آلامه، وعن آماله كما كان يفعل مع خديجة، وكانت أقصى آمال سودة أن تخفف عن رسول الله ﷺ ما كان يلقي من كيد المشركين، وسفاهتهم.

كانت سودة رضى الله عنها، تعلم علم اليقين أنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ الذى خلفته الطاهرة خديجة رضى الله عنها فى قلب رسول الله ﷺ، بيد أن كل سعادتها أن تكون بقرب رسول الله ﷺ الذى أخرجها من الظلمات إلى النور، وتهبئ له ما تستطيع من سبل الراحة، فهى تحترم صمته إذا صمت، وتلبى رغباته راضية إن أشار، فقد وطدت نفسها من أول يوم دخلت فيه بيت الرسول ﷺ أن تحترم عواطفه، وتحترم ذكرياته ووفاءه لأم المؤمنين خديجة الراحلة إلى الفردوس فى بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

وفى البيت النبوى، كان لسودة رضى الله عنها مواقف نبيلة وكريمة، فقد قلعت مكة رقية بنت رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان من هجرتهما من الحبشة، ووقعت عيناها على الدار الخديجية الغالية، دار أمها الطاهرة خديجة رضى الله عنها، تلك الدار المباركة التى شاهدت رقية فيها أحلى أيام عمرها، دار الوحي والإيمان، ودار الصدق والوفاء، فانبجست فى جوفها مشاعر متباينة كانت مزيجاً من الלהفة والرغبة، والفرح والحزن، والقلق والهدود، وطرقت الباب، فانتشر الخبر بقدم رقية وعثمان، وراحت أم كلثوم وفاطمة ومن كان هناك يستبقون الباب إليها، وتعانقت الأخوات، وسالت العبرات واستيقظت الذكريات، وأحس جميعهم غياب الأم الحنون، فأفرغن حزنهن فى بكاء سخي مدرار...

جاءت سودة بنت زمعة وراحت ترحب برقية وعثمان رضى الله عنهما، وفى مثل لمح البصر، هبت ذكريات سودة عن هجرتها إلى الحبشة مع المهاجرين، وأخذت تسأل رقية وعثمان، عن تركاه خلفهما فى الحبشة من المسلمين، فقد كانت سودة تمضى أغلب أوقاتها مع رقية وخولة بنت حكيم وبعض النسوة يتذكرون أمر الإسلام، وأمر رسول الله ﷺ، وأمر المسلمين والمسلمات.

لم تحلم سودة رضى الله عنها فى يوم من الأيام بأن تكون زوجة النبى ﷺ، وأن تصبح أم المؤمنين، وما كان ذلك ليخطر على بال رقية رضى الله عنها أيضاً، ولولا عطف رسول الله ﷺ على ما أصاب سودة من الترميل بعد موت زوجها وتقديره، ولما احتملت من الآلام فى سبيل الله ورسوله، ما دخلت بيته ﷺ لتملاً بعض الفراغ الذى خلفته الطاهرة خديجة رضوان الله عليها.

بلغ الحبيب المصطفى ﷺ أن رقية وعثمان رضى الله عنهما قد رجعا من الحبشة، فإذا بوجهه الشريف مسفر ضاحك مستبشر، وإذا بالحنان يتدفق من قلبه الشريف، وضم رسول الله ﷺ ابنته رقية رضى الله عنها إليه، وغمرها بعطفه، وأخذ عثمان بين ذراعيه، ثم جلسوا يصغون إلى رقية وعثمان وهما يرويان حديث الهجرة إلى الحبشة، ويذكران أخبار المسلمين والنجاشى.

مكثت سودة أم المؤمنين رضى الله عنها فى مكة إلى أن أذن الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين والمؤمنات بالهجرة إلى المدينة المنورة، ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، بعث زيد بن حارثة وبعث معه مولاة أبا رافع، وأعطاهما بعيرين، وخمس مائة درهم، فخرجن جميعاً، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة الزهراء، وبأم كلثوم وبسودة بنت زمعة وبأم أيمن الحبشية زوج زيد بن حارثة ومعها أسامة بن زيد ابنها حتى قدموا المدينة المنورة، ونزلوا فى بيت حارثة بن النعمان الأنصارى ﷺ.

وفى المدينة المنورة مكثت سودة رضى الله عنها تؤدى دورها، واستطاعت أن تقوم على بيت النبوة، وتخدم بنات النبى الطاهرات رضى الله عنها، وأن تدخل السعادة والسرور إلى قلبه الشريف ﷺ بتصرفاتها البريئة.

وبعد سنوات ثلاث تزوج النبى ﷺ عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، ودخلت عائشة، بيت النبوة، وكان لها مع سودة أخبار جميلة مشرقة، ثم دخلت البيت النبوى نساء أخريات كن أزواج النبى ﷺ مثل: حفصة بنت عمر رضى الله عنهما وزينب بنت جحش وأم سلمة المخزومية وغيرهن رضى الله عنهن وأرضاهن، وحشرنا فى معيتهن، وغفر لنا ورحمنا إنه تواب رحيم.

سودة وعائشة وأخبار لطيفة:

فى البيت النبوى الشريف الكرىم الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، وأفاض عليه البركات لتحفه، والخيرات لتتبعث منه، والنور لىسطع من جنابه كى يضىء الدنيا بأسرها فىخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الهدى ودين الحق، ويهديها سواء السبيل، ويسدد نطقها بالقول الثابت ويرببها على مكارم الأخلاق، وعلى الفضائل كلها.

فى هذا البيت الذى يعبق بطيوب الإيمان، ويفوح بندى الفضائل، كانت سودة بنت زمعة أم المؤمنين تمارس حياتها إلى جانب أم المؤمنين عائشة بنت الصديق الأكبر، ذات الخصال الحميدة، المتفردة فى عالم النساء، بأنها أفضه نساء الأمة المحمدية على الإطلاق، حبيبة الحبيب ﷺ، وكذلك أبوها الحبيب المحبب من الحبيب المصطفى ﷺ.

أقول: «مع عائشة أم المؤمنين كانت سودة تعيش فى رحاب البيت النبوى الطاهر، وقد هدأت فيها غيرة الأنثى، فلا تطمع إلا بمرضاة رسول الله ﷺ الذى كان يشفق عليها، لذا فقد وهبت يومها لضررتها عائشة ابنة الصديق رضى الله عنهما، رعاية لقلب رسول الله ﷺ تبتغى مرضاته ﷺ».

أخرج ابن داود رحمه الله فى سننه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: «يا بن أختى، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم، من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، يومى لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها، قالت نقول فى ذلك: أنزل الله تعالى وفى أشباهها أراه قال: ﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا ﴾ (النساء: ١٢٨)^(١).

وهبت سودة يومها للنبي ﷺ، وهذا من خواصها رضى الله عنها، حيث أثرت بيومها حبيبة النبي ﷺ، تقريباً إليه ﷺ، وحباً له، وإيثاراً لمقام الصديقة بنت الصديق عنده، فكان ﷺ يقسم لنسائه، ولا يقسم لها، وهى راضية بذلك، مؤثرة لرضى النبي ﷺ.

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢١٣٥) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

ذكر أبو عمر القرطبي رحمه الله في الاستيعاب عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أسنت سودة عند رسول الله ﷺ هم رسول الله ﷺ بطلاقها، فقالت: لا تطلقني، وأنت في حل مني، فأنا أريد أن أحشر في أزواجك وإني قد وهبت يومي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء، فأمسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنها سائر من توفي من أزواجه رضي الله عنهن».

وفي رواية ابن سعد رحمه الله أن سودة قالت للجيب المصطفى ﷺ: «لكني أحب أن أبعث في نسائك، وإني قد جعلت يومي لعائشة».

ولنستمع إلى هذه التغريدة التي تقص علينا قصة سودة، وهبتها يومها لعائشة:

شاء النبي طلاقها لما أسنت بالسنين
قالت فلا تفعل أيا خير الخليفة أجمعين
فلتبقني كي أبعثن في أمهات المؤمنين
ووهبت حقي منك للصغرى وبنت الأكرمين
إني زهدت عن الرجال وإنني في الصادقين
لقد استجاب لها النبي ونالت الشرف الثمين

والآن، دعونا نستمع إلى ثناء أم المؤمنين عائشة على أم المؤمنين سودة رضي الله عنهما، تقول عائشة: «ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة إلا أن بها حدة، فلما كبرت جعلت يومها من النبي ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله قد جعلت يومي منك لعائشة».

ولعائشة وسودة رضي الله عنهما أكثر من موقف لطيف ينبئ عن لطف كل واحدة منهما، مع كمال سرور النبي ﷺ الكريم من كليهما، وهذا ما حدث فعلاً في إحدى الجلسات، وفي بيت عائشة نفسها.

روى النسائي وأبو بكر الشافعي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «زارتنا سودة يوماً، فجلس رسول الله ﷺ بيني وبينها إحدى رجله في حجرى والأخرى في حجرها، فعملت له حريرة - أو قال: خزيرة - فقلت: كلى، فأبت، فقلت: لتأكلين أو لأطخن وجهك، فأبت، فأخذت من القصعة شيئاً، فطخت به وجهها، فضحك رسول الله ﷺ،

فرفع رسول الله ﷺ رجله من حجرها لتستقيد منى، وقال لها: «لطخى وجهها» فأخذت من الصحيفة شيئاً، فلطخت به وجهى ورسول الله ﷺ يضحك»^(١).

فكاهة ووداعة:

كان رسول الله ﷺ يعامل زوجه سودة بنت زمعة بالرفق والرحمة، لما كانت تحمله من صفات الوداعة والطيب، فكان يستمتع لفكاهتها اللطيفة التى كانت تضحكه.

فى «طبقاته» روى ابن سعد رحمه الله عن سودة رضى الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، صليت خلفك البارحة، فركعت بى، حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم، قال: فضحك، وكانت تضحكه الأحيان بالشىء».

ويظهر أن أم المؤمنين سودة رضى الله عنها كانت خفيفة الظل، طيبة القلب، ولذا كانت بعض أمهات المؤمنين يمزحن معها، ويداعبونها بغية التماس الفكاهة، وبغية التماس الحكمة الموهوبة أحياناً، أو الترويح عن النفس أحياناً أخرى، وكان الرسول الكريم ﷺ يتقبل تلك الدعابات بما يولج حبه فى القلوب، ويؤنس أزواجه الكريمات رضى الله عنهن بما لا يتعارض مع الحقوق والدين...

روت خليصة مولاة حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضى الله عنهما، قصة طريفة عن مولاتها حفصة وعائشة مع سودة بنت زمعة ومزحهما معها بأن الدجال قد خرج، فقد ذكرت خليصة «أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما كانتا جالستين تتحدثان، فأقبلت سودة فقالت إحداهما للأخرى: أما ترى سودة؟ ما أحسن حالها! لنفسدن عليها، وكانت سودة من أحسنهم حالاً كانت تعمل الأديم الطائفى فلما دنت منهما داعبتهما، وقالت لها: يا سودة، أما شعرت؟ قالت سودة فى بساطة وتعجب: وما ذلك يرحمكما الله؟! قالتا: خرج الأعرور الدجال، ففزعت سودة وخرجت فاخبتأت فى بيت كانوا يوقدون فيه، واستضحكتنا، وجاء رسول الله ﷺ فقال لحفصة وعائشة: «ما شأنكما؟» فأخبرته بما كان من أمر سودة، فذهب إليها فقالت: يا رسول الله، أخرج الدجال الأعرور؟! فقال

(١) رواه النسائى فى عشرة النساء (٣١).

رسول الله ﷺ: «لا وكان قد خرج» فخرجت، وجعلت تنفض عنها العنكبوت» وأعتقد أن سودة لما علمت بجلية الأمر ضحكت هي الأخرى كثيراً.

وميدان الدعابة هذا ميدان لطيف، فقد كان رسول الله ﷺ يبسط الخلق ليستضيئوا بنور هدايته في دياجى الجهل، ويقتدوا بهديه ﷺ، ولذا لم ينكر على زوجاته تلك الدعابة اللطيفة مع سودة رضى الله عنها وعنهن.

إلا أن رسول الله ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً، ومن خلال بساطة سودة وطيب نفسها كان يوجهها التوجيه الهادف، فلا يخلط الجد بالهزل، من ذلك ما أورده الحافظ ابن حجر في «الإصابة» أن سودة قالت: «يا رسول الله، إذا متنا صلى لنا عثمان بن مظعون حتى تأتينا أنت».

فقال لها: «يا بنت زمة لو تعلمين الموت لعلمت أنه أشد مما تظنين» وبهذا نفت ﷺ نظر سودة إلى أن الموت ليس شيئاً عادياً، والتفكير به أشد وأعظم مما نتوقه أو نظنه.

اعتذار مقبول:

في غزاة بدر، أنزل الله عز وجل نصره على رسوله، وعلى المؤمنين، وراح المسلمون يقتلون فريقاً، ويأسرون فريقاً، وكان ممن وقع في الأسر سهيل بن عمرو العامري، وكان الذى أسره مالك بن الدخشم، وسار الجيش الإسلامى المنتصر نحو المدينة راجعاً من بدر، تحت راية الحبيب المصطفى ﷺ وقيادته حتى إذا ما اقتربوا من المدينة المنورة، قال سهيل بن عمرو لمالك بن الدخشم الذى أسره: «خل سبيلي للغائط».

فقام مالك معه، فقال سهيل: «إنى أحتشم فاستأخر عنى».

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه، وانتزع يده من الحبال ومضى، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس، فخرجوا فى طلبه، وخرج النبى ﷺ فى طلبه بنفسه وقال: «من وجده فليقتله».

وأخذوا ينقبون عنه على ظهور الإبل والجياد، وانطلق ﷺ فى أثره، فوجده قد أخفى نفسه بين شجيرات، فتقدم إليه، فإذا بسهيل لا يتحرك من مكانه، بل ظل ثابتاً وهو

مأخوذ، فقبض ﷺ على سهيل، ثم عاد به، فأمر به فربطت يده إلى عنقه، ثم قرنه إلى راحلته.

راح النبي ﷺ يتقدم على ناقته القصواء، وقد رُبطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه، وقرن إلى الناقة وراح مالك بن الدخشم الذي أسره يقول:

أسرت سهيلاً فلا أبتغى به غيره من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى سهيلاً فتأها إذا تظلم
ضربت بذى الشعر حتى انثنى وأكرهت نفسى على ذى العلم

دخل رسول الله ﷺ والمسلمون المدينة وهم مستبشرون بنصر الله عز وجل، الذى أكرمهم به وأعزهم، وأعلى شأنهم ومكانتهم.

فى تلك الأثناء كانت سودة عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء اللذين كانا أول من أصابا أبا جهل، وكانت ثلثة أخرى من النساء هنالك، وجاء من قال: «هؤلاء الأسرى قد أتى بهم» خرجت سودة رضى الله عنها إلى بيتها ورسول الله ﷺ فيه، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يده إلى عنقه فى ناحية الحجر، فما ملكت نفسها حين رآته على تلك الحالة أن قالت فى دهش: «أى أبا يزيد، أسلمتم أنفسكم، وأعطيتم بأيديكم، ألا متم كراماً؟!». «

لم تكن سودة رضى الله عنها تعلم أن رسول الله ﷺ يسمعها، فما راعها إلا قوله ﷺ من البيت: «يا سودة أعلى ربك ورسوله تحرضين؟! واستحيت سودة وقالت فى بساطة الصادقات: «يا رسول الله، والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مضمومة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت».

فتبسم ﷺ ضاحاً من قولها، ووعدا خيراً بشأن الأسرى، وقبل اعتذارها البرىء، فقد علم ﷺ أنها زلة لسان لا تعنى بها التحريض، فالرجل يرسف فى القيود، وإنما هو ضعف النساء أمام مثل هذه المواقف مع ذوى القربى، وعندئذ قال: استوصوا بالأسرى خيراً، وكان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه.

بهذه الطريقة الأليفة والحكمة اللطيفة كان رسول الله ﷺ يوجه زوجاته الطاهرات ليكن القدوة الكريمة لنساء الدنيا، وليكون نساء بيته منبع الفوائد ومورد المناهل، وزاد المتبلغين إلى ما يرضى الله عز وجل، فكن كذلك رضى الله عنهن.
من مناقبها:

لأم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها فضائل عديدة، منها ما اقتصت به من قبل الحبيب المصطفى ﷺ ومنها ما كان ينبع منه شخصيتها، ويفيض من كرم أخلاقها، ومنها ما كان اقتداء بزوجها رسول الله ﷺ، فمما اقتصت به أن أذن لها رسول الله ﷺ فى ليلة المزلفة، أن تدفع قبل الزحمة من الليل.

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «استأذنت سودة النبى ﷺ ليلة جمع وكانت ثقيلة ثبطة فأذن لها»^(١) ويبدو أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قد غبطت سودة أم المؤمنين، وودت لو تكون هى التى طلبت الإذن من رسول الله ﷺ، فإن ذلك أحب إليها من كل شىء.

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: نزلنا المزلفة، فاستأذنت النبى ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس - وكانت امرأة بطيئة - فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحب إلى من مفروح به^(٢).

وما دمننا فى الحج مع النبى ﷺ وأزواجه الطاهرات رضى الله عنهن، فقد كانت سودة رضى الله عنها مع نسائه اللاتى حججن، وكانت متمسكة بهديه وأمره...

روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه فى حجة الوداع: «هذه ثم ظهور الحصر» فكانت سودة تقول: «لا أحج بعدها أبداً».

وفى رواية قال: «فكن كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة، فكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ»^(٣) وقالت سودة: «حججت واعتمرت فأنا أقر فى بيتى كما أمرنى الله عز وجل».

(١) صحيح: رواه البخارى (١٦٨٠) وانظر الفتح (٣/٦١٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٦٨١) وانظر الفتح (٣/٦١٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٤٤٦/٢) (٣٢٤/٦).

وفى ميدان الجهاد كان لأم المؤمنين سودة رضى الله عنها نصيب وافر، فقد حضرت معه ﷺ غزاة خيبر، ويشهد لها بهذا ما أورده ابن سعد رحمه الله فى طبقاته قال: «أطعم رسول الله ﷺ، سودة بنت زمعة بخيبر ثمانين وسقاً تمرًا، وعشرين وسقاً شعيرًا».

وتشير المصادر إلى أن أم المؤمنين سودة كانت كريمة، لا تستقر الدراهم عندها، بل تسارع فى إنفاقها زهدًا وكرمًا وطلبًا لمرضاة الله عز وجل، من ذلك ما ورد فى مناقبها فى هذا المجال أن سيدنا عمر بن الخطاب ؓ بعث إلى سودة بنت زمعة بغرارة من دراهم قالت: «ما هذه؟» قالوا: «دراهم» قالت: «فى الغرارة مثل التمر؟! يا جارية بلغينى القنع، ففرقتها».

ومن فضائل سودة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الله عز وجل قد أنزل فى حقها آيات تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد ذكر جمهور المفسرين والمحدثين والعلماء وغيرهم ذلك.

فقد أخرج الترمذى والطبرانى والبيهقى وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «خشيت سودة أن يطلقها النبى ﷺ فقالت: لا تطلقنى وأمسكنى، وأجعل يومى لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿ وَإِنْ أَرَأَتْ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (النساء: ١٢٨)».

سودة والحديث النبوى:

أم المؤمنين سودة رضوان الله عليها، إحدى نساء أهل البيت النبوى اللواتى وعين الحديث النبوى الشريف، وحفظنه وروينه، وبلغنه للناس دينًا وتعليمًا، فقد كانت سودة رضى الله عنها، تروض نفسها بالتقوى وحب العلم، ورواية الحديث حتى كان ذلك، قال الذهبى رحمه الله: «يروى لسودة خمسة أحاديث منها فى الصحيحين حديث واحد عند البخارى»^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩).

حدث عنها من الصحابة: سيدنا عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، ومن التابعين: يحيى بن عبد الله الأنصارى رحمه الله.

وها نحن الآن مع الحديث الذى روته أمانة سودة رضى الله عنها عند البخارى، إذ أخرج فى صحيحه بسنده عن الشعبي عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن سودة زوج النبى ﷺ قالت: «ماتت لنا شاة فدبغنا مسكها، ثم ما زلنا ننبذ فيه حتى صارت شئنا»^(١).

ومن مرويات أم المؤمنين سودة رضى الله عنها فى أحكام الحج، ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بسنده عنها قالت: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبى شيخ كبير لا يستطيع أن يحج، قال: «أرأيت لو كان على أبىك دين فقضىته عنه قبل منك؟» قال: نعم.

قال: «فالله أرحم، حُجَّ عن أبىك»^(٢).

وفى بداية السنة الحادية عشرة من الهجرة توفى رسول الله ﷺ، وهو راض عن سودة التى شهدت معه جانباً من حياته فى مجالات شتى.

مع الأبرار والملتقين:

امتدت الحياة بسودة أم المؤمنين إلى أيام الخلافة الراشدة، وكان الصديق الأكبر أبو بكر عليه سحائب الرضوان يكرم زوجات النبى ﷺ، ويقدر مواقفهن النبيلة، ثم كان الفاروق عمر رضوان الله عليه يتولى أمهات المؤمنين بالإكرام والرعاية ويتفقد أحوالهن.

كانت سودة رضوان الله عليها ممن نالها عطاء عمر، وقبيلت عطاءه وإكرامه، وشكرت له ذلك، ولكنها — كما أسلفنا — لم تستبق شيئاً عندها، وغنما أنفقت المال على من يستحقه من فقراء المدينة المنورة، لتستتير نفوسهم، وتقوى قلوبهم برابطة الحب والاحترام للبيت الطاهر، بيت النبى ﷺ الذى أكرمه الله عز وجل بالطهر، بل خصه بإذهاب الرجس عنه، واختصه بالتطهير، ليكون نقياً من كل شائبة.

(١) رواه البخارى (٦٦٨٦) وانظر فتح البارى (١١/ ٥٧٧).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٢٩).

ظلت أمنا سودة رضى الله عنها تقف بالهدى النبوى إلى أن أسلمت روحها إلى بارئها وكانت وفاتها فى آخر خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ؓ ويبدو أنها قد ناهزت الثمانين رضى الله عنها.

وبوفاتها طويت صفحة من صفحات إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات وتركت أثرًا كريمًا فى دنيا النساء لا يزال ضوح أريجها ينفح الدنيا بالشذى إلى ما شاء الله، رضى الله عن أمنا سودة، وأعلى مقامها فى عليين مع الأبرار والمؤمنين، ونرجو الله أن يدخلنا برحمته فى عبادة الصالحين^(١).

(١) انظر أسد الغابة (٦/ ١٥٨) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٦).

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

لها أربعون منقبة لم تكن لغيرها، ونزل بحقها قرآن يتلى في المحاريب، فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وهي زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة.

ملأت الدنيا علمًا، وكان لها مكان الصدارة العلمية في البيت النبوي الطاهر، وهي أفقة نساء الأمة على الإطلاق.

هي المرأة الأولى في عالم الرواية والحفظ، روت (٢٢١٠) أحاديث، وكانت من أدق الناس وأضبطهم وأوثقهم في ذلك.

كان بيتها مهبط الوحي، ومنبع الفوائد، وموئل العلماء، وتوفيت بالمدينة المنورة سنة (٥٧ أو ٥٨هـ) رضي الله عنها.

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

الصديقة ومناقب فريدة:

قال رسول الله ﷺ: «أرَيْتِكِ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، جَاعِنِي بِكَ الْمَلِكُ فِي سَرَقَةِ مِنْ حَرِيرٍ، فَيَقُولُ: هَذِهِ أَمْرَاتُكَ، فَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِكَ فَإِذَا أَنْتَ هِيَ، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمِضِهِ»^(١).

وأخرج الترمذي رحمه الله في جامعه: أن جبريل جاء بصورتها في خرقة خضراء إلى النبي ﷺ فقال: «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة»^(٢).

وفي كتابه «الإجابة» عند الزركشي رحمه الله أربعون منقبة فريدة لأمنا هذه لم تكن لغيرها من نساء النبي ﷺ.

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٨٩٥، ٥٠٧٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٣٨٨٧) وصححه الألبانى وأصله فى الصحيحين بنحوه.

كما أن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.
إن أم المؤمنين هذه أعطيت تسعاً من حميد الخصال، وكريم الفضائل، وحميد
الشمائل لم تعطها امرأة في مشرق الدعوة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن
عليها.

فمن هذه المرأة الكريمة التي ملأت الدنيا بسيرتها العطرة؟
ومن هذه المرأة التي تبوأ مكان الصدارة في البيت الذي كرم الله، فأذهب عنه
الرجس وظهره تطهيراً؟!.

حاولت أن أحصى المصادر الكريمة التي تصدت للكتابة عن أمنا عائشة فوجدتها
قد تجاوزت المئات، وقد فاقت تصوري عندما بدأت الحديث عنها... وعلمت أن ذلك
فضل الله يؤتیه من يشاء، وهل هناك أجمل من نشر الفضائل والافتداء بها؟!.

إذن، فلندخل البيت الذي أنزل فيه شطر القرآن ليطيب لنا الحديث عن فضل
صاحبته، أو نتعرف بعض مناقبها ونعرف مكانتها، ولنكون لنساننا قدوة يقتدين بها،
ويهدتدين بهديها، ليفزن برضوان الله عز وجل، كان الإمام مسروق بن عبد الرحمن
الهمداني الكوفي التابعي رحمه الله إذا حدث عنها قال: «حدثتني الصديقة بنت الصديق،
حبيبة حبيب الله المبرأة في كتاب الله».

هذه المبرأة في كتاب الله هي: عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق الأكبر^(١)،
القرشية، التيمية، المكية، النبوية، عالمة نساء الأمة، وأفقه نساؤها على الإطلاق، زوجة
النبي الحبيب محمد ﷺ، وأشهر نساؤه الطاهرات رضى الله عنهن أجمعين.

وأما هي: الصحابية الجليلة أم رومان بنت عامر، التي قال رسول الله ﷺ في
حقها: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان».

الصديقة والدوحة السابقة:

عائشة رضى الله عنها إحدى بنات الصحابة اللواتي ولدن في الإسلام، وهي
أصغر من فاطمة الزهراء رضى الله عنهما بثمانين سنين، وكانت تقول عن أبويها: «لم

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥ - ٢٠١) وطبقات ابن سعد (٨/ ٥٨ - ٨١) حلية
الأولياء (٢/ ٤٣ - ٥١) أسد الغابة (٦/ ٣٣١).

أعقل أبوى إلا وهم يدينان الدين» إذن، فقد جبلت عائشة على الطاعة والإيمان منذ أن أشرق نور الإسلام في أم القرى مكة المكرمة.

وفى محضن هذين الأبوين الكريمين، نشأت عائشة، وفتحت عينها على الإسلام ومائدته، فتغذت برحيقه، وتربت على لبنه، واشتد عودها على حبه، واستزلت بظله، فكان أبواها كالدوحة الباسقة الفينانة التي يستظل بظلها، وكالشجرة المباركة ذات القطوف الدانية التي تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها...

ومنذ أن كانت عائشة طفلة صغيرة، كان أبواها يلاحظان بركتها، ويشعران بحفاوة الله تعالى بها، وما كان يوماً من الأيام يحسبان أنها ستغدو حبيبة الحبيب ﷺ، وأم المؤمنين، وأن بيتها سيغدو موئل العلماء، ومقصد العارفين، وبركة نساء النبي ﷺ في العلم والفقه والحفظ والرواية.

لقد اختص الله عز وجل بيت أبي بكر بالصديقة الخالصة، وخصه بالسبق إلى الإسلام، وأنعم عليه بالإيمان، لتغدو عائشة زوج الرسول الكريم ﷺ، وحاملة راية العلم في عالم النساء ولتقوم بأعظم كرامة، وأكرم مهمة في تاريخ العلم النسوى في فجر الإسلام وضحاها.

فأبوها الصديق الأكبر، وشيخ الصحابة، وصديق الرسول ﷺ ورفيق صباه، تخلق بأخلاقه، وسار بسيرته، وعرفه حضراً وسفراً، وليلاً ونهاراً، وعرف أحواله الشريفة كلها، فسارع إلى دوحة الإيمان، فكان أسبق السابقين بعد خديجة رضي الله عنها، وهذه الخصال الحميدة كلها غرسها في أهله، وأولاده، وبناته فكان القدوة الصالحة لهم:

وأشهد أن الله خص رسوله	بأصحابه الأبرار فضلاً وأيداً
فهم خير خلق الله بعد نبيه	بهم يقتدى في الدين كل من اقتدى
وأفضلهم بعد النبي محمد	أبو بكر الصديق ذو الفضل والندى
لقد صدق المختار في كل قوله	وآمن قبل الناس حقاً ووحداً
وناداه يوم الغار طوعاً بنفسه	وواساه بالأموال حتى تجردا

وقال أحدهم في فضل الصديق والخلفاء الراشدين:

وخيرهم من ولى الخلافة وأمرهم في الفضل كالخليفة

يعنى أن أولهم فى الفضل: أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلى رضوان الله عليهم أجمعين:

وللصديق رجحان جلى	على الأصحاب من غير احتمال
وللفاروق رجحان وفضل	على عثمان ذى النورين عال
وذو النورين حقاً كان خيراً	من الكرار فى صف القتال
وللكرار فضل بعد هذا	على الأغيار طراً لا تبال

وأما نموذج كريم عن الزوجة الوفية الودود، والأم الواعية التى تنظر إلى الأمور بمنظار البصيرة، لتستقيم الحياة الزوجية، فأرضعت ابنتها عائشة مكارم الأخلاق، وغذتها بمعالي المكارم، فكانت أكرم النساء وأوفى الطاهرات، وأحدوثه النساء المتلى فى الغد القريب، فكانت عائشة عالمة الفقيهة الأدبية.

الصديقة هذه فهل فوق ذلك مفخر؟:

فى حديثه عن السيدة عائشة رضى الله عنها أفرغ الإمام الذهبى رحمه الله براعته البديانية مداً لقلمه اللطيف، فأبدع وأحسن، وأجمل وأنصف، وتحدث فقال فى صفتها رضى الله عنها: «كانت امرأة بيضاء جميلة، ومن ثم يقال لها «الحمراء» ولم يتزوج النبى ﷺ بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبها».

وذهب بعض العلماء إلى أنها أفضل من أبيها، وهذا مردود، وقد جعل لكل شىءٍ قدرًا، بل نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ فى الدنيا والآخرة فهل فوق ذلك مفخر وإن كان للصديقة خديجة شأو لا يلحق، وأنا واقف فى أيتهما أفضل، نعم، جزمت بأفضلية خديجة عليها، لأمر ليس هذا موضعها».

تحدث الذهبى رحمه الله عن زواجها من رسول الله ﷺ فقال: «وكان تزويجه ﷺ بها إثر وفاة خديجة رضى الله عنها، فتزوج بها وبسودة فى وقت واحد ثم دخل بسودة، فتفرد بها ثلاث أعوام حتى بنى بعائشة فى شوال بعد وقعة بدر، فما تزوج بكراً سواها، وأحبها حباً شديداً كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص ﷺ وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة، سأل النبى ﷺ: أى الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة» قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها».

ويتابع الذهبى سلسلة الذهب فى كلامه السلسيل عن أمنا عائشة رضى الله عنها فيقول: «وما كان النبي ﷺ ليحب إلا طيباً وقد قال: «لو كنت متخذاً من هذه الأمة لأتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» فأحب أفضل رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ، فهو حرى أن يكون بغيضاً إلى الله ورسوله، وحب لعائشة كان أمراً مستفيضاً، ألا تراهم كيف كانوا يتحرون بهدياهم يومها تقريباً إلى مرضاته؟!».

وفى هذا المجال أقول: «هذه الصديقة رضى الله عنها رضعت لبان الصدق من أبيها، وتغذت على مائدة النبوة المحمدية، فلا عجب أن تكون فريدة بين الناس وأن تحظى بحب رسول الله ﷺ لها، إذ جمعت كل صفات الخير من جميع أطرافه، رضى الله عنها وأرضاها».

ولهذا كله حُق لسيدة النساء الخلود فى دنيا النساء، ودنيا العلم، ودنيا الخلود، ولكنه خلود الذكر الحسن، خلود العلم الذى يرفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، وهكذا ظلت، وستظل أمنا عائشة تتبوأ سدة العلم، وتتصدر سدة الفضل إلى ما شاء الله، وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل سمة من سماتها: «إنها الصديقة ابنة الصديق رضى الله عنها، أعلم نساء الأمة وأفقههن على الإطلاق».

الصديقة ونور على نور:

منذ اليوم الأول لولادة عائشة رضى الله عنها بمكة المكرمة، والنورانية والمكرمات تصاحب حياتها المباركة، فقد ولدت فى بيت أبى بكر الصديق، بيت الصدق والإيمان، وكانت ولادتها فى مطلع شمس البعثة النبوية بمكة، وفى مرحلة طفولتها تبلورت الدعوة الإسلامية، واستوت على سوقها، وفى قائمة السابقين إلى دوحه الإسلام، وأفيائه، كانت عائشة بعد ثمانية عشر إنساناً ممن أسلم.

قال بدر الدين الزركشى رحمه الله فى كتابه «الإجابة»: «لم ينكح ﷺ امرأة أبواها مهاجران سواها، وذكر من مزايا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن أباهم وجدها صحابيان».

وتتابعت المكرمات النورانية في حياة السيدة عائشة رضي الله عنها، فعندما بدأت تدخل مرحلة الصبا، جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بصورتها، وأخبره بأنها زوجته في الدارين، وإذ ذاك خطبت عائشة إلى النبي ﷺ.

أما الخطبة، فالذي نعلمه من الروايات المتواترة في أمهات المصادر الموثوقة، أنها جاءت بعد اقتراح سيدة مؤمنة سالحة فاضلة هي خولة بنت حكيم، فقد ألمها ما لاحظته من حزن النبي ﷺ على زوجة الطاهرة خديجة رضي الله عنها، فقالت له: «يا رسول الله، ألا تتزوج؟».

فسألها ﷺ: «إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا؟».

فسألها فقال: «من البكر ومن الثيب؟».

فذكرت خولة أن البكر عائشة ابنة أحب خلق الله إليه، وأن الثيب سودة بنت زمعة التي آمنت به واتبعته.

عندئذ أوفد النبي ﷺ خولة بنت حكيم إلى كليهما، فوفدت خولة إلى بيت أبي بكر، وجرت الخطبة المباركة لعائشة في مجراها، الذي انتهى بالزواج بعد سنوات في المدينة المنورة بعد غزاة بدر الكبرى.

كانت عائشة عندما تزوجت في بداية ربيع حياتها، وكانت قد ملكت بيتها الجديد من اللحظة الأولى، لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة، ومكانة ابنة الصديق الصديق العزيز الذي أضفى عليها المودة والإيثار، ما كان بين النبي ﷺ والصديق من مودة هي أوثق من مودة الرحم، لأنها مودة الوفاء والصفاء والإخاء والإيمان، بل مودة الحياة وما بعد الحياة.

وانتقلت عائشة رضي الله عنها من نور إلى ضياء أبهى، ومن ضياء إلى سناء أشد، وقد سجلت لنا خطرات نفسها خطرة خطيرة، ووصفت لنا في بيت النبوة كل صغيرة وكبيرة، وكل ظاهرة وخافية، بيد أنها لم تذكر كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت، ومن معيشة إلى معيشة، ومن ظل أبوين إلى ظل زوج لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي ﷺ من صفات النبوة، لأن عطف النبي ﷺ هو

العطف الغامر الذى لم تحتج عائشة إلى عطف سواه، فكان عطفه ﷺ هو المأوى الذى تلوذ به، وتأوى إليه، وكان النور الذى ألقته فى بيت النبوة هو الضياء والمنبع والأصل، فازدادت نوراً على نور بما اكتسبته من نورانية بيت الزوجية بيت النبى الكريم ﷺ الذى كان مهبط الوحي يتنزل بالقرآن ليتلى فى أصقاع الأرض وجناباتها، وفى بيوت الله الخاصة...

الصديقة وأحداث الهجرة:

كان الإسلام نوراً ينفذ إلى أفئدة الذين أراد الله بهم خيراً، وكان الكافرون الأقوياء بزعمهم يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون.

استمر كفار قريش فى التصدى للدعوة وإيذاء المسلمين، واشتدت عداوتهم وأصبحت أكثر ضراوة لما أيقنوا أن محمداً ﷺ قد بايع الأوس والخزرج على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وإذ ذلك أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة، إلى المدينة وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها».

كان المسلمون يخرجون جماعات إلى المدينة مهاجرين، فلما راحت قريش ترصد طريق المدينة، أخذوا ينسلون آحاداً، وأخذ الأنصار فى عرينهم يستقبلون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وكان هؤلاء الأنصار والأطهار يلقون أسماعهم إلى المهاجرين مستبشرين فرحين بهم، فهم أصحاب نبيهم ﷺ الذى تلقوا عنه العلم والحكمة، وحفظوا عنه القرآن المجيد.

أما رسول الله ﷺ فكان ينتظر الإذن بالهجرة، ولما أتى أمر الله بذلك، خرج رسول الله ﷺ مستخفياً، وانطلق إلى دار أبى بكر فى الهاجرة عند الظهر، وهناك رآته أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها، فقالت لأبيها الصديق وكانت عائشة بقربها: «يا أبت هذا رسول الله ﷺ متقنعا» فقال الصديق رضوان الله عليه: «فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر!».

وسارع الصديق أبو بكر مهرولاً، فقد أتى الحبيب المصدوق ﷺ فى ساعة لم يكن يأتيهم فيها من قبل فقال ﷺ لأبى بكر: «أخرج من عندك».

وكانت أسماء وعائشة رضى الله عنهما عنده، فقال: «إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله» ولما اطمان الحبيب المصطفى ﷺ إلى من كان عند الصديق قال: «فإنى قد أذن لى فى الخروج» فقال الصديق بلهفة وحب: «الصحبة يا رسول الله... الصحبة يا رسول الله...» فقال الحبيب الأعظم ﷺ «نعم».

لحظات دقيقة، ودقائق ثمينة، راقنت فيها نفس أبى بكر الصديق، فرق قلبه، وترقرق الدمع وسال على وجنتيه من فرط السرور، وهل هناك منة أعظم من أن يصحب حبيبه وصفيه مهاجرًا إلى أرض الله... إلى المدينة المنورة...

هلموا نتصور شعور عائشة رضى الله عنها، كانت لا تزال وقتذاك فى ربيع الحياة الأول، وزهرات العمر الأولى، ماذا كان شعورها وهى ترى رسول الله ﷺ الذى عقد عليها منذ فترة، وها هو ذا يصحب والدها الصديق ليهاجر إلى المدينة؟.

ماذا دار فى خلدتها لا شك فى أنها كانت على ثقة من أن الله عز وجل ناصر النبى ﷺ وأباها، فقد سمعت رسول الله ﷺ ورأته وهو يتأهب للهجرة، كان قلبها يخفق بين جوانحها، وكان لسانها يلهج بالدعاء وتبتهل إلى الله عز وجل أن تصاحب السلامة هذا الركب المهاجر.

ودع النبى الكريم ﷺ وأبو بكر ﷺ أسماء وعائشة رضى الله عنهما، بعد أن جهزتهما أسرع جهاز، وضعتا لهما سفرة، ووضعتهما فى جراب، وتذكر رسول الله ﷺ بناته وزوجه سودة ومن تركهم فى داره من مواليه، فصار يدعو الله عز وجل فى حرارة ويقول: «اللهم اصحبني فى سفرى واخلفني فى أهلى» ثم انطلق أفضل ركب فى رعاية الله.

أسرع أبو قحافة والد الصديق إلى دار ابنه لما علم بخروجه مهاجرًا فاستقبلته حفيدته: أسماء وعائشة، وأراد أن يطمئن فيما إذا كان الصديق قد ترك مالا لأهله وقال: «والله إنى لأراه قد فجعكم بماله فى نفسه» فقالت أسماء: «كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا» وأخذت بيد جدتها ووضعتهما فى كوة البيت، فى المكان الذى كان أبوها يضع ماله، وكانت قد وضعت أحجارًا ووضععت عليها ثوبًا ثم قالت: «يا أبت

ضع يدك على هذا المال» فوضع يده عليه وقال: «لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم».

رأت عائشة رضی الله عنها هذا كله، وانطبعت في ذهنها تلك الصورة الفريدة من أختها أسماء التي خطت مجد شهرتها من مثل هذه المواقف المونقة... بلغ الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ مأمئهما في المدينة المنورة، وما أن استقر بالرسول ﷺ المقام في مهاجرة، حتى بعث مولاہ زيد بن حارثة ومولاہ الآخر أبا رافع ليُخضِرُوا أهل النبي ﷺ وبناته، وأرسل معهما أبو بكر ولده النجيب عبد الله بن أبي بكر ليحضر كذلك أم رومان وأسماء وعائشة رضی الله عنهن، في طريق هجرة أم المؤمنين عائشة، شعرت بما نالها من إكرام الله عز وجل، وشعرت بالعناية الإلهية تحف بركبها ذات اليمين وذات الشمال، وأحست كذلك بلطف خفي يكتنفها، وهي تسير مع ركب النساء المهاجرات إلى عرين الأنصار في المدينة المنورة.

وها هي ذي أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها تصف ما حدث في طريق الهجرة فتقول: «قدمنا مهاجرين، فسلطنا في ثنية صعبة، فنفر بي جمل كنت عليه نفورا قويا منكرا، فوالله ما أنسى قول أمي: يا عؤيشة - أو يا عريسة - فركب بي رأسه، فسمعت قائلاً يقول: ألقى خطامه، فألقيته، فقام يستدير كأنما إنسان قائم تحته».

وتابع الركب مسيرته إلى أن قدم المدينة المنورة، ونزلت عائشة رضی الله عنها في دار أبيها بالسُّخ، وأقامت هنالك قرابة سنتين، حتى كانت وقعة بدر، ونصر الله عز وجل المسلمين فيها، وإذ ذاك انتقلت عائشة من دار أبيها إلى رحاب البيت النبوي لتغدو من نساء أهله الذين طهرهم الله تطهيراً.

الصديقة والزواج المبارك:

مضى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، حتى إذا كان شهر شوال، كان رسول الله ﷺ والمسلمون فرحين بنصر الله في بدر، وهناك رأى النبي ﷺ أن يتزوج عائشة ابنة صديقه وصديقة أبي بكر، وحدد يوم الزواج، وظل ذلك اليوم ماثلاً في فؤاد أم المؤمنين عائشة، فهو أسعد أيام حياتها، فهل هناك أمنية أغلى من أن تكون زوج النبي المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين!؟

أما ذلك الحديث والحدث المبهم فقد تكفلت المصادر الحديثية وكتب الطبقات والسيرة والتأريخ وغيرها بروايته عن أمنا عائشة رضوان الله عليها، ونحن مرسلو القول في الجمع بينها وتبسيطها.

ففي ذلك اليوم الميمون اجتمع في بيت أبي بكر ﷺ رجال ونساء من الأنصار، وجاءت أم رومان إلى ابنتها عائشة وهي في أرجوحة بين نخلتين، فأنزلتها من الأرجوحة، وسوت شعرها، ومسحت وجهها بالماء، ثم أقبلت تقودها حتى وقفت بها عند الباب وهي تتهيج حتى إذا ما سكن بعض نَفْسها، أدخلتها الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فيهن أسماء بنت يزيد الأنصارية، فقلن: «على الخير والبركة وعلى خير طائر» وأسلمتها أم رومان إليهن، فأصلحن من شأنها، حتى إذا تم ذلك دخلت بها إلى حيث كان رسول الله ﷺ جالساً، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستها في حجره ثم قالت: «هؤلاء أهلك يا رسول الله، فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك».

وقام الرجال والنساء، وخرجوا، وبنى رسول الله بعائشة، فما نحرت جزور ولا ذبحت شاة، ولكن سعد بن عبادة الأنصاري ﷺ، أرسل إليهم بجفنته التي كان يرسلها، ومعها قدح من لبن فشرب الحبيب المصطفى ﷺ بعضه وشربت عائشة بعضه (١).

صار لشهر شوال أثر بهيج في نفس أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ففيه كان أعظم ذكرياتها وأعزها، ومن أجل ذلك أحببت هذا الشهر، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله: «كانت تستحب أن يُبنى بناؤها في شوال» وعن هذا كله حدثت أمنا عائشة رضي الله عنها فقالت: «تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال فأى نسائه كان أحظى عنده مني؟» (٢) أضحى شهر شوال عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها شهر الذكريات المثيرة، والبركات الكثيرة، والخيرات التي لا حصر لها، بل شهر الفضل والفضائل والإحسان والمودة.

لم يكن مهر الصديقة عائشة رضي الله عنها ذلك المهر الضخم، وإنما كان بسيطاً، خمس مائة درهم فقط، وقد ذكرت عائشة مقدار مهر كل واحدة من زوجاته الطاهرات

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٨٩٤) مسلم (١٤٢٢).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٣) أحمد (٦/٥٤، ٢٠٦).

عندما سألتها التابعي الجليل أبو سلمة بن عبد الرحمن - وهو أحد الرواة الثقات - «كم كان صداق رسول الله؟».

قالت: «كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً».

قالت: «أتدرى ما النش؟».

قال: «قلت: لا».

قالت: «نصف أوقية، فتلك خمس مائة درهم، فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه»^(١).

حُملت عائشة رضي الله عنها إلى البيت الذي أُعد لها، بيت النبي ﷺ الذي كان ملتصقاً بالمسجد النبوي الشريف وهناك... هناك أضحى بيتها مهبط الوحي، ومنبع الفوائد، وموئل العلماء والفقهاء، ومنه خرج شطر العلم للعالم كله...

من الجدير معرفته أن حجرات أزواج النبي ﷺ قد ضمت إلى المسجد النبوي، إلا حجرة أمنا عائشة عليها سحابات الرضوان، ففيها دفن النبي ﷺ وصاحبه العمران أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا تزال إلى الآن - في ظلال القبة الخضراء - فواحة الشدا، تهفو إليها نفوسهم وأفئدتهم من مشارق الأرض ومغاربها، يسعون إليها من كل فج عميق، ليشهدوا جلياً المكان، ورواء التاريخ الأنور وليشاهدوا مهبط الوحي، ويسلموا على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه الصديق والفاروق رضي الله عنهما وأرضاهما.

في ذلك البيت الطاهر المطهر، ومنذ ذلك اليوم الميمون الذي دخلت فيه عائشة رحاب البيت النبوي، كان رسول الله ﷺ مدرستها التي تخرجت فيها بعلم زاخر وفقه وافر وأدب زاهر، ليأخذ عنها المسلمون دينهم، فكانت عائشة بفضل تلك التربية الحسنة والبركات الميمونة أئمة نساء الأمة ومعها أمهات المؤمنين عليهن سحابات الرضوان.

(١) رواه مسلم (١٤٢٦).

الصديقة في البيت النبوي الطاهر:

كانت السعادة الروحية ترفرف على بيوت النبي ﷺ على الرغم من حياة الزهد التي عاشها النبي ﷺ وأهله، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع، ولا توقد في بيوت النبي ﷺ نار، وإنما كانوا يأكلون الأسودين: التمر والماء.

حياة سعيدة، ما دام القلب موصولاً بالله، حياة رقيقة مع الطاعة والزهد، سعيدة بالعطف الذي كان يغمرها به الحبيب المصطفى ﷺ صاحب القلب الكبير، حتى صارت زينة الدنيا وزخرفها عند أزواجه لا يقام لها وزن في نفوسهن ولا تخطر ملاذها في بالهن، فسجدة لله عز وجل وذكره وتسبيحه هي هناك أفندتتهن وطريق الخلود في آخرتهن.

وهذا ما جعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سيدة في كل مكرمة، ولكل مكرمة سيدة في السخاء، وفي الزهد، وفي كل فضيلة، وإن تاريخها الوضيء ليحكى تلك المكارم التي اقتبستها من البيت النبوي، واحتضنتها حتى آخر نفسٍ من حياتها. لندخل أعماق السيدة الأم العظيمة أمنا عائشة رضي الله عنها، ولندخل معها - إن أذنت - بيتها الطاهر الموفق، وكيف لا وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ اسم موفقة^(١)، لندخل الحجرة النبوية التي خصصت لعائشة رضي الله عنها.

منذ الأيام الأولى لزواج عائشة رضي الله عنها، أحببت أن تحتل مكان خديجة في البيت المحمدي الطاهر، وأن تأخذ مكانها في قلبه الشريف ﷺ منذ الأيام الأولى لدخولها البيت النبوي.

لكن أوفى الأوفياء الرسول الكريم ﷺ كان مخلصاً لخديجة رضي الله عنها، فمقامها ومكانتها لن تشاركها فيه امرأة أخرى مهما علا شأنها، ولقد سبق عائشة إلى البيت النبوي زوجة أخرى هي سودة بنت زمعة العامرية، وكانت قد تجاوزت مرحلة الصبا، وكان زواجه ﷺ منها - بالإضافة إلى أنه وحى - زواج عطف ومودة ومواساة، وحكمة محمدية تتضح بالرحمة المهداة من الله رب العالمين.

(١) رواه الترمذي في الشمائل (٣٨٠).

كانت عائشة رضى الله عنها تحب رسول الله ﷺ وترجو أن يكون لها ولد منه، كما كان لخديجة، ولكن حكمة الله اقتضت ألا يكون منها الولد، إلا أن رسول الله ﷺ قد طيب خاطرها فقال لها: «اكتنى بابن أختك عبد الله بن الزبير» فكانت كنيته أم عبد الله.

الصديقة واللفظ النبوى:

سجلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ذكرياتها الحلوة وخطرات نفسها الفطنة، وما كانت تلقاه من الرعاية النبوية، واللفظ والعطف عليها فى حياتها الزوجية فى البيت النبوى، كان رسول الله ﷺ يمتلك من العطف والرحمة، ما يغنى زوجه الصغيرة عائشة عن عطف أبيها فقد تركها على سجيته تلعب بالعرانس فى بيته، كما كانت تلعب بها فى بيت أمها وأبيها، وربما جاء أترابها الصغار، فكى يستحين منه ﷺ، ويدخلن وراء الستر، فكان رسول الله ﷺ يرسلهن إلى عائشة كى يلعبن معها لما يعلم من سرورها بذلك.

روى البخارى رحمه الله وغيره عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت ألعب بالبنات - تعنى اللعب - فيجىء صواحبى، فينقمعن من رسول الله ﷺ فيخرج رسول الله فيدخلن علىّ، وكان يسربهن إلىّ، فيلعبن معى»^(١).
وروت عائشة رضى الله عنها أيضًا قالت: «دخل علىّ رسول الله ﷺ، وأنا ألعب بالبنات، فقال: «ما هذا يا عائشة»؟ قلت: خيل سليمان ولها أجنحة، فضحك»^(٢).

كان الرسول الكريم ﷺ يقدر حداثة سن عائشة، وحاجتها إلى اللهو حتى تستكمل أنوثتها، ولذلك كانت رضى الله عنها تسدى النصائح إلى الآباء، وإلى الأمهات، أن ينتبهوا لهذه الناحية فنقول: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو» وفى رواية: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن التى تسمع اللهو» وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ترى السودان وهم يلعبون بحرابهم فى المسجد، حتى تتصرف

(١) رواه البخارى (٦١٣٠) مسلم (٢٤٤٠) أحمد (٦/٢٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٣٢) التستالى فى عشرة النساء (١/٧٥).

وقد سُرت بهم، روت أمنا عائشة هذه الحادثة فيما أخرجه أهل الحديث فقالت: «قدم وفد الحبشة على رسول الله ﷺ، فقاموا يلعبون في المسجد، فرأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إليهم حتى أكون أنا التي أسأم» رواه البخارى (٤٥٤) مسلم (٨٩٢). وهكذا كان الحبيب المصطفى ﷺ يتعهد عائشة بما يسرها - وهى فى السنوات الأولى من زواجها - وإن عجب الصحابة لذلك، فقد كان ﷺ المثل الأعلى فى كل ما يفعل، فالصحابه الكرام لا تتسع أحلامهم لما يتسع له حلمه وصدره ﷺ...

فربما مر أبو بكر الصديق ؓ ببيت ابنته، فيسمع صوتها عاليًا فى حضرة النبى ﷺ، فيستأذن على النبى ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، وهنا يكاد يغضب فيقول منبها: «يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟!» وربما همَّ بلطمها، ولكن النبى الكريم ﷺ حال بينه وبينها، ثم يخرج أبو بكر ؓ، وقد علا وجه عائشة الحزن، فجعل ﷺ يترضاها وقال لها: «ألن ترينى حُلَّت بين الرجل وبينك؟» فرضيت رضى الله عنها، ثم يستأذن أبو بكر الصديق مرة أخرى، فسمع تضاحكها وعندئذ قال ﷺ: «أشركانى فى سِئِمِكِما كما أشركتمانى فى حربكما»^(١).

وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تلقى العطف النبوى ورعايته الكريمة على الدوام، فكان يسابقها مرة، ويمزح معها...

روت عائشة حديث السباق هذا فقالت: «سابقنى النبى ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا رهقنى اللحم، سابقنى فسبقنى فقال: «يا عائشة هذه بنتك»^(٢).

الصديقة وأحكام الجهاد:

من المؤكد أن الإسلام أصدر أحكامًا بشأن المرأة تنبنى على مراعاة طبيعتها التى جبلت عليها، وعلى استعدادها الخلقى والعقلى، مما يتيح لها دورًا فى شراكتها للرجل فى خدمة أمتها ومجتمعها الإسلامى صقلًا لشخصيتها وإشعارًا بأهميتها.

فى مجال الجهاد أباح الإسلام مشاركة المرأة فى ساحات القتال وكان جهادها يتناسب مع أنوثتها، كاستخدام المرأة فى التمريض، ومداواة الجرحى، وإيصال الطعام

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧١) بتصرف.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٧٨) النسائى فى عشرة النساء (٢/ ٧٤) ابن ماجه (١٩٧٩) أحمد (٦/ ٣٩، ٣٦٤).

والماء إلى المجاهدين، وما كانت تشارك في القتال الفعلى، إلا في حالات الضرورة القصوى، كما فعلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية في غزاة أحد، إذ شاركت في صفوف المجاهدين وشرعت تقاثل دفاعًا عن رسول الله ﷺ.

أما عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها، فقد ضربت بسهم وافر في مجال الجهاد، وكان لها الأثر المحمود في غزوات الرسول ﷺ، وكانت أولى مشاهدها في غزوة أحد، إذ خرجت تؤدي دورها، فكانت تسقى المجاهدين الماء، وبصحبته أم سليم بنت ملحان الأنصارية رضی الله عنها، وكان الجيش الإسلامي يوم أحد يصحب أربع عشرة امرأة من خيار الصحابيات، بينها سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، رضی الله عنها، وأم أيمن الحبشية، وحمنة بنت جحش، رضی الله عنهن وغيرهن.

ولما اشتدت المعركة رُئيت عائشة رضی الله عنها، تنقل الماء لساقية المجاهدين، روى شاهد عيان وهو أنس بن مالك رضی الله عنها دور النسوة ودور عائشة في غزاة أحد فقال: «ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان أرى خدم — خِلْخَال — سوقهما تتقلان القربَ على متونهما، ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملأنها، ثم تجبئان، فتفرغانه في أفواه القوم».

انتهت المعركة، وجرت عائشة في نسوة تستروح الخبر فلقيت هند بنت عمرو بن حرام الأنصارية أخت عبد الله بن عمرو بن حرام تسوق بعيرًا لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خالد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام، فقالت لها عائشة: «عندك الخبر، فما وراءك؟» فقالت هند: «خيرًا، أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جلال — هينة — واتخذ الله المؤمنين شهداء».

فقالت لها عائشة: «فمن هؤلاء؟».

قالت هند: «أخي، وابني، وزوجي».

قالت عائشة: «فأين تذهبين بهم؟».

قالت هند: «إلى المدينة أقبرهم بها».

وأخذت هند تزجر بعيرها فبرك البعير، ثم زجرته فقام، ولما وجهت به نحو المدينة المنورة برك، وكررت مرارًا والجمل يبرك، عندئذ وجهته راجعة إلى أحد

فأسرع، فرجعت بهم إلى النبي ﷺ ليدفنهم مع الشهداء، وفي أحد أخبارها رسول الله ﷺ أنهم ترافقوا في الجنة جميعاً.

تابعت أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها رحلة الجهاد، فكانت في عداد المجاهدات في غزاة الأحزاب، فقد نزلت من الحصن الذي كانت فيه مع النساء والأطفال، وتقدمت إلى الصفوف الأمامية، واقتحمت حديقة فيها نفر من المسلمين، ومعهم عمر بن الخطاب الذي أنكر جرأتها، وتعجب من إقدامها، وقال لها: «ما جاء بك؟ والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز؟» وما زال يلومها حتى تمت أن الأرض تتشق وتدخل فيها، وإذ ذاك قال طلحة بن عبيد الله لعمر رضی الله عنهما: «يا عمر، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى».

وعادت أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها إلى الحصن في المدينة، حتى أنزل الله عز وجل نصره على المؤمنين، وأرسل جنوداً لم يروها، وتفرقت جموع الأحزاب، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فهاموا على وجوههم، وعادوا من حيث أتوا، وهم مضطربون لا يعقلون شيئاً...

وفي السنة السادسة من الهجرة، خرجت القرعة على عائشة رضی الله عنها لتكون في عداد الجيش المنطلق إلى المريسيع لغزو بني المصطلق، وفي هذه الغزوة الممحصنة للإيمان، وقعت أخطر حادثة أدخلت على كل مسلم ومسلمة من البلاء ما لم يدخل عليه مثله في محن الشدائد والأزمات التي ابتلى بها المسلمون، تلك الحادثة هي دسياسة الإفك التي كشفت عن خسة المنافقين وفجورهم ومن خلفهم جموع اليهود الذين تغلى قلوبهم بالحق على الإسلام وعلى المسلمين وعلى رسول الله ﷺ خاصة، وفي السطور التالية نقرأ ذلك.

الصديقة ومحنة ومنحة:

إن محنة الإفك التي اخترعها المنافقون والمرجفون في مصانعهم الهزيلة الخاوية، قابلها المسلمون بصبر جميل، وتجلدوا لها، واحتملوا لهيبها، ونيران فتنتها، لأنهم فوجئوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلاً ولا مخرجاً.

أعتقد أن المقادير الإلهية، والتدابير الربانية، أرادت أن تكون أبلغ درس في التربية الاجتماعية الصافية للمجتمع المسلم الذي كان نواته البيت النبوي الذي باركه الله، فأذهب عنه الرجز وطهره تطهيراً، ولقد بدأت تلك الحادثة بالمنحة، ولكنها ختمت بالمنحة الإلهية، وهل هناك كرامة أعظم من المنح الإلهية؟!.

كانت حادثة الإفك أسوأ مكر، وأخبث فجور، كاد به المنافقون المجتمع المسلم النقي القائم في تركيبه على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس المعنوية والحسية، وعلى من كان التقول والافتراء؟! ومن هي تلك التي قيل عنها ما قيل؟!.

هي بنت الصديق الأكبر أبي بكر الذي لم يوصم بيته بوصمة في الجاهلية، حتى يوصم بهذه الوصمة في الإسلام! ومع نبي الإسلام! وفي بيت الإسلام مع نساء أهل البيت النبوي!!.

الله أكبر.. الله أكبر، ألا ما أعظم تلك الفرية التي اختلقها المنافقون! وما أسوأ الكذبة التي خلفها المرجفون في المجتمع المسلم النقي، لا، بل في البيت النبوي الطاهر الذي أذهب الله عنه الرجز وطهره تطهيراً، ولنا وقفات مضيئات مع القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ولنا وقفات كاشفات أيضاً مع الحديث النبوي الشريف الذي خص الصديقة بنت الصديق بالمكرامات من قبل حديث الإفك، ومن بعده.

فلنرهب الأسماع ولنوقظ الأحاسيس، ولنقف وقفة إعظام وإكبار أمام كلام العليم الخبير الذي فضح شرادة المنافقين، وأذاب شخصيتهم من المجتمع الطاهر في عصر النبوة، ليكون المجتمع خالصاً نقياً ندياً يفوح برائحة الطهر والطهارة والعفة.

الصديقة وحسد الحساد:

كان المسلمون بقيادة الحبيب الأعظم محمد ﷺ قد أنهوا معركة بني المصطلق بنصر مكين على جموع هذه القبيلة، وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تملأ قلوب المنافقين حقناً وغيظاً، وتشحن نفوسهم كمدًا وهمًا، وتعرض في حلقيمهم غصة مرة تكادتكم منهم الأنفاس، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام، لكونهم لا يملكون الشجاعة التي يفتقدونها في كل المواقف، وخصوصاً في ميادين القتال، فهم فجرة

جاحدون إذا خلوا إلى شياطينهم مع فجار اليهود، وهم مسلمون بزعمهم - إذا رأوا نجاح المسلمين، ولكي كانوا كما ذكر الله عز وجل في الذكر الحكيم: ﴿ وَتَحَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَيَكُنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ (التوبة: ٥٦).

وأتى القرآن الكريم بأدق التفاصيل لوصف هؤلاء المنافقين فقال: ﴿ لَوْ تَحَدَّثُونَ مَلَاجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ عَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة: ٥٧).

كان زعم المرجفين، وكبير المنافقين، وفاجر الأفاكين عبد الله بن أبي ابن سلول الذي اختلق تلك الحادثة الأليمة حادثة النقول بالكذب والباطل، والافتراء المختلق في مصانع الفجور والنفاق، على أظهر الطاهرات المطهرات بنص القرآن والحديث الصديقة بنت الصديق رضی الله عنهما، حبيبة الحبيب، محمد ﷺ، أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها وعلى أبيها.

قلنا: كان الذي تولى كبر هذا الإفك والبهتان وأشاعه، واستوشاه، هو الخبيث الفاجر، رأس النفاق، وزعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول قبحه الله وأخزاه وجاراه في ذلك بعض من استزلهم الشيطان وسول لهم، وأملى لهم فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطاها بظلام ضلالاته، وأوشكت تكون فتنة قاصمة لظهر المجتمع المسلم لولا فضل الله ورحمته بنبي المسلمين وأهل بيته .

الصديقة وشدة بلاء الإفك:

في حادثة الإفك العصبية كادت تكون فتنة عمياء، إذ أصابت المسلمين بهزة عنيفة أذهلتهم، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين في آرائهم تجاه حادثة الافتراء والظلم، سكت بعضهم فلم يدر من شدة الدهش والذهول ما يقول، وأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وكع أناس عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليمة النبي ﷺ الطاهرة المطهرة عائشة رضی الله عنها، وأنزل الله عز وجل عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، الساحة النبوية، وادخر للمنافقين الذين صرحوا وكذبوا جهنم كلما خبت زادها توقدًا وسعيرًا.

أجل كان في هذا الحديث الجلل من خطر الحديث وشدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لا يعلم مداه إلا العليم الخبير، ولكن رسول الله ﷺ كان إمام الصابرين وقدرتهم، صبر

أجمل الصبر، وعالج الأمر بحكمة وهدوء فقد كان همه ﷺ أن يقي المجتمع المسلم من عواصف الفتن، وهزات المحن، وقواصم المكائد، النفاقية المنبتقة عن بعض الرواسب الجاهلية الحاقدة على أهل العفة والصيانة والدين.

كان هذا الحدث الخطير والحادث اللثيمة لأم المؤمنين رضى الله عنها أوضح دلالة على خطر المنافقين واستفحال أذاهم، إلا أن رحمة الله تعالى بالنبى ﷺ وأهله أبطلت كيدهم، فكشف الغمة، وفرج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن المجيد على رسوله الكريم محمد ﷺ إذ كان يظن أن يرى الرسول ﷺ رؤيا منامية فى تبرئة أطهر الطاهرات، وأفقه الفقيهاة، أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، بيد أن الله عز وجل أراد أن يجعل من الآيات خصيصة ومكرمة ليرفع من شأن أمنا عائشة رضى الله عنها إظهاراً لشرفها الذاتى والاجتماعى، وإنافة لمكانتها فى أهل البيت طهراً وفضلاً وشرفاً، وتقللاً فى ميزان الفضائل والمكارم الإنسانية والايمانية لمكانتها من قلب رسول الله ﷺ ونفسه.

وها نحى أولاء فى الفقرات الآتياة نشهد الحديث كاملاً، تقصه علينا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بأسلوبها المشرق الأدبى الرصين الذى يعتبر بحق قطعة أدبية فريدة فى عالم الأدب الخالص وعالم الرواية الحديثية.

الصديقة وبداية الموقف:

تصور أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بداية الموقف الأليم الذى ألم بالبيت النبوى الطاهر المطهر من خلال حديثها الطويل عند الإمام البخارى رحمه الله فى الصحيح إذ قالت: «فقدمت المدينة فاشتكت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وكان ذلك يُرَبِّبْنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنتُ أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل على رسول الله ﷺ ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يُرَبِّبْنى ولا أشعر بالشر» وتتابع أم المؤمنين عائشة رواية تفاصيل الحادثة فتقول: «فأخبرتني أم مسطح بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضى، فبكيت يوماً ذلك كله، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى

إني لأظن أن البكاء فالق كبدى، فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم، ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شىء، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب تاب الله عليه» فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبى: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمى: أجبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمى: فوالله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

الصديقة وشهادة البراءة الربانية:

حز الحزن نفس الصديقة عائشة رضى الله عنها وآلمها افتراء المنافقين، ولكنها بعد أن رأت أن أبويها عجزا عن الكلام أمام النبى ﷺ، ولم يتكلم أى واحدٍ منهما بكلمة، وهى الأثيرة عندهم جميعاً، هنالك فوضت أمرها للتعليم الخبير ليفرج ما حل بها وبالبيت النبوى، ولنستمع الآن إلى بقية الرواية العائشية الشائقة، ونحن نرقب الفرج القريب مع أمنا عائشة رضى الله عنها وأرضاها ورضى عن أبويها...

قالت عائشة رضى الله عنها تروى حديث البراءة:

فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت: إني بريئة، لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقن فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف: ١٨) ثم تحولت فاضطجعت على فراشى، والله يعلم أنى حينئذ بريئة، وإن الله مبرئى ببرائى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل فى شأنى وحياً يتلى، لشأنى فى نفسى، كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان — وهو فى يوم شاتٍ — من ثقل القول الذى أنزل عليه، فسرى عن رسول

الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أما الله فقد برأك فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ (النور: ١١) العشر الآيات، ثم أنزل الله تعالى في هذا اليوم براءتي (١).

وهكذا أنزل الله عز وجل فرجه، وأزاح الهم عن قلب البيت النبوي، والبكري، وكل بيوت المؤمنين الذين أهمهم هذا الأمر الذي يشير إلى خبث المنافقين وفجورهم، ولؤم نحيزتهم.

إن المتأمل في آيات سورة النور (١١ - ٢٠) يجد أنها جاءت بأكفاً وأجود الحفاوة والتشريف والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحته، وتعزية المجتمع المسلم، وتسليية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدة المحنة، وفيما جاء به أعداء الله وأعداء رسوله، وأعداء أهله الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وكذلك أعداء دينه من المنافقين، ومرضى القلوب الحاسدين المرجفين، كل هذا تعظيماً لقدر الحبيب المصطفى ﷺ، وصوناً لساحته أن يكون متنزلاً للبهتان المفترى، وإعزازاً لأحب الناس إليه، أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من بهتان الحاقدين واقترائهم وجهلهم.

وسأعرض عليك أيها القارئ الكريم نموذجاً من فجور أولئك الحاقدين حتى تكتمل الصورة، ويتم التصور عن نظرة هؤلاء الذين أعمى الحقد قلوبهم وبصائرهم وأبصارهم، فساروا في طريق العناد واللدد.

ففي العصر الحديث، تحرك المفرضون لينبشوا في أحداث الماضي ويثيروا حولها الشبهات، ويلبسوا على المسلمين أمورهم تعيدهم إلى دائرة الشك وإيقاظ الفتنة للنيل من مقام النبوة بالتشكيك في نزاهة البيت النبوي وطهره وعفافه، وجاء هذه المرة من قبل المستشرقين الذين عرف عن أغلبهم الدس والكيد للإسلام والمسلمين، فأتاروا حادثة الإفك وصاغوها في روايات شتى نورد منها هاهنا - وعلى سبيل المثال - رواية

(١) رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم، وانظر الفتح (٧/٤٩٦ - ٤٩٩) (٨/٣٠٦ - ٣٣٩).

المستشرق الألماني اليهودي «بروكلمان صاحب كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية وإليك نص تعريبيه: ... وقام النبي خلال سنة (٦٢٧م) أيضاً بحملات عدة، على بعض القبائل البدوية، ولقد أبعدها، حتى لقارب مكة، وكانت هذه الغزوات آمنة إلى حد ساعده على أن يصطحب فيها اثنتين من أزواجه، فاتفق مرة، أن أضاعت زوجه المفضلة عائشة بنت أبي بكر - وكانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها - قلاقتها، فخرجت تبحث عنها مساءً ففاتها قوافل الغزاة، ولم تعد إلى المعسكر إلا في اليوم التالي، وبرفتها شاب كانت قد عرفتة من قبل، وتطرق الشك في إخلاص عائشة إلى نفس النبي، فردها إلى بيت أبويها، ولكن الله لم يلبث أن برأها بعد شهر واحد في إحدى الآيات الموحاة إلى النبي، مضيفاً في الوقت نفسه أن أى اتهام لامرأة بالخيانة الزوجية، لا يؤيده أربعة شهود عيان، يعتبر فرية، أو قذفاً يستحق عليه صاحبه مائة جلدة وكان على صهر النبي أحد خصوم عائشة الذين ألحوا عليه في طلاقها، وليس من شك في أن جذور العداء الذي تكشفت عنه عائشة لعلى بعد أن استخلف على المسلمين ترجع إلى هذه الحقبة، ومهما يكن من شيء، فلم يكن لحادثة العقد هذه أدنى تأثير على وضع المرأة الاجتماعى فى الإسلام كما يُظن، فالحجاب الذى تصطنعه النساء المتزوجات كان عادة عربية قديمة، وكان النبي قد فرضه، قبل هذه الحادثة لأسباب أخرى، والواقع أن الحجاب لم يحل بين النساء فى الجاهلية، وفى الإسلام أيضاً حتى عهد الأمويين، وبين الظهور بين الناس فى كثير من الحرية والتأثير فى المجتمع العربى تأثيراً مذكوراً فى بعض الأحيان، إن مؤسسة الحريم التى وضع قواعدها العباسيون على غرار النموذج المسيحى البيزنطى، هى وحدها المسؤولة عن انحطاط المرأة فى الشرق .

لاحظ معى عزيزى القارئ صياغة بروكلمان لهذه الحادثة، بما فيها من دس السموم ونفت الحقد، وبث الشك وبذرته فى النفوس، وقلب الحقائق وتشويهها فى الأذهان، ولاحظ الخلل والخطأ والتحامل الخفى الذى يحاول بروكلمان بخبثه إخفاءه، ويأبى إلا أن يظهر فى أسلوبه، من ذلك قوله: فردها إلى بيت أبويها وقوله: جذور

العداء الذى تكشفت عنه عائشة لعلى وقوله: على صهر النبي أحد خصوم عائشة وقوله: انحطاط المرأة فى الشرق وما شابه ذلك.

ولكن الله عز وجل يرد كيد الخائنين إلى نحورهم، ويجلهم بالخزى والعار، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون... والحاقدون.. وأتباعهم فى كل زمان ومكان...

إن تلك الرواية الاستشراقية وأمثالها من غير الروايات غير الاستشراقية، لا تضير رصيد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، بل تجعل المنصف يبحث عن الحقائق فى مكانها حتى يصل إلى الغاية النبيلة الكريمة.

الصديقة ووقفة تأمل:

عندما يقف الإنسان ويتدبر معانى الآيات الكريمة التى برأت عائشة رضى الله عنها، تجول فى خاطره تلك الساعات الحرجة التى مر بها البيت النبوى، وبيت أبى بكر، وكيف تلقى النبي ﷺ هذا الخبر، وكيف صبر رسول الله ﷺ وآل أبى بكر إزاء حديث الإفك؟.

لقد أذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة الصديقة التى أحبها مع أبيها حباً يفوق تصور المتصورين، فهو لا يعلم عن زوجه عائشة إلا خيراً، ولكن ما بال المنافقين يتقولون عليها؟.

لبث رسول الله ﷺ صابراً إزاء المحنة القاسية صبراً لم يعرف فى تاريخ النوازل والبلايا والخطوب لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبع وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد أن ظفر ببنى المصطلق، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولاكته ألسنتهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.

وما بالك بحال آل أبى بكر الصديق رضوان الله عليه.

أقول: لم يكن حالهم أقل حزناً من حزن رسول الله ﷺ فإنه منذ بلغهم حديث الإفك، وما افتراه به المنافقون وأتباعهم، وهم يعانون من تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تلاحقهم النظرات المتنوعة من كل

مكان، وفي كل مكان، ولك أن تتخيل تلك اللحظات الحرجة، والساعات والأيام التي قضوها، وهم يعيشون مرارة المحنة، ولكنهم استسلموا لقضاء العزيز الحميد الذي له ما لك السموات والأرض، منتظرين حكمه بكشف الغمة ورد كيد المنافقين وكان أمر النبي ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم .

وصفت أمنا عائشة حالها وحال أبيها في أخرج لحظات البلاء التي شوشت راحتهم وهدت تفكيرهم وفي حالة نفسية يرثى لها، تقول عائشة: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام .

في تلك اللحظات الحرجة، وعند نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وصفت أم المؤمنين حالها وما نزل بها حين نزول الوحي، فقالت: فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فرغت ولا باليت، قد عرفت أنى بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمى، وأما أبوإي فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله ﷺ حتى رأيت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتى تحقيق ما قال الناس... .

لكن الوحي حسم ذلك كله بشهادة الطهر والبراءة لعائشة رضى الله عنها، وأنزل الله عز وجل في شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب، وتبرئة الصديقة عائشة رضى الله عنها والثناء عليها — وذكر ما أعده الله لها من عظيم الثواب فى الآخرة، ونقاء السيرة والسريرة فى الدنيا، وعلو الدرجة فى المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه — قرأنا يتلى، ويتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويصلى به، آيات محكمات، ملزماً لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة، وبذلك فى نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ ونختم بقوله عز وجل ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (النور: ١١ - ٢٦).

قال الزمخشري رحمه الله: كل آية منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسليية له، وتنزيهه لأم المؤمنين رضى الله عنها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به، فلم تمجه أذناه... .

ومن ثمرات الصبر فى تلك الحادثة، أن الله عز وجل أخبر بأن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لعائشة رضى الله عنها، ولم يكن ذلك الذى قيل شراً لها، ولا خافضاً من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها وكرامتها، وصار لها ذكر بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها وما أعظمها!!^(١).

الصديقة وخصائص مميزة:

فى حياة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها خصائص كريمة تستحق الوقوف، هذه الخصائص الشريفة مميزة فى حياتها مع رسول الله ﷺ وقد تفردت بها فى عالم النساء، ورقت إلى نزوة المعالى فى البيت النبوى، ومن يتبوأ تلك المنزلة فحق له أن يفخر. وقد أظهرت عائشة رضى الله عنها أبلغ بيان، فى أجمل أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برأها الله وأكرمها بشهادة زكية فى القرآن المجيد الذى أنزله الله عز وجل، وتكفل بحفظه إلى ما شاء سبحانه.

فى جلسة ندية مباركة أفصحت عائشة عما تفردت به عن غيرها من النساء، قالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة:

لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجنى.

ولقد تزوجنى بكرة وما تزوج بكرةً غيرى.

ولقد توفى رسول الله ﷺ وإن رأسه لفى حجرى.

ولقد قُبر فى بيتى.

ولقد حفت الملائكة ببيتى، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه فى لحافه، فما

يبيننى عن جسده.

وإنى لابنة خليفته وصديقه.

ولقد نزل عنرى من النساء.

ولقد خلقت طيبة عند طيب.

ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً .

(١) جلاء الأفهام (ص ١٨٣) بتصرف.

ولقد صدقت أم المؤمنين عليها سحائب الرضوان فى كل ما حدثت به عن نفسها من الفضل والشرف والخصائص النبيلة، والصفات الكمالية التى لم تجتمع فى امرأة قبلها ولا بعدها رضى الله عنها.

إن كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء قد أغرموا فى تلك الخصائص العائشية النبيلة المباركة، وأخذوا ينظمون فيها أبدع ما تجود به قرائحهم من روائع القول، وبدائع البدائنه التى أضفت إلى أدبنا القيم زادا طيباً يتحف العقول، ويغذى النفوس، ويهذب الطباع ويزيد الخير والنماء فى رصيد أمنا عائشة رضوان الله عليها.

ويظهر أن عدداً من العلماء الأدباء، والشعراء العلماء، قد سمعوا ما وصفت به أم المؤمنين عائشة نفسها من خلال حديثها، فنظموا ذلك شعراً، وكان الشيخ أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسى، ممن راقته تلك المعانى، فنظم قصيدة جميلة موفقة يمتدح بها الموفقة أمنا أم المؤمنين عائشة، ويعدد شمائلها وخصائصها ومناقبها...

وهذه القصيدة تقترب من ستين بيتاً أجاد فيها أبو عمران الأندلسى إجادة رائعة، وتسمى هذه القصيدة بالقصيدة الوضاحية فى مدح السيدة عائشة أم المؤمنين وقد اشتهرت فى عالم الأدب وخمسها كثيرون لجمالها، وحفظها المحبون، وأتشدوها فى مجالسهم، وما نحن أولاء نورد هذه القصيدة كاملة لنذرتها وجمالها وحسن سبكها:

ما شان أم المؤمنين وشانى	هدى المحب لها وضل الشانى
إنى أقول مبيناً عن فضلها	ومترجماً عن قولها بلسانى
يا مبغضى لا تأت قبر محمد	فالبيت بيتى والمكان مكانى
إنى خصصت على نساء محمد	بصفات بر تحتهن معانى
وسبقتهن إلى الفضائل كلها	فالسبق سبقى والعنان عنانى
مرض النبى ومات بين ترائبى	فاليوم يومى والزمان زمانى
زوجى رسول الله لم أر غيره	الله زوجنى به وحبانى
وأناه جبريل الأمين بصورتى	فأحبنى المختار حين رآنى
أنا بكره العنراء عندى سره	وضجيعه فى منزلى قمران

وبراعتي في محكم القرآن
وعلى لسان نبيه براني
بعد البراءة بالقبيح رمانى
إفكاً وسبح نفسه في شانى
ودليل حسن طهارتى إحصانى
وأذل أهل الإفك والبهتان
من جبرئيل ونوره يغشانى
فحنى على بثوبه وخبانى
ومحمد فى حجره ربانى؟
وهما على الإسلام مصطحبان
فالنصل نصلى والسنان سنانى
حسبى بهذا مفخرًا وكفانى
وحبيبه فى السر والإعلان
وخروجه معه من الأوطان
بردائه أكرم به من شان
زهذا وأذعن أيما إذعان
وأنته بشرى الله بالرضوان
فى قتل أهل البغى والعدوان
وأذل أهل الكفر والطغيان
مثل استباق الخيل يوم رهان
فمكانه منها أجل مكان
بعداوة الأزواج والأختان
ويكون من أحبابه الحسنان
لا تستحيل بنزغة الشيطان
هل يستوى كف بغير بنان

وتكلم الله العظيم بحجتى
والله خفرنى وعظم حرمتى
والله فى القرآن قد لعن الذى
والله وبخ من أراد تنقصى
إنى لمحصنة الإزار بريئة
والله أحصننى بخاتم رسله
وسمعت وحى الله عند محمد
أوحى إليه وكنت تحت ثيابه
من ذا يفاخرنى وينكر صحبتى
وأخذت عن أبوى دين محمد
وأبى أقام الدين بعد محمد
والفخر فخرى والخلافة فى أبى
وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد
نصر النبى بماله وفعاله
ثانيه فى الغار الذى سد الكوى
وجفا الغنى حتى تخلل بالعبا
وتخللت معه ملائكة السما
وهو الذى لم يخش لومة لائم
قتل الأولى منعوا الزكاة بكفرهم
والله ما استبقوا لنيل فضيلة
إلا وطار أبى إلى عليائها
وويل لعبد خان آل محمد
طوبى لمن والى جماعة صحبه
بين الصحابة والقرابة ألفه
هم كالأصابع فى اليدين توأصلاً

حصرت صدور الكافرين بوالدى
 حب البتول وبعلمها لم يختلف
 أكرم بأربعة أئمة شرعنا
 نسجت مودتهم سدى فى لُحمةِ
 الله ألف بين ود قلوبهم
 رحماء بينهم صفت أخلاقهم
 فدخلهم بين الأحبة كلفة
 جمع الإله المسلمين على أبى
 وإذا أراد الله نصره عبده
 من حبنى فليجتنب من سبنى
 وإذا مُحِبى قد أظ بمبغضى
 إنى لطيبة خلقت لطيب
 إنى لأم المؤمنين فمن أبى
 الله حبنى لقلب نبيه
 والله يكرم من أراد كرامتى
 والله أسأله زيادة فضله
 يا من يلوذ بأهل بيت محمد
 صل أمهات المؤمنين ولا تحد
 إنى لصادقة المقال كريمة
 خذها إليك فإنما هى روضة
 صلى الإله على النبى وآله

ومن فضائل أمنا عائشة وشمائلها هذه اللطيفة المباركة التى أوردها القرطبى فى
 تفسيره قال: قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة برأه الله على
 لسان صبى فى المهدي، وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى

صلوات الله عليه، وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن، فما رضى لها ببراءة صبي، ولا نبي، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان .

وأود في نهاية هذه الفقرة المونقة أن أشير إلى أن بعض العلماء ذهب إلى أن أمنا عائشة رضى الله عنها أفضل الصحابييات على الإطلاق، فقد نقل الإمام الأمدى في كتابه أبحاث الأفكار عن الزمخشري في الإجابة قوله: مذهب أهل السنة: أن عائشة أفضل نساء العالمين وأيدوا ما ذهبوا إليه بقوله ﷺ عنها: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقد أيد العلماء ما ذهبوا إليه بأن عائشة أفضل النساء لأن لها من الفضل في العلم النافع، والفقه الناصع ما ليس لغيرها من سائر أزواجه ﷺ، حتى إن الأكابر من أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها فيجدون علمه عندها. ومن العلماء من توقف عن ذكر التفاضل بين الصحابييات على الإطلاق، وهذا هو القول الراجح، لأن الأفضلية على الإطلاق لا يعلمها إلا الخلاق، وإنما الأفضلية تكون في ناحية خاصة، فكل واحدة قد يكون لها من المزايا والخواص ما تفضل بها على غيرها من سائر النساء...

وممن أيد هذا الرأي الحصيف الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله إذ قال ما مفاده: الخلاف في كون أم المؤمنين عائشة أفضل، أم سيدتنا فاطمة الزهراء أفضل، وإذا حرر محل التفضيل صار وفاقاً، فالتفضيل دون التفصيل لا يستقيم، فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله عز وجل، فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص، لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح، وكم من عاملين أحدهما أكثر عملاً بجوارحه، والآخر أرفع منه في الجنة!.

وإن أريد بالتفضيل: التفضيل بالعلم فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة، وأدت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها. وإن أريد بالتفضيل: شرف الأصل وجملة النسب فلا ريب أن فاطمة أفضل، فإنها بضعة من النبي ﷺ، وذلك اختصاص لم يشاركها فيه غير إخوتها، وإن أريد السيادة: ففاطمة الزهراء سيدة نساء الأمة.

وإذا ثبتت وجوه التفضيل، وموارد الفضل وأسبابه، صار الكلام بعلم وعدل، وأكثر الناس إذا تكلم في التفضيل لم يفصل جهات الفضل، ولم يوازن بينها، فيخس الحق، وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصب وهوى لمن يفضل تكلم بالجهل والظلم.

وقد سئل ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل، فأجاب فيها بالتفصيل الشافى إلى أن قال: ومنها: أنه سئل عن خديجة وعائشة أمى المؤمنين أيهما أفضل، فأجاب: بأن سبق أمنا خديجة رضى الله عنها وتأثيرها فى أول الإسلام، ونصرها وقيامها فى الدين لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة فى آخر الإسلام، وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها، فتأمل الجواب الذى لو جئت بغيره من التفضيل مطلقاً لم تخلص من المعارضة (١).

الصديقة وأمهات المؤمنين:

لم تكن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وحدها فى البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، وإنما كان لها شريكات فى البيت النبوى من أمهات المؤمنين، مثل: سودة بنت زمعة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وحفصة بنت عمر رضى الله عنهن.

وكان من أجل النعم الإلهية على البيت النبوى، وعلى المسلمين أن الله عز وجل قد حمى أمهات المؤمنين الطاهرات كلهن عن التكلم فى محنة هذا البيهتان الخبيث، فلم يؤثر عن أية واحدةٍ منهن أنها تكلمت فى عائشة كلمة واحدة، أو أشارت توحى إلى هذا الأمر خفية، وهن ضرائرها وشريكاتها فى القرب من رسول الله ﷺ.

ولكن الله ذو الفضل العظيم والخير العميم، حفظهن جميعاً حفظاً مباركاً لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن فى خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزلق الباطل، والتقول على من يعرفن أنها أحب الناس إليه ﷺ، وأعزهن

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦١ - ١٦٣) بتصريف يسير.

عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقر به عينه ﷺ.

وقد خص الله عز وجل أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، بموقف نبيل كريم من عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهي التي تساميتها عند رسول الله ﷺ مما كان يخاف منه العشرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارتها من رجس الإفك، وافتراء البهتان، فقال لها: يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيراً رواه البخارى (٤٧٥٠).

قالت عائشة رضي الله عنها تثني على زينب، وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها وجودها ومعروفها: وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع . إنه من الصعب أن تنتزع ثناء امرأة على امرأة في مثل هذه المواقف، ولكن نساء النبي ﷺ كن من نوع آخر، فكانت الواحدة منهن تثني على صاحبها بما هي أهله. روى أن أمنا عائشة أثنت على أمنا زينب بنت جحش فقالت: كانت زينب بنت جحش تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ وما رأيت امرأة خيراً في الدين من زينب، وأتقى الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة رضي الله عنها (١). أما المنافقون وزعيمهم عبد الله بن أبي سلول، فقد رد الله كيدهم إلى نحورهم، وانكمد ابن سلول غيظاً بحقه، وخاب سعيه وبار، وكتب في سجل الأشقياء والمحرومين، وكانت حادثة الإفك شاهد على فجوره ونفاقه إلى ما شاء الله تعالى.

الصديقة ورخصة التيمم:

من نفحات أم المؤمنين عائشة وبيمنتها وبركاتها أن نزلت بسببها آية التيمم، وهي تشريع الرحمة، ورفع الإصر عن هذه الأمة.

ففي إحدى مغازي رسول الله ﷺ - وربما في غزوة بني المصطلق - خرجت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في هودجها مع نساء المسلمين، حتى إذا كانوا في

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٣ - ٢١٤) وانظر مسلم (٢٤٢٢).

مكان يسمى: البيداء، أو ذات الجيش، أو تربان، انسلت قلادة من عنق عائشة ووقعت، فأقام رسول الله ﷺ على التماسها وأقام الناس معه حتى طلع الفجر، وليس مع القوم ماء، فجاء الناس إلى أبي بكر الصديق ﷺ، فقالوا له: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ، وبالناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ﷺ إلى عائشة، ورسول الله ﷺ واضع رأسه الشريف على فخذها قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟! .

وغدا أبو بكر ﷺ يعاتبها، وجعل يطعن بيده في خاصرتها، ولا يمنعا من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذها، وراح أبو بكر يزيد في عتابها، وقد وصفت السيدة عائشة ذلك فقالت: فلقيت من أبي ما الله به عليم من التعنيف والتأفيف وقال: في كل سفر للمسلمين منك عناء وبلاء، وقال أبي ما شاء الله أن يقول .

نام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، وعندئذ أنزل الله عز وجل الرخصة في التيمم: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ الْمَاءَ فَلَمْ تُجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (النساء: ٤٣) وعندئذ قام المسلمون مع رسول الله ﷺ فتيمّموا، ثم وقفوا خلفه يصلون، وأشرقت نفوسهم بأنوار اليقين، وقضيت الصلاة... فتقدم أسيد بن الحضير الأنصاري ﷺ فقال: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر، لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم .

أما أبو بكر ﷺ فقد تقدم من ابنته عائشة على ما روت فقالت: يقول أبي حين جاء الله من الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر .

وأما عقد عائشة فكما قالت: فبيعنا البعير الذي كنت فيه، فوجدنا العقد تحته (١). وقد اغتبط المسلمون، وفرحوا فرحًا شديدًا بفضل الله عليهم، إذ فرج عنهم ضائقهم ببركة عائشة رضي الله عنها، وجاءها أبوها الصديق وقد رأى غبطة

المسلمين بحفاوة الله تعالى بهم حفاوة عامة فى كل زمان ومكان ببركتها وإكرامًا لها، وإظهارًا لفضلها، وتشريفًا لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلىج بنور المحبة الأبوية: إنك لمباركة ما أكرم تلك القلادة!! القلادة التى قلدت الأمة المحمدية رخصة التيمم والتى فرح المسلمون بنزولها من لدن حكيم مجيد، وما ذاك إلا من يمن عائشة رضى الله عنها، وإشراق روحها، ناهيك بمنزلتها عند الله عز وجل فى علمها وفقهها وعملها وورعها رضى الله عنها وأرضاها.

الصديقة أولى حافظات الحديث:

عندما لحق النبى ﷺ بربه، كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لم تخط إلى التاسعة عشرة، على أنها ملأت أرجاء الأرض علمًا، فهى فى رواية الحديث وحفظه كانت نسيجًا وحدها، ولم يكن بين أصحاب رسول الله ﷺ من كان أروع منها، ومن أبى هريرة رضى الله عنهما، على أن عائشة كانت أدق منه، وأوثق وأضبط.

امتازت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالصدق فى العلم والأمانة فى الرواية، وكانت من أنفذ الناس رأيًا فى أصول الدين، ودقائق الكتاب المبين، وكان كبار الصحابة إذا أشكلت عليهم الفرائض فزعوا إليها، فحسرت حُجُب الإشكال، وكشفت سحباها، وأبانت حقيقتها ومقاصدها.

رزقت عائشة رضى الله عنها حافظة قوية جعلتها واحدًا من المراجع المهمة فى عالم الحديث النبوى الشريف وحده، ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة كفتها وقفًا على الحديث الشريف فحسب، وإنما بلغت السما فى رواية الشعر، ومعرفة الأدب، والتاريخ، وكذلك كان نفاذها فى الطب، وعلم الأنساب، وما إلى ذلك، فهذا عروة بن الزبير فقيه المدينة المنورة، وأحد علمائها الأفاضل الذى يقصد من كل فجٍ عميق يقول: ما رأيت أحدًا أعلم بفقهِ ولا بطبِّ ولا بشعر من عائشة .

أن نظرة واحدة إلى مسند عائشة رضى الله عنها نعرف إلى أى مدى بلغت من الإحاطة بالعلم، بل بحوادث الأمم ومشكلات التاريخ، ودقائق الأحكام، ورقائق العبادات.

وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تحسن أن تقرأ، ولكن لا تكتب، ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يعرف القراءة والكتابة كان يدعى الكامل .

ومن الإنصاف أن نقول: كانت أزواج النبي الطاهرات جميعاً رضى الله عنهن قسيمات عائشة فى إذاعة العلم، وإفاضة الدين، وتعليم الفقه، ورواية حديث النبي ﷺ على المسلمين، وعلى طلاب العلم، وشداته من أصقاع المعمورة روت أمنا عائشة رضى الله عنها عن النبي الكريم ﷺ علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ووعت كل كلمة قالها النبي ﷺ وحفظتها حفظ من يتبرك بها، ولا يغفل عنها، وكانت من أكثر الصحابة حفظاً وفتياً.

ولم تقف عائشة فى العلم عند هذا فحسب، وإنما روت كذلك عن أبيها سيدنا أبى بكر الصديق، وعن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبى وقاص، وحمزة بن عمرو الأسلمى، رضى الله عنهم: وقد روت عن النساء أيضاً، فروت عن سيدة النساء فاطمة الزهراء، وعن جذامة بنت وهب رضى الله عنهما.

روى عن عائشة طائفة كبيرة من الصحابة الكرام رجالاً ونساء.

روى عنها عدد من جلة التابعين من الرجال منهم: عروة بن الزبير، وعامر الشعبى، وعطاء بن أبى رباح، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وغيرهم كثيرون جداً لا يحصون.

ويبدو أن النساء اللاتى روين عن أم المؤمنين عائشة لم يكن أقل حظاً من الرجال، وقد أثيرن عصر التابعين فى نقل ما سمعوه عن سيدة النساء الصادقات، وسيدة البيت النبوى بلا منازع، وسيدة العالمات الحافظات للقائات العابدات السانحات.

أقول: تصدت نساء العصر النبوى ونساء عصر التابعين لفنون العلم، وخصوصاً رواية الحديث النبوى الشريف، وأمعن فى ذلك إمعاناً حلقن فيه فى مواطن، وكان لهن مظهر خلقى كريم فى العلم والتعليم».

نستطيع الآن أن نورد أسماء بعض العالمات الفقيهات اللاتي روين عن أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها، وممن تركز أنصع الآثار العلمية في تاريخها المونق المعطاء، أذكر منهم:

زينب بنت أبي سلمة المخزومية الصحابية المعروفة، وخيرة أم الحسن البصرى، وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وصفية بنت أبي عبيد، وعائشة بنت طلحة التيمية، وعمرة بنت عبد الرحمن، ومعاذة العدوية، وأم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة لأبيها، ونهية مولاة سيدنا أبي بكر الصديق، وجسرة بنت دجاجة، وذفرة بنت غالب، وزينب بنت نصر، وزينب السهية، وسمية البصرية، وشميسة العنكية، وصفية بنت شيبية، وغيرهم كثيرات.

ويدل هذا على سعة علم عائشة رضی الله عنها التي انتزعت إعجاب علماء التابعين، لما حباها الله من فضله في مجال العلم، وقد بلغ ما روته الصديقة عائشة رضی الله عنها من الأحاديث الشريفة ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، وهو أكبر عدد ترويه امرأة عن رسول الله ﷺ، وهي معدودة من الصحابة السبعة الذين بلغت مروياتهم أكثر من ألف حديث نبوى شريف، وهم: أبو هريرة، عبد الله بن عمر بن الخطاب، أنس بن مالك، عائشة بنت أبي بكر، عبد الله بن عباس، جابر بن عبد الله الأنصارى، وأبو سعيد الخدرى واسمه سعد بن مالك رضی الله عنهم .

وقد أغرم أحد الشعراء بهؤلاء الحفاظ الأعلام من الصحابة فضاغهم شعراً ونظمهم بقوله:

سبع من الصحب قبل الألف قد نقلوا من الحديث عن المختار خير مُضَر
أبو هريرة سعد جابر أنس صديقة وابن عباس كذا ابن عمر
إن مرويات السيدة عائشة رضی الله عنها منثورة في كتب الصحيح، وفي السنن، والمسانيد، وقد اتفق لها الشيخان البخارى ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثاً، انفرد البخارى بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين.

ومما أخرجه البخارى ومسلم وابو داود وغيرهم لأمنا عائشة رضى الله عنها ما رواه القاسم بن محمد عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردٌّ (١).

إن نظرة واحدة فى كتب الحديث، ندرك من خلالها مدى علم أم المؤمنين عائشة، فهى معلمة العلماء، وسيدة المفسرين، وأستاذة المحدثين، وفقية نساء الأمة على الإطلاق، ناهيك بمعارفها وآدابها المنثورة فى ثنايا المصادر، تلك التى تشهد لها بعلو مقامها، ونفاذ رأيها، وروائع كلماتها المستمدة من فيض نور النبوة.

وبالإضافة إلى تلك المزايا الرفيعة فى شخصية أمنا عائشة رضى الله عنها، فقد كانت من الصحابة المكثرين فى الفتيا، الذين يرجع إليهم فى كل ما يتعلق بأحكام الشريعة.

والمكثرون من الصحابة فيما روى عنهم من الفتيا سبعة وهم: عائشة أم المؤمنين، عمر بن الخطاب، ابنه عبد الله بن عمر، على بن أبى طالب، عبد الله بن عباس، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت رضى الله عنهم .

وفى كتابه الممتع أنساب الأشراف أخرج البلاذرى رحمه الله بسنده عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: كانت عائشة قد اشتغلت بالفتوى فى خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان وهلم جرا إلى أن ماتت وكانت ملازمة لها .

الصديقة وثناء الأكابر عليها:

خص الله عز وجل أمنا عائشة رضى الله عنها بفضائل حسان ومناقب جسام، جعلت كثيرًا من أفذاذ العلماء، وكبار الزهاد، وأصفياء العباد، يفصحون بأدق المديح، وأخص الثناء لها، وتبارى الأعلام فى ذلك، فأدلوا دلاءهم فى مضمار الثناء والامتداح، لمن خصها البارى عز وجل بشهادة الطهر والبراءة من فوق سبعة أرقعة، وليس بعد هذا الثناء ثناء.

(١) رواه البخارى (٢٦٩٧) مسلم (١٧١٨) وأبو داود (٤٦٠٦) وابن ماجه (١٤) أحمد (٦/ ٢٧٠).

تبارى العلماء والكتاب فى نشر فضائل عائشة رضى الله عنها فى مجالسهم، وسجلوها فى مصنفاتهم، لتبقى قدوة للمؤمنات إلى ما شاء الله، ولا أجد فى هذا المجال أجمع وأوجز من ثناء ابن أختها عروة بن الزبير رحمه الله إذ قال: صحبت عائشة، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا بطب منها، فقلت لها: يا خالة: الطب من أين عَلمتِ به؟ فقالت: كنت أمرض فينعت لى الشيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه (١) قال عروة: فلقد ذهب عامة علمها لم أسأل عنه .

وقال عروة أيضاً: لو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك، لكفى بها فضلاً، وعلو مجد، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة (٢).

ولعل الإمام مسروق بن الأجدع رحمه الله من أكثر الذين رواوا عن أم المؤمنين عائشة، ونهلوا من معين علمها، ولذلك سئل مسروق: هل كانت عائشة تحسن الفرائض؟ فقال مسروق: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض (٣) وفى رواية: رأيت مشيخة الصحابة يسألونها عن الفرائض وقال أبو بردة بن أبى موسى عن أبيه أبى موسى الأشعري قال: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط، فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها منه علماً (٤).

وقال الإمام الزهري رحمه الله: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل (٥).

(١) سير أعلام النبلاء (١٨٣/٢) وحلية الأولياء (٤٩/٢).

(٢) أسد الغابة (١٩١/٦).

(٣) رواه الدارمى (٣٤٢/٢، ٣٤٣).

(٤) رواه الترمذى (٣٩٧٠).

(٥) المستدرک (١١/٤).

أما عطاء بن أبي رباح وهو ممن روى عن عائشة وهو من جلة التابعين وأكابرهم، فقد أثنى على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها باوجز لفظ، وأجمعه، فقال: كانت عائشة أفتح الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة^(١).

الصديقة والفضائل الكريمة:

لا يستطيع الباحث أن يحصى فضائل أم المؤمنين عائشة ومناقبها بين دفتي الكتاب، ولكننا نورد زهراً من رياض حبيبة الحبيب محمد ﷺ، ونعرض بعض مناقبها التي تعلق كالأنجم في السماء الصافية.

ففي مجال الزهد: كانت أم المؤمنين عائشة من أشد الناس زهداً في الدنيا، وبلغت ذروة الزهد بإعراضها عن متاع الدنيا، على الرغم من السعة التي أوسع الله على المسلمين، ولكن كانت كما وصفها أبو نعيم رحمه الله في حليته فقال: كانت للدنيا فالية، وعن سرورها لاهية، وعن فقد أليفها باكية^(٢).

وقصص زهد عائشة رضى الله عنها لا تملها الأسماع، على الرغم من كثرتها، ولكنها توقظ الهمم في النفوس، وتأخذ بمجامع القلوب إلى عين الحياة الحقيقية التي ترنو إليها عائشة رضى الله عنها ألا وهي الدار الآخرة، فكانت تريدها وتسعى لها سعيها، وهي مشافة إليها حتى تلتقى رسول الله ﷺ عند ملك مقدر...

إذا ما فتحنا باب الجود، وخضنا بحره، وجدنا عائشة لجتة المعروف، وجودها ليس له قرار، إذ بلغت في السخاء مبلغاً لفت إليها الأنظار، من ذلك ما ذكره عروة بن الزبير قال: لقد رأيت عائشة رضى الله تعالى عنها تقسم سبعين ألفاً، وإنها لترقع جيب درعها^(٣).

وذكر عروة أيضاً زهد خالته وجودها فقال: بعث معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما مرة إلى عائشة بمائة ألف درهم، فوالله ما أمست حتى فرقتها، فقالت لها

(١) تاريخ الإسلام للذهبي وأسد الغابة (٦/ ١٩١).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٤٤).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٧).

مولاتها: لو اشتريت لنا من هذه الدراهم بدرهم لحماً؟ فقالت عائشة رضی الله عنها: ألا قلت لي؟ وكانت عائشة يومذاك صائمة فأكرم بعودها وزهدا!!
 والله در الإمام الذهبي إذ قال عن أمنا عائشة: كانت أم المؤمنين من أكرم أهل زمانها، ولها في السخاء أخبار (١).

أما عبادة أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها، فكانت شيئاً مذكوراً يستحق التسجيل والذاكرة والتذكير، فقد نشأت في البيت النبوي الكريم الطاهر، وشهدت أعظم آيات النبوة، وآيات الوحي، فتأثرت كثيراً بعبادة النبي ﷺ ومنهجه فيها، وراحت تقتفي أثره الشريف في ذلك حتى غدت المرجع المهم، في هذا المضمار المبارك، ويبدو أنها كانت تقوم الليل، وتصوم الدهر، حتى شُغِفَتْ بهما...

روى أنها كانت تصوم الدهر، وتحب الاعتماد، والحج، ولها في ذلك أخبار كثيرة، وحجتها في ذلك قول رسول الله ﷺ عندما سألته: يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ قال: نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة رواه ابن ماجه.
 ولعل لأم المؤمنين عائشة رضی الله عنها فضيلة باهرة، لم تلحقها بها واحدة من نساء أهل البيت، وهي أنها تلقت السلام من جبريل ﷺ، فقد جاء في الصحيح أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: يا عائش هذا جبريل وهو يقرأ عليك السلام قالت: وعليه السلام ورحمه الله ترى ما لا نرى يا رسول الله (٢).

وهذا مما حدا بأبي نعيم الأصبهاني لأن يقول في مطلع ترجمة أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها في حليته: الصديقة بنت الصديق، العتيقة بنت العتيق، حبيبة الحبيب، وأليفة القريب، سيد المرسلين محمد ﷺ، المبرأة من العيوب، عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها (٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٣٧٦) مسلم (٢٤٤٧).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٣).

ولو رحنا نتتبع مناقب الصديقة بنت الصديق وفضائلها لحصلنا على مجلدات كثيرة، ولكنه يكفيها من الفضل يكفيها، أن رسول الله ﷺ قال فيها: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (١).

ولعل من أعظم المكرمات التي حظيت بها عائشة أن صارت حجرتها المباركة الميمونة مثوى الحبيب الأعظم محمد ﷺ، تزار من كل فج عميق، وتقف مسلمة على النبي ﷺ وصاحبيه، ولقد رأت عائشة ذلك الفضل من قبل، فقد قالت لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما: رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجري، فقال لها: إن صدقت رؤياك دفن في بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض، فلما دفن النبي ﷺ، قال أبو بكر هذا أحد أقمارك، وهو خيرها .

ثم دفن القمر الثاني فكان أبو بكر نفسه، ثم دفن القمر الثالث، فكان عمر ؓ، وبهذا تم تأويل رؤيا عائشة من قبل وقد جعلها الله حقاً.

وقد نظم عبد الرحيم العراقي الشافعي في ألفية السيرة النبوية حلم أم المؤمنين عائشة فقال:

وفسر الصديق للصديقة	منامها إن سقطت في الحجرة
حجرتها ثلاثة أقمارا	ها خير أقمارك حل الدارا
صلى عليه ربنا وسلمنا	وصاحبيه نُعْمًا وأنعْمًا
هما الضجيعان من الأعمار	قد جاورا في اللحد خير جار

الصديقة والأدب:

لئن حلقت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عاليًا في سماء العلم ورواية الحديث، وفي الزهد والورع، وفي الفقه والعبادة، لقد حلقت في سماوات البلاغة والفصاحة، وبلغت ما لم تبلغه امرأة قط في عصر النبوة ولا في عصور بعدها.

(١) رواه البخاري (٣٧٦٢) ومسلم (٢٤٤٦).

وقد شهد بكمال وجمال فصاحة أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها الإمام الذهبي رحمه الله فقال: ولها حظ وافر من الفصاحة والبلاغة، مع ما لها من المناقب رضی الله عنها .

ولا شك في أن أمنا عائشة عليها سحائب الرضوان، قد أسست على أساس متين من الفصاحة في بيت الصديق، فقد كان أبو بكر ﷺ معروفاً بفصاحته ومعرفته الأنساب وأيام العرب، ثم انتقلت من بيت أبيها إلى كنف الرسول ﷺ، فغدت تتأدب بأدبه، وترد موارد البيان القرآني، تنهل منه، وتعبُّ عباً حتى أضحت كلماتها كأنها فيض من نور النبوة، فلا تكاد تقف على كلامها إلا تملكك العجب بفصاحة معانيها، واستولى عليك الإعجاب بروعة بيانها، ولا أدل على ذلك من روايتها حديث الإفك الذي مر معنا بعض منه، فإنه قطعة أدبية نادرة في دنيا الأدب وعالم البلاغة والبيان والتبيين...

كانت بلاغة عائشة رضی الله عنها مضرب المثل في عصر النبوة وصدر الإسلام وفصائحهم، فهذا معاوية بن أبي سفيان رضی الله عنهما وهو من بلغاء الصحابة ومن فصحاء البلغاء يشهد بفصاحة عائشة فيقول: والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة، ليس رسول الله ﷺ .

وقال موسى بن طلحة رحمه الله: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة أما الأحنف ابن قيس — وما أدراك ما الأحنف — فقد شهد لعائشة — وهو الفصيح الذي ضرب المثل بفصاحته وحلمه — بالبلاغة وحسن الخطاب فقال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من عائشة رضی الله عنها .

وقد عززت أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها أدبها بحفظ الشعر ونوادره البلاغية، روى ابن سعد في طبقاته عن عروة بن الزبير قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً وأكثر .

وتتحفنا أم المؤمنين عائشة نفسها بهذا الخبر الجميل فتقول: رويت للبيد بن أبي ربيعة نحواً من ألف بيت .

ولبيد هذا واحد من الشعراء المخضرمين، فكيف بغيره من فطاحل الشعراء الذين ملئوا الدنيا وشغلوا الناس؟! ولهذا كان الإمام عامر الشعبي رحمه الله وهو تابعي جليل وثقة فقيه يذكر أم المؤمنين عائشة، ويتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول بعد أن ينتهي من حديثه عنها: ما ظنكم بأدب النبوة؟! .

ولأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها نظرة علمية ثابتة في تلقين الأولاد، وتنمية ملكاتهم في مجال العلم، وفهم منابع الأدب، وعيون الشعر، فكانت توصي دائماً بتعليم الأولاد الشعر، لما له من صقل للمواهب والطباع وحسن النطق فكانت تقول: رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

والشعر مكان أثير عند أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، فلا تكاد تمر حادثة الإفك إلا أنشدت فيها ما يلائمها، قال عروة بن الزبير: ما كان ينزل بعائشة شيء إلا أنشدت فيه شعراً .

ولعل أدب أم المؤمنين عائشة وبلاغتها له رافد أيضاً من خطب ووفود العرب وإنشادهم الشعر، فقد كانت حجرتها ملاصقة للمسجد النبوي الذي تأتيه الوفود من كل مكان، فسمع ما تجود به قرائحهم، وتعي أحاديث رسول الله ﷺ لهم، وخطبه فيهم، فلا عجب أن تحوز قصب السبق في ميدان البلاغة والفصاحة، ولهذا لم يجد زياد بن أبيه حرجاً في الإفصاح عن رأيه بأفصح الناس، عندما سأله معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما وعزم عليه بقوله: أى الناس أبلغ يا زياد؟ قال زياد: أما إذا عزمت علىّ يا أمير المؤمنين فعائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين رضى الله عنها فقال معاوية ﷺ معلقاً وموثقاً قول زياد: إى والله ما فتحت باباً من أبواب العلم تريد أن تغلقه إلا أغلقته، ولا أغلقت باباً تريد أن تفتحه إلا فتحته .

والحقيقة، فهذه ذروة البلاغة البيانية في مقدرة عائشة رضى الله عنها على صوغ الكلام المفيد والمعاني الرائقة والألفاظ الموحية الموثقة، فكان مقاليد البلاغة قد ذلت لها لكى تجود بأنفس الكلام، وأجود المباني الكلامية، وأحلى المعاني، وأعلى أنواع البيان، فلم يؤثر عنها أنها لحننت في شيء من كلامها قط، بل كانت تزجر بشدة من يقع في

اللحن والخطأ، وترشده إلى سلامة الألفاظ، وارتقاء المعانى وكمال البلاغة والفصاحة...

الصديقة وأثارة من أقوالها:

أذا نظرنا إلى الأقوال الماثورة التي حفظت عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ألفينا أنها ذات سحر بياني أسر لمجامع القلوب والنفوس، وقد غدت عائشة ملكاتها الأدبية من المائدة القرآنية، تلك المائدة التي لا تنفد، ولا ينضب معينها الصافي، وعززت عائشة ألبها بأدب النبوة أيضاً، ومن هذه التربة البلاغية الخصبة نجد أن كلمات أم المؤمنين عائشة قد رقت وراقت ورفدت العقول بروائع الأدب والتجارب، من ذلك قولها: **لله درُّ التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء .**

ومن كلماتها الماثورة التي تشير إلى حكمتها وأدبها وحسن نظرتها إلى الأمور قولها: **لا سَهَرَ إلا لثلاثة: مُصلِّ، أو عروس، أو مسافر .**

وفي امتداح الأنصار لم تفتها الكلمات الرقيقة الندية التي تلامس القلوب، فتجعلها تتبض بالدفع والعطاء، كقلوب الأنصار الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة اسمع ما تقوله عنهم: **ما تبالى المرأة إذا نزلت بين بيتين من الأنصار صالحين إلا تنزل من أبويها .**

ومن رفاقها الرائعة التي تصافح الأسماع، فتزرع فيها الإمتاع قولها في طلب الرزق: **التمسوا الرزق في خبايا الأرض .**

ورأت رضى الله عنها رجلاً متماوياً يظهر الزهد والتعبد، فقالت متعجبة: **ما هذا؟ فقالوا: زاهد قالت: قد كان عمر بن الخطاب ؓ زاهداً، وكان إذا قال أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع .**

وتقصد عائشة أن عمر من أئمة الزهد، فلماذا يتظاهر هذا الرجل ويتماوت فى صورة مفتعلة، إن هذا الشيء عجاب!.

وإذا أرادت أم المؤمنين أن تعظ الناس، أتت ببيان مشرق، وكلام بليغ مفيد مقنع، من ذلك قولها تنصح بالمحافظة على الطاعة وعدم اقتراف الذنوب: **إنكم لن تلقوا الله**

عز وجل بشيء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكيف نفسه عن كثرة الذنوب .

والحقيقة، فهذا القول يشير إلى كمال دينها، وورعها، ومعرفتها لحقوق الله عز وجل، ولذلك كانت تقول دائماً وتوصي الناس: من عمل بما يسخط الله عز وجل عاد حامده من الناس له ذاماً .

نعم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل، وعلى هذا الأساس كانت رضى الله عنها تحث الناس على الإكثار من الإحسان، والبعد عن مواطن الشك والتهم والسمعة والقالة، وقد سئلت: متى يكون الرجل مسيئاً؟ فأجابت رضى الله عنها إجابة الواثق العالم: إذا ظن أنه مُحْسِن .

وقد حفظت لنا أمهات المصادر، ما تركته أم المؤمنين من نفائس الأقوال فى شتى المجالات، ونزين ختام هذه الفقرة ببعض تلكم النفائس:

قالت: يا بنى، لا تطلبوا ما عند الله من غير عند الله، بما يسخط الله .

وقالت: خلال المكارم عشر، تكون فى الرجل، ولا تكون فى أبيه ولا فى ابنه، وقد تكون فى العبد، ولا تكون فى سيده، يقسمها الله لمن أحب: صدق الحديث، ومداراة الناس، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذم للجار، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وقرى الضيف، والوفاء بالعهد، ورأسهن كلهن الحياء .

ومن نفيس قولها فى معالى المكارم: رأس مكارم الأخلاق الحياء .

ولها فى الألفة والإيلاف قولها: جُبِلَتِ القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها .

ومن روائع أقوالها: إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها، فأف للجناء، فأف للجناء .

وفى صدق الطاعة تقول: من أَرْضَى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أَرْضَى الناس بإسخاط الله، وكلُّه الله إلى الناس .

ومن بدائع أقوالها فى الناس ومعرفة كنههم ما كانت تقول: كل شرف دونه لؤم،

فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه شرف، فالشرف أولى به .

الصديقة وبنات حواء:

للمرأة نصيب كبير عند أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها، إذ أنها لم تترك باباً من الأبواب المفيدة إلا طرفته، وأبدعت فيه، وفي ثنايا حياة أمتنا عائشة نلمح عنايتها بالمرأة في مراحل حياتها، فهناك عناية بالفتيات، وعناية بالنساء المتزوجات، كما نلمح توجيهاتها لكل فئات النساء في كل الأعمار، وهذا إذا دل على شيء فإنما يدل على أن أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها تريد من المرأة أن تكون مفتاح خير في مسارات الحياة ومسارها، وعوناً للرجل على المضى في طاعة الرحمن، ليصلان إلى الجنة التي أوعدها الله بها عباده المتقين...

إننا نلمح أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها تتصح الرجال أولاً في حسن اختيار المرأة، والبحث عن فضائلها قبل الإقدام على الزواج، كما تتصح الآباء في البحث أيضاً عن الزوج الوفي الكريم الكفاء، وفي هذا المجال تقول: النكاح رَقٌّ فليُنظر أحدكم عند من يُرق كريمة .

وتوصى كذلك الآباء والأمهات بمراعاة شعور الفتيات الصغيرات فتقول: اقدرُوا قدرَ الجارية الحديثة السن التي تسمع اللهو .

كانت عائشة رضی الله عنها تتصح النساء المتزوجات أن يأخذن شيئاً من الزينة لأزواجهن، وسُمِعَتْ تقول لإحدهن: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك، فتصنعينها أحسن مما هما فافعلی وكانت ترشد النساء إلى ألوان الطيب، فهذه إحدى النسوة تدخل عليها وتسالها عن الحناء، فتجيبها عائشة رضی الله عنها إجابة رائعة: شجرة طيبة، وماء طهور .

لم تنطق عائشة رضی الله عنها بنصائحها هذه عن عبث، بل كانت هي نفسها قدوة صالحة للمرأة المثالية التي عناها رسول الله ﷺ بقوله: الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها ومالها .

ولكى تدوم المودة بين الرجل والمرأة، كانت عائشة تنادي بنات حواء إلى إيجاد المودة، وإلى زرعها في قلب بيوتهن، تقول في المجال: أميطي عنك الأذى وتصنعی

لزوجك كما تصنعين للزيارة، وإذا أمرك فلتطيعيه وإذا أقسم عليك فأبريه، ولا تأذنى فى بيته لمن يكره .

وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تكره أن ترى المرأة بلا عمل، بل كانت تحضُّ النساء أن يقمن بأعمال تعود عليهن بالخير والبركة والنماء، فتراها تلتفت نظر بنات حواء إلى الاهتمام ببعض شئون الحياة حتى يساعدن أزواجهن فى التغلب على مصاعب الحياة، وهاك قولها فى هذا: المغزل بيد امرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله .

فهذه لفظة عائشية طريفة للنساء، كى يشغلن أنفسهن بما يعود بكبير النفع عليهن وعلى أولادهن وبيوتهن، وكانت تزرع الحماس والأمل والرجاء والثواب فى نفوس النساء اللاتى يعملن لأنفسهن ولأزواجهن ولأولادهن، فمما يروى عنها رضى الله عنها فى هذا المضممار، أنها رأت أثر المغزل فى يد امرأة فقالت لها عائشة رضى الله عنها: أبشرى بما لك عند الله عز وجل، لو رأيتن بعض ما أعد الله لكن معاشر النساء لما أقررتن ليلاً ولا نهاراً، أما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها، إلا أعطاه الله عز وجل بيتاً فى الجنة، وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء!!!... أبشرن معاشر النساء بما لكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن أنتن المسكينات فى الدنيا، والسابقات إلى الجنة مع الصالحات، يغفر الله لكن كل ذنب عملتن ما خلا الكبائر .

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن أفضل النساء فأجابت: هى التى لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدى لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعولها، والإبقاء فى الصيانة على أهلها .

الصديقة ورحلة الخلود:

امتدت الحياة بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بعد وفاة رسول الله ﷺ، قرابة نصف قرنٍ من الزمن، امتلأت فيها الدنيا علماً ودينياً وأدباً ومعرفة، وكانت حجرتها قبلة قصاد العلم، ومحبى الفقه والمعرفة، يقصدون نبع العلم عندها، ويروون منه تعطشهم إليه، فكانت رضى الله عنها موسوعة علمية ودينية لمن أراد المعارف، فقد

احتاج إليها خاص الأمة وعامتها، فكانت تهدي الحائر، وتعلم الجاهل، وترشد الطالب إلى الفضائل، وتشد أزر العالم، وظل الناس على اختلاف طبقاتهم — الخلفاء الراشدون، فمن دونهم — يقبلون ليأخذوا المعرفة عنها، ويزورون النبي ﷺ الذي كان مرقد الشريف في حجرتها، فأضحت حجرتها مقصد المشتاقين، وروضة المحبين، وموئل العارفين، ومعقد رجاء المؤمنين، ومجمع الأبرار المخلصين...

وفى شهر رمضان من السنة السابعة والخمسين للهجرة وقيل ثمان وخمسين، ألم المرض بأم المؤمنين عائشة رضی الله عنها، وكانت وصيتها أن تدفن بالبقيع مع أمهات المؤمنين وأهل بيت رسول الله ﷺ.

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضی الله عنها قالت له: إذا أنا مت فادفني مع صواحيبي في البقيع وكان في بيتها موضع، وقالت: لا أرى به أبدًا وفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، توفيت أم المؤمنين عائشة، وصعدت روحها إلى ربها راضية مرضية، ولما سمعت أم المؤمنين أم سلمة الصرخة على عائشة قالت: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها .

ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر وهي يومئذ ابنة ست وستين سنة وقدم أبو هريرة رضي الله عنه عليها، فاجتمع الناس، ونزل أهل العوالي، وحضروا جنازتها، فلم تر ليلة أكثر ناسًا منها.

ومن الجدير بالذكر، أنه نزل خمسة من محارمها في قبرها وهم: عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، والقاسم بن محمد، وعبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام، ولما توفى رسول الله ﷺ كان عمر عائشة ثمان عشرة سنة.

وفى البقيع، يثوى جثمان أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها إحدى نساء أهل البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، وإحدى نساء الدنيا فضلًا وعلما وجودًا وسخاء وحسبًا ونسبًا...

وقبل أن نقول وداعًا، فلا يحسبن الذين يقرءون سيرة أمنا عائشة أنا أحطنا بسيرتها خُبْرًا، فذلك ما لا يقدر عليه، ولكننا حاولنا أن نبرز دورها العلمي في مجال

نساء أهل البيت النبوى الطاهر الكريم، وإبراز شخصيتها الأدبية والاجتماعية لتكون
لنساتنا أسوة حسنة يقتدى بها، نرجو الله عز وجل أن يوفقنا لما فيه الخير والسادات فى
أقوالنا وأعمالنا، وأن يلهمنا أن نتبع نهج أهل البيت وهدبهم، وأن يحشرنا فى معيتهم
وأن يعفو عنا، ويعتق رقابنا من النار، إنه سميع بصير غفار.

أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضی الله عنها

صوامة، قوامة، تقية، نقيه، من أهل الجنة.
تلميذة نجبية في مدرسة نساء أهل البيت، وقد روى عنها ستون حديثاً.
فقيهة عالمة من عالمات نساء النبي ﷺ.
كانت من الكاتبات، وكانت حارسة للقرآن الكريم، ولها أثر كريم في جمع القرآن العظيم.

فضائلها كثيرة ومناقبها جمة وتوفيت بالمدينة سنة (٥٤هـ).

أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضی الله عنها

طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ:

هل نستطيع أن نهمس في أذن الجوزاء لنقول: «إن سيدتنا اليوم تنتظم في عقد أهل البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً؟»
ومن تكون أمنا هذه التي نرصد كتابنا بذكرها ونمتع الأسماع بسيرتها وسيرة من انتظمن في العقد الفريد... العقد النبوي تحت ظلال بيت النبي ﷺ الشريف؟
قبل أن نفتح عن شيء من سيرتها، لا بد لنا أن نعرف أن أباه معروف بطيب عرف عُودِهِ، ثابت الأصول في الحسب والنسب، معروف عند الخاص والعام... ومن منا لا يعرف الذي لا تطيب المجالس إلا بذكره؟ ولا تحسن السير إلا بصحبته؟
ذلكم هو عمر بن الخطاب ؓ، والد أمنا اليوم، ومن نعيش أرغد اللحظات في استجلاء سيرة حياتها، وحياء أهل البيت النبوي الكرماء، فما أمتع اللحظات التي نقضيها مع سير أعلام النبلاء!!! مع سيرة أم من أمهات المؤمنين رضی الله عنهن أجمعين.

هذه الكريمة ابنة الكريم، النبيلة ابنة النبيل، اختصتها أم المؤمنين عائشة بقولها: «هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ»^(١) ولم تكن أم المؤمنين عائشة لتخلع هذا الثناء عليها من أجل الثناء فحسب، بل لأنها كانت من النسوة اللاتى ذهب الدهر بمقالاتهن، وعرف مقاماتهن فضلاً وديناً وصيانة وورعاً، عندما بدأ الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله فى ترجمتها، قدم لها بقوله: «الصوامة القوامة المزرية بنفسها اللوامة، وارثة الصحيفة الجامعة للكتاب»^(٢).

وهل هناك منزلة أرفع فى العبادة من الصلاة والصيام؟! وهاتان الصفتان من أخص صفات أمتنا فى هذه الصفحات.

إذن فحديثنا سيكون عن واحدةٍ ممن شملتهن العناية الإلهية، فارتقين إلى سدة أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، وهى كما ذكرها الذهبى رحمه الله «حفصة أم المؤمنين، الستر الرفيع بنت أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنها وعنه»^(٣).

وعمر بن الخطاب ؓ هو الرجل الثانى فى الإسلام، والخليفة الثانى، والوزير الثانى بعد سيدنا أبى بكر الصديق رضوان الله عليه:

ومن بعده الفاروق لا تنس فضله	لقد كان للإسلام حصناً مشيداً
لقد فتح الفاروق بالسيف عنوة	جميع بلاد المسلمين ومهدا
وأظهر دين الله بعد خفائه	وأطفأ نار المشركين وأخمدا

أنسام رغبة مع السابقين:

الحياة حلوة رقيقة متدفقة بعبائها مع قصص السابقين الأولين والسابقات إلى دوحة الإيمان الباسقة هؤلاء هم الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله ﷺ، أولئك الذين عمرت قلوبهم بمحبته واتباعه، وعرفوا الله عز وجل عن طريقه فاستضاءت نفوسهم به، واستتارت عقولهم بهديه، وفاعت قلوبهم إلى ذكره آناء الليل وأطراف النهار.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٥٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧ - ٢٣١) الإصابة (٤/ ٢٦٤) الاستيعاب (٤/ ٢٦٨).

فمن هؤلاء الذين سبقوا إلى دوحة الإيمان، حفصة بنت الفاروق عمر رضى الله عنهما، فقد نشأت، ونشأ معها حبها للإسلام، ومنذ أن عرفت الحياة رأت الإسلام يضىء من حولها، ويفيض بأنواره على البيت العُمريّ الذى غدا البيت الثانى الصديقى البكرى بيت أبى بكر الصديق فى أم القرى ومن حولها.

رأت حفصة أباهما وهو يجهر بإسلامه، ورأت أخوالها أبناء مظعون، وهم من سادات الصحابة، كما رأت عمها زيد بن الخطاب أحد فرسان مدرسة النبوة، ورأت عمته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، رأت هؤلاء جميعاً يهتدون بهدى نور النبوة الذى حفهم بسنائه، وأضاء قلوبهم بصفائه، فهانت أمامهم مصاعب الدنيا وزهدوا بزخرفها، لأنهم نظروا فرأوا أن الآخرة خير وأبقى...

تفاعلت حفصة رضى الله عنها مع هذه البيئة النقية الطاهرة، ورأت الفيوضيات الإلهية تكتنف أباهما الذى كان يرى فى ابنته حفصة سرّاً لم يستطع أن يكتشفه وهو فى مكة، فقد كان يشعر نحوها بعطف أبوى دفاف واحترام فائق يحمل بين جوانحه شعور التقدير.

بلغت حفصة سن الزواج، فتقدم لخطبتها أحد أشرف بنى سهم، وهو خنيس بن حذافة السهمى وكان أحد أذذاذ السابقين الأولين إلى الإسلام، أعلن إسلامه مبكراً قبل دخول النبى الكريم ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، وكان إسلامه قد تم على يد شيخ الصحابة وسيدهم: «سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ وحشرنا فى معيته».

تم زواج حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة، وفرح عمر ﷺ بهذا الزواج الميمون، وبهذا الصهر الكريم، وأخذ الزوجان المؤمنان يتابعان حياتهما بصبر وثبات متمسكين بمنهج الدين القويم، ولكن جموع فجار المشركين فى مكة، غصت حلاقيهم وشرقت لإسلام هذه النخبة الممتازة من صفوة المجتمع القرشى ومن شبابهم خاصة، وراحت تصب أذاها وغضبها على كل من تقدر عليه وأخذت تعارض الدعوة بكل سبيل، وإذ ذاك أخذت جموع المسلمين تتوجه نحو الحبشة فراراً بدينهم فى كنف عدل ملكها الذى لا يظلم عنده أحد...

كان خنيسُ بن حذافة في مقدمة المهاجرين إلى الحبشة، وكان في الثلثة التي هاجرت وتركت أرض مكة لتتشر الإسلام في الحبشة، وتتجو من عذاب المشركين، لكن فترة إقامته لم تطل، وهزه الشوق إلى رسول الله ﷺ، وتذكر البيت العتيق، وراحت الذكريات تراود ذهنه صباح مساء، فلم يقو على الصبر والبقاء في أرض الحبشة، فشد رحاله وعاد إلى مكة، ومن ثم جاء الأمر الإلهي بالهجرة إلى عرين الأنصار في المدينة المنورة.

صحب خنيسُ زوجه المؤمنة الصابرة حفصة بنت عمر، وانطلقا مهاجرين إلى المدينة المنورة، وهناك استقبله أحد الأخيار، وهو رفاعة بن عبد المنذر، الذي أكرم مثواه وأحسن نُزُلَه.

ولما تمت هجرة المؤمنين، هاجر النبي ﷺ ولحق بأصحابه في المدينة، وهناك آخى بين أصحابه، وكان أخو خنيس في الإسلام أحد فرسان الأنصار، وأحد الفدائيين الأخيار ويدعى أبو عبس بن جبر الأنصاري.

سر خنيس وأبو عبس بهذه المواخاة، فكلاهما فارس من فرسان المدرسة المحمدية، ومتخرج في مدرستها، وهذا يعد خنيس ؑ من أصحاب الهجرتين: إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة.

زَوْجُ الشَّهِيدِ:

كانت حفصة وخنيس رضى الله عنهما يتلقيان أحكام الإسلام في المدينة المنورة، وينعمان بظله، فحفصة رضى الله عنها قد تابعت حياة العلم، فأخذت تحفظ ما ينزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ، وتعيه، وتفكر في معاني القرآن الكريم تفكيراً رفعا إلى مصاف العابدات العالمات.

أما زوجها خنيس بن حذافة، فقد راح يرقب تحركات المشركين الذين أخذوا يثيرون الشغب على المسلمين، ويعد نفسه ليوم المواجهة مع المشركين، والجهاد في سبيل الله حق جهاده، وأطلت السنة الثانية لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وحن يوم الانتصاف من كفار قريش، فخرج النبي ﷺ في رمضان يعترض قافلة لقريش راجعة من الشام، فيها تجارتهم وأموالهم، لكن القافلة نجت، ورأت قريش أن تتخذ تلك

الحادثة نريفة لاستئصال المسلمين، فراحت تعد العدة لقتال المسلمين في بدر، وأقسم زعيم فجار الكفار أبو جهل بن هشام قائلاً: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجُرُوء، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها».

سار المشركون نحو بدر، وهناك خرج المسلمون بقيادة الحبيب المصطفى ﷺ، وكان من بين جنود الرحمن خنيس بن حذافة زوج حفصة رضى الله عنهما، فقد خرج ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله ﷺ وشاركه شرف الخروج نفر من أهل حفصة وأقربائهم وهم: أبوها عمر بن الخطاب، وعمها زيد بن الخطاب، وأخوالها: عثمان وعبد الله وقدامة بنو مظعون، وابن خالها: السائب بن عثمان بن مظعون، فيكون سبعة رجال من أهل حفصة شاركوا في غزاة بدر، ونظموا في عقد البدريين الذين قيل لهم: «اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»^(١) وكانوا من خيار المسلمين.

وجاهد خنيس ﷺ في معركة بدر حق الجهاد ولم يكن من بنى سهم غيره في فريق المسلمين وقاتل قتالاً شديداً أعاظ به المشركين، إذ خاض في صفوفهم ومزقها، وراح أبطال المسلمين وفيهم فتى الفتيان وفارس الميدان على بن أبى طالب، وفتى قریش وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب، يقاتلون المشركين قتالاً أدخل الرعب في قلوبهم، فخر من هوله صناديدهم بين قتيل وجريح وأسير.

كان خنيس يرى بسالة فرسان المسلمين وشجاعتهم فيزداد اندفاعاً وإقداماً، وشاهد أسد الله وأسد رسوله يمشى إلى الكفار، وقد أطل من حد حسامه المنون، فما أن يرى صناديدهم ريشة النعام التى فى صدره حتى تتخلع قلوبهم، فقد بدأ المعركة بقتل عدد من أسيادهم منهم: عتبة بن ربيعة العشمى، والأسود بن عبد الأسد المخزومى، وعقيل ابن الأسود وغيرهم.

أما خنيس بن حذافة ﷺ فقد راح يقاتل بضراوة وبسالة، حتى أصابته سيوف المشركين فى مواضع من جسمه، وانبعثت الدماء دفاقة من جراحه وهو ثابت ثبات

(١) رواه البخارى (٣٧٦٢).

الرواسي يقاتل مع المسلمين حتى الرمق الأخير، وحتى ولى المشركون الأدياء منهزمين، وهم لا يلوون على شيء، ترهقهم ذلة، وتغشى وجوههم علامات الاضطراب والخوف...

وعندئذٍ وضعت الحرب أوزارها، ولما تغيب شمس ذلك اليوم، وفرح المؤمنون بنصر الله عز وجل، فقد تم القضاء على عتاة الشرك وأئمة الضلال كأبى جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمية بن خلف، وغيرهم ممن لاقوا حتفهم فى بدر، وغرقوا فى طوفان الخزى ولجة النيران تحت التراب، والحجارة، وقذفوا فى قلب بدر جيفاً منتنةً، وتلك نهاية الظالمين وعاقبة المعتدين.

أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام فى بدر، ريثما يسترد المسلمون نشاطهم، وكان النزف قد توقف من جراح خنيس، وها هو ذا يسير فى ركاب رسول الله ﷺ ومن معه تخفق على رعوسهم رايات النصر، وفى المدينة أخذ سهمه من الغنائم، وعاد خنيس إلى زوجه حفصة التى تلقت أبناء النصر الإلهى من قبل، وأتنت على زوجها الذى عاد وأثار الجهاد على جسمه، تشهد له لا عليه، وربما حدثها خنيس عما لاقوه من العناية الإلهية فى هذه الغزوة المباركة.

نزل القرآن الكريم يشرح خطوات تلك المعركة، وقرأت حفصة سورة الأنفال، ولعلها قد توقفت كثيراً عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ^٤ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ^٥ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٠) وفرحت حفصة بنصر الله، وراحت تعالج جراح زوجها، فقد أخذت تنتفض عليه وتؤثر فى صحته، فلم تمض سوى أيام قلائل حتى أسلم رحه إلى بارئها، ومات خنيس ﷺ متأثراً بجراحاته وكتب فى قائمة الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، ولما علم رسول الله بوفاة خنيس، صلى عليه، وأمر أن يدفن فى البقيع إلى جانب السلف الصالح عثمان بن مظعون خال حفصة رضى الله عنهم أجمعين، حزنت حفصة حزناً شديداً على زوجها خنيس الذى قضى نحبه بعد زواج لم يطل كثيراً، ولكن أمر الله كان قدراً مقدوراً ولا راد لحكمه، فهو العليم الخبير...

أسلمت حفصة أمرها إلى الله عز وجل، واستسلمت لقضائه الذي لا مرد له، وانصرفت لعبادتها وصلتها مع الله عز وجل واستقرت في بيت أبيها محتسبة صابرة، وقد واصلت طاعة الليل بعبادة النهار، لعل الله يجبر كسر قلبها، فقد ترملت وهي في ربيعها الثامن عشر تقريباً.

حَفْصَةُ وَسُنَّةٌ عُمَرِيَّةٌ حَسَنَةٌ:

بقيت حفصة أرملة بضعة أشهر، وكانت بوادر الذكاء ظاهرة على قسامات وجهها، تلفها مسحة من الحزن مرتسمة على محياها وبداية على تصرفاتها، ولم تخف علامات الحزن على العبقري الذكي عمر الذي كان ينظر بعينه اللامحة، ويبصر بنور فراسة المؤمن إلى ما تعانيه حفصة ابنته من ألم وضيق، ولكنه كان يشعر بالسرور يغمر أرجاء نفسه حينما يلحظ تعلقها بالعبادة، وصلتها بالصلاح ومحامد المكارم.

كان الحبيب المصطفى ﷺ يسأل عن أحوال أصحابه، وعن شئونهم، ولا شك في أنه عرف ما حل بحفصة زوج الشهيد خنيس، وابنة صديقة عمر بن الخطاب، وأنها ولا ريب تقضى فترة العدة حداداً على زوجها، وقد رثى لحالها.

ويبدو أن أبا بكر الصديق ؓ، وهو الصديق الصدوق، قد لاحظ أن رسول الله ﷺ يعرض بخطبة حفصة لتدخل رحاب البيت النبوي ولتغدوا إحدى أمهاته اللاتي أذهب الله عنهن الرجس، وأكرهن ومنّ عليهن بالطهارة، لكن سرّاً رسول الله ﷺ سيحفظ في صدر الصديق أبي بكر ولن يطلع عليه أحد من العالمين.

أحب الفاروق عمر أن يسن سنة حسنة في المجتمع الإسلامي، فأخذ يبحث عن منبع السعادة لابنته حفصة بطريقة لعلها تكون جديدة على الصحابة الكرام ولكنها منطقية، فيها نفع الإسلام، وصدق الجنان، وفيها كل معاني الخير والصلاح...

وأخذ الفاروق ؓ يفكر في الطريق الذي تنمر فيه فكرته التي برقت في ذهنه منذ فترة، فوجد أن أقرب الأساليب لتحقيقها أن يفتح أحبابه وأصحابه بما يعتمل في صدره، وبما يجول في خاطره.

نظر عمر ؓ إلى صديقه عثمان بن عفان، فإذا بعثمان يتلوى من الألم والحزن على فراق زوجه رقية ابنة رسول الله ﷺ، وتكاد نفسه تذوب حزناً على موتها، وإن

بين ضلوعه نارًا تتلظى، وفي الحلق جفاف، وفي القلب سهام على رحيل ابنة الحبيب المصطفى ﷺ الوفية الكريمة.

رُفرت على شفاه عمر فكرة أيمسح آلام عثمان بن عفان بأن يعرض عليه ابنته حفصة لتكون زوجة له، وهو يعلم علم اليقين أن حفصة ليست كرقية بنت النبي ﷺ، ولكنه أثر أن يبعد عنه وحشة الوحدة، ولما قويت في ذهنه هذه الفكرة، تعرض لعثمان ﷺ وعرض عليه - بعد أن واساه برقية - وقال له: «إن شئت أنكحتك ابنتي حفصة!».

ويظهر أن عثمان ﷺ قد هزته هذه المفاجأة، ولكنه أجاب عمر إجابة شافية فقال: «سأنظر في أمري».

ولبث عمر بضعة أيام، ثم لقي عثمان ثانية، وذكره بزواج حفصة، فقال عثمان: «دعني يا بن الخطاب، فقد بدا لي أن لا أتزوج في يومي هذا».

وشعر عمر بن الخطاب إذ ذاك بضيق في صدره وحزن في أعماقه، ووجد في نفسه شيئاً من عثمان لأنه رفض ابنته العابدة القانتة، وربما عذر عثمان، فحزنه على زوجه رقية لا يزال يحز بنفسه، ويرسم بقلبه الأسى واللوعة.

مكث عمر أياماً يفكر بمن يعرض عليه ابنته، فإذا به يلتقي الصديق، ومن كان الصديق؟ إنه نعم الصديق، ونعم العون على المصاعب، وربما يجد عنده السعادة لابنته حفصة، فتقدم منه وقال له: «يا أبا بكر، إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر».

وصمت أبو بكر ﷺ بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة رفيقة بعمر، ولكن عمر وجد عليه أكثر من عثمان، وتأثر من موقف هذين الصديقين اللذين أحب أن يكونا عوناً على ما حل به وبابنته، وحسب أنه قد أسدى إليهما معروفًا يزيد من رصيده عندهما.

إلا أن عمر ﷺ لم يتوقف عند ذلك الحد، وأحب أن يبت حزنه إلى حبيبه محمد، وذهب إلى المصطفى ﷺ، وشكى حاله، فقال له رسول الله ﷺ مواسياً متبسمًا: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة (١).

(١) رواه البخارى (٥١٢٢) أحمد (١/ ١٢).

ومضت أيام فإذا النبي يزوج عثمان ابنته أم كلثوم بعد وفاة أختها رقية وبرقت في ذهن عمر فكرة ندية حقاً إن أم كلثوم خير من حفصة!!! ولكن من هو خير من عثمان؟.

وأشرقت في نفس عمر بارقة أمل رفيقة، أياكون الرسول ﷺ خيراً من عثمان؟! ويكون هو هو الذي يشرف حفصة بالزواج!؟.

أتكون حفصة زوجاً له؟ إن رسول الله ﷺ يتزوج بوحى إلهي وهو والله خير من عثمان ومن عمر وآل عمر.

وجاء ما بنفس عمر، فقد خطب رسول الله ﷺ ابنته حفصة، ثم تزوجها، وارتقت إلى شرف لا يدانيه شرف إذ أضحت من أمهات المؤمنين ونساء أهل البيت الخيرات، وهذا ما جعل عمر رضي الله عنه يسعد بهذا النسب الزاكي وبالْحَسْبِ الطَّاهِرِ الميمون.

وفي هذه الواقعة اللطيفة يقول سعيد بن المسيب رحمه الله - وهو أحد كبار فقهاء التابعين -: «فخار الله لهما جميعاً، كان رسول الله لحفصة خيراً من عثمان وكانت بنت رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من حفصة».

وبرز الصديق أبو بكر رضي الله عنه ليعتذر من عمر قائلاً له: «لا تجد عليّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها، لتزوجتها»^(١).

وعندها ظهر لعمر مقام سيدنا أبي بكر، وأوليته في الوفاء والصدق، وصون سر رسول الله ﷺ، وأدرك الحكمة البلاغية من هذا الزواج الميمون، وحمد الله عز وجل، ولعله هتف قائلاً: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنَّهُ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠).

وظفق عمر رضي الله عنه على الله عز وجل بما هو أهله، ويكثر من الشكر لله، فقد منّ عليه وعلى ابنته بالنبي المصطفى ﷺ، الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأكرمه وابنته، فقد صار ﷺ زوجاً لحفصة العابدة القانتة...

(١) رواه البخاري (٥١٢٢).

كان هذا الزواج المبارك على الراجح سنة ثلاث من الهجرة النبوية وكانت حفصة إذ ذاك قد ختمت العقد الثاني وقاربت العشرين من عمرها.
ومع نهاية هذه الفقرة الجميلة تعالوا نقرأ هذه التغريدة الجميلة التي تحكى القصة الحفصية قصة عرض عمر ابنته على أهل الخير:

عن ابنة الفاروق حفصة فلنكن متحدثين
قد مات عنها زوجها السهمى موت المسلمين
قد كان هذا بعد بدر غزوة النصر المبين
عمر يقول لصحبه عنها كقول الخاطبين
فأتى إلى عثمان يسأله بأسلوب أمين
خذ ابنتى لك زوجة هى من خيار المخلصين
فأجابه عثمان لست لكل أمرى مستبين
ويقول للصدیق هيا فلنكن متصاهرين
إن شئت زوجًا هاك حفصة ذاك إخلاص ودين
فأجابه الصديق بالصمت المحير لا يبين
فأحس عمر بالأسى من صاحبيه لقد أهين
علم النبى بما جرى بين الصحاب المكرمين
فيقول للفاروق قولاً أذهب الحقد الدفين
الحل عندى فاسترح لا لا تكن فى العاتبين
ستكون حفصة زوجتى من أمهات المؤمنين
عثمان يأخذ ابنتى هذا هو رأى الثمين
فأكون صهركما معاً، هذا هو الحل المتين

حفصة والوصية العمرية:

عندما دخلت حفصة البيت النبوى زوجة كريمة لرسول الله ﷺ، عملتُ جهدها لتكسب مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله ﷺ، وبذلت من الرصانة والتقوى وحب المعرفة، ما أحلها محلاً كريماً لدى النبى الكريم ﷺ، فقد كانت فى عصمته

ورعايته، بفيض عليها من عطفه ومودته ما جعلها تخطو في العلم والتقوى خطوات عظيمة جعلت منها تلميذة نبوية نجبية، وكانت حفصة تعمل لتصل إلى درجة الصديقة عائشة في العلم واكتساب رضى النبي الكريم ﷺ.

ظلت وصية عمر ﷺ، ماثلة أمام عيني حفصة بالألا تتراحم الصديقة بنت الصديق في شيء، وحاولت حفصة بوسعها أن تنفذ هذه الوصية بخذافيرها، وكان عمر يتفقد أحوال حفصة من حين لآخر، ويراقب سلوكها في البيت النبوي الطاهر.

كانت حفصة رضوان الله عليها تدرك أنها ليست في درجة عائشة في العلم، وتدرك أن عائشة قد سبقتها إلى قلب النبي ﷺ، وسبقتها بعلمها وفطنتها وإدراكها، ولهذا كله لزمته حفصة الوصية العمرية، وأحبت أن تكون في صف عائشة رضوان الله عليها وفي معيتها.

وفي غضون السنوات القليلة القادمة، وفدت إلى البيت النبوي الطاهر زوجات أخريات، وانتظمن في بيت النبوة إلى جانب حفصة وسودة وعائشة وصرن أمهات للمؤمنين، فلم تبق الأمور على ما كانت عليه، ويبدو أن شيئاً من الغيرة قد تسلفت إلى نفس حفصة، ووجدت فيها بعض الضعف البشري، فكان رسول الله ﷺ يعالج بحكمته تلك الأمور علاجاً رقيقاً رقيقاً كمس الندى للزهر، وكالأم الرعوم لرضيعها الوحيد، حتى لا يتعكر صفو الحياة، وتفسد الحياة الزوجية.

لا تراجعي رسول الله ﷺ:

قلنا: إن عمر ﷺ كان يهتم بأمر النبي الكريم ﷺ، ويعمل على مرضاته بكل سبيل، وكان ينقل شعوره هذا إلى ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها، ولكن حفصة وأمهات المؤمنين عشن في كنف رسول الله ﷺ الذى كان يعاملهن معاملة رقيقة رقيقة رقة النسيم الربيع لم تكن عند أحد من الصحابة الكرام رضى الله عنهم، وربما تعجب أحدهم وتملكه الدهش من تلك المعاملة الندية لأمهات المؤمنين اللواتي يراجعن رسول الله ﷺ أحياناً في بعض الأمور، ويسألنه عن بعض الآيات أو الأحكام أو الأمور الفقهية، وما شابه ذلك، فكان يجيبهن بحكمة تناسب سؤالهن على وجه الاسترشاد والتعليم .

فى مثل هذه الأمور وردت أحداث وأمر فى حياته ﷺ مع زوجاته الطاهرات، ومع أصحابه الكرام، أو من كان يفد عليه، وكانت حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ممن استرشدت الحبيب الأعظم ﷺ فى بشارته الشجريين بالجنة.

أخرج الإمام مسلم رحمه الله بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصارى ؓ قال: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت النبى يقول عند حفصة: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها . قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها.

فقال حفصة: ﴿ وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) فقال النبى ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ نُتَجَّى الَّذِينَ آتَقُوا وَتَدْرُ الْأَطْلَمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾ (مريم: ٧٢)^(١).

والذى يظهر أن هذا الخبر قد انتشر بين نساء المدينة، وعلمت به نساء النبى ﷺ، ونساء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وعرفن ما جرى بين النبى ﷺ وبين حفصة، وكيف أرشدها إلى الفهم السليم الصحيح.

وفى يوم من الأيام، كان عمر بن الخطاب عليه سحائب الرضوان يحادث امرأته بحدِيث فيما بينه وبينها، واعترضت عليه فى أمر من الأمور، فكبر عليه ذلك أن تعترض عليه، ورأى أن هذا التصرف غير عادى، وكاد ينزل غضبه بها لولا أن أخبرته أنها ليست وحدها التى تراجع، وإنما هناك من هى أفضل منها تراجع من هو أفضل منه ابنته حفصة أم المؤمنين...

ويبقى رسول الله سائر يومه غضبان!!!...!!!

كان عمر يسمع كلام امرأته وهو شبه مدهول لما يتلقى، كأنها تحدثه بشيء من الخرافة، قال عمر فى نفسه: أتراجع حفصة رسول الله ﷺ؟ لا أكاد أصدق ما أسمع، نعل فى الأمر شيئاً؟! لم يتوقف عمر بعد أن سمع ما سمع من امرأته، ثم خرج مسرعاً نحو المسجد النبوى الشريف، تم اتجه نحو بيت حفصة أم المؤمنين، فدخل عليها والغضب يبدو فى وجهه، ثم توجه إليها بالسؤال مستفهماً فقال: يا بنية هل صحيح أنك تراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟! .

(١) رواه مسلم (٢٤٩٦) وانظر شرح النووى (٥٨ / ١٦).

فتجيب حفصة إجابة طبيعية: نعم يا أبتِ، والله إنا لنراجعه .

قال عمر: وهل تهجره إحدانك اليوم إلى الليل؟ .

قالت حفصة: نعم يا أبتِ تفعل إحدانا ذلك .

وعندها قال عمر بلهجة صارمة: تعلمين يا حفصة أنى أحذرك عقوبة الله عز وجل، وغضب رسوله، وقد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحدانك أن يغضب الله عليها لغضب رسوله؟! ثم أضاف عمر قائلاً وقد بين لها مكانتها ومكانها في البيت النبوي: يا بنية لا يغرنك هذه - أى عائشة - التى قد أعجبها حسنهما، وحب رسول الله ﷺ إياها، لا تراجعى رسول الله ﷺ وتساليه شيئاً، وسلىنى ما شئت وما بدا لك ثم إن سيدنا عمر ؓ أخبرها بواقعة حالها من البيت النبوي وقال لها: والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقتك .

وصممت حفصة رضى الله عنها، واستجابت لنصيحة والدها، وقد كانت سامعة مطيعة لرسول الله ﷺ، ولكن لم تكن وحدها التى تراجع النبى ﷺ بأدب النبوة، وتؤدى ما عليها تجاه ربها وزوجها رسول الله ﷺ، وتجاه البيت النبوي الطاهر الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً.

حفصة ومارية وتوجيه قرآنى:

لما قدم سيدنا حاطب بن أبى بلتعة من سفارته الموفقة من مصر، كان بصحبته هدايا من المقوقس عظيم القبط، ومن بين الهدايا جاريتان لهما مكان عظيم فى القبط، هاتان الجاريتان هما: مارية وسيرين بنتا شمعون .

وبينما كان حاطب فى طريق عودته إلى المدينة المنورة، عرض الإسلام على مارية القبطية ورغبها فيه، ففتح الله على بصيرتها، ورأت محاسن الإسلام وفضائله، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وأسلمت كذلك أختها سيرين .

وفى المدينة المنورة اتخذ النبى ﷺ مارية سُرّية له، وأنزلها فى بيت لحارثة بن النعمان الأنصارى فكانت مارية على قرب من مسجد النبى ﷺ وقرب دور نسائه الطاهرات رضى الله عنهن .

أعاد وفود مارية القبطية في هدايا المقوقس إلى رسول الله ﷺ، واصطفواؤها لنفسه ذكريات بعيدة، ذكريات ندية عبقة، ترشح برحيق القرآن الكريم، ذكريات إهداء ملك مصر في الماضى البعيد، السيدة هاجر المصرية إلى إبراهيم خليل الرحمن وأبى الأنبياء ﷺ إذ أضحت هاجر أم العرب لما أنجبتا إسماعيل ﷺ أبا العرب، ومن يدرى فلعل مارية هذه تتجب غلامًا زكيًا للحبيب المصطفى ﷺ!؟.

أما نساء النبي ﷺ فقد أخذن يرقبن هذه الوافدة الجديدة الجميلة التي قدمت من مصر، وكانت من أشدهن مراقبة لها: السيدتان عائشة وحفصة رضى الله عنهما، ولما كانت حفصة وعائشة صديقتين لا سر بينهما، فقد راحت كل واحدة منهن تبتث للأخرى قلقها ومخاوفها من مارية التي أخذت جزءًا من اهتمام رسول الله ﷺ بها.

وذاث يوم كان رسول الله ﷺ في بيت أمنا حفصة رضى الله عنها، فاستأذنته حفصة في زيارة أبيها - أو عائشة - فأذن لها، وحدث أن أتت مارية فدخلت بيت حفصة، وأقامت مع النبي ﷺ زمانًا وعادت حفصة من زيارتها فأبصرت مارية في بيتها، فلم تدخل، وجعلت تنتظر خروجها، فلما خرجت، دخلت حفصة على النبي ﷺ وقالت له: لقد رأيت من كان عندك في البيت ثم حملتها الغيرة على البكاء فقالت: يا رسول الله، لقد جنئت إلى بشيء ما جنئت به إلى أحد من نسائك، في يومى، وفي بيتى، وعلى فراشى، والله لقد سببتنى، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك .

ورأى الرسول الكريم ﷺ أن الغيرة ترتسم على وجه حفصة وتحتل صدرها، وأدرك أن هذه الغيرة قد تدفعها إلى إذاعة ما رأت، والتحدث به إلى صديقتها عائشة، أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بما يدفع غيرتها عن مارية، فقال لها: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟.

قالت حفصة: بلى يا رسول الله .

وحلف لها أن مارية عليه حرام إذا هي لم تذكر شيئًا مما رأت، وقال لها: لا تذكرى ذلك لأحدٍ ووعده حفصة أن تفعل ذلك، وألا تتحدث بحديث مارية لكن الغيرة لم تترك حفصة دون أن تحرك مكامن السر فيها، فلم تستطع كتمان ما وعدت، بل

انطلقت إلى صفتها عائشة رضى الله عنهما، وقالت لها: لقد حرم رسول الله ﷺ مارية على نفسه».

ويعتقد أن هذا الأمر لم يقف عند عائشة وحفصة، بل سرعان ما ذاع الخبر بين أزواج النبي ﷺ، ولعلهن جميعاً قد رأين أن مارية قد تبوات مكانة رفيعة عند رسول الله ﷺ، فتابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبي ﷺ على إثر قصة مارية المصرية وعرف رسول الله ﷺ أن حفصة لم تكتم عليه، وأنها أنبأت عائشة بأمر مارية القبطية، فلما أخبرها ببعض ما أسرته لعائشة تعجبت وقالت: من أنباك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير .

حفصة وتربية نبوية:

عندما علمت نساء النبي ﷺ خبر حفصة ومارية، رحن يخضن في الحديث، ولجت بهن الغيرة أعظم لجاج، فكان لا بد لحفصة وضرائرها من درس نبوى فيه حزم، وفيه شدة، إلى أن تعود الأمور إلى نصابها، فأقسم ألا يجتمع بنسائه شهراً كاملاً. وصعدَ الحبيب المصطفى ﷺ إلى مشربة لن يرقى إليها بدرج، وينحدر منها عليه، وغلّام له يقال له رباح قد وقف على باب الغرفة.

ظل النبي الكريم ﷺ بعيداً عن نسائه شهراً كاملاً، لا يكلم أحداً في شأنهن، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أن يفتحه في حديثهن، حتى سرى الهمس بين المسلمين أن النبي ﷺ مطلق أزواجه، بل لقد قيل: إن النبي ﷺ طلق حفصة بنت عمر بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه (١).

فى تلك الفترة، كانت أزواج النبي ﷺ مضطربات ناديات، وخصوصاً حفصة، فقد دفعتها الغيرة إلى إفشاء سر الزوج الرفيق بها وبنسائه...

وفى اليوم الذى أوفى رسول الله ﷺ الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه، أقام المسلمون بالمسجد مطرقتين ينكتون الحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه ويأسون لذلك أسى يبدو على وجوههم، قام عمر بن الخطاب من بينهم، ودخل على ابنته حفصة وهى تبكى، فقال: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ .

(١) رواه أبو داود (٢٢٨٣) ابن ماجه (٢٠١٦).

فقال: لا أدري، هو ذا قد اعتزلنا في المشربة .

فقام عمر وقصد النبي ﷺ في غرفته، ونادى غلامه رباحًا ليستأذن على رسول الله ﷺ.

انتظر عمر رضى الله عنها، ونظر إلى رباح يرومُ الجواب، فإذا رباح صامت لا يقول شيئاً، إشارة إلى أن رسول الله ﷺ لم يأذن، فكرر عمر النداء، ولكن رباحاً لم يجب مرة أخرى، وألح عمر بالإذن مراراً، ولم يأت رباح بجواب، وعندئذ رفع عمر صوته قائلاً: يا رباح استئذن لى عندك على رسول الله ﷺ فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أنى جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرنى رسول الله ﷺ بضرب عنقها، لأضربن عنقها... .

وساعتئذ قال رباح لعمر: ادخل فقد أذن لك .

فدخل عمر بن الخطاب ؓ، وسلم على رسول الله ﷺ، ثم أجال عمر بصره فيما حوله، فرأى حصيراً قد أثر فى جنب النبي ﷺ والغرفة لا شىء فيها إلا قبضة من شعير، وجلد معلق، فتأثر لما رأى وبكى، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟
فذكر له عمر السبب وقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر، فيما فيه من النعيم وأنت رسول الله!...!...!

ولما ذكر عمر ما أبكاه وأشجاه، أحب الحبيب المصطفى ﷺ أن يرده إلى طمأنينة الإسلام وجادة الصواب، وقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟! ثم علمه حقيقة الإعراض عن الدنيا، وأن الآخرة خير وأبقى، فقال: أوفى شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طبيباتهم فى الحياة الدنيا فقالت عمر: أستغفر الله يا رسول الله (١).

ثم إن عمر ؓ، قال لرسول الله ﷺ مخففاً ومواسياً ورحيق الإيمان ينضح من كلامه المفعم بالصدق: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء، إن كنت طلقتهن فإن الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك .

(١) رواه البخارى (٦/١٩٦) وانظر تفسير القرطبي (١٨/١٩١).

ثم طفق عمر رضي الله عنه يحدث رسول الله ﷺ حتى زال عنه الغضب، وارتسم على وجهه الشريف الابتسام وضحك... ولما رأى عمر رضي الله عنه سرور النبي الكريم ﷺ وأنسه، ذكر له ما أمر المسلمين بالمسجد، وما يذكرون من طلاقه نساءه، فذكر النبي ﷺ أنه لم يطلقهن، ولم يحدث شيء من هذا، وإذ ذاك طار عمر فرحاً وقال: الله أكبر ثم استأذن رسول الله ﷺ أن يفيض بهذا الأمر إلى المسلمين المقيمين بالمسجد، فأذن له بذلك.

نزل عمر رضي الله عنه من المشربة فرحاً مسروراً، ونادى بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه .

وأُنزل الله عز وجل في محكم التنزيل قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٥٢ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأُظْهِرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٥٣ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٥٤ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ تَتَّبِعْتِ عِبَادَاتٍ سَلِيحَاتٍ تَتَّبِعْتِ وَأَبْكَارًا ٥٥ ﴾ (التحریم: ١ - ٥) (١).

وعند ذلك كفر رسول الله ﷺ عن يمينه وثاب إلى نسائه رشادهن، وعاد إليهن وهن عابدات مؤمنات تائبات إلى الله عز وجل، وعادت إلى حياته البيئية السكينة، وخيم الاستقرار والصفاء على البيت النبوي الطاهر، وازدادت حفصة يقيناً بالله عز وجل، وازدادت بخلة الإنعام التي أكرمها الله بشرف أمومة المؤمنين، وراحت ترقب كل ما يرضى رسول الله ﷺ، لكي تسارع إلى تلبيةه ومرضاته وأحسب أنها كانت تقرأ دائماً: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ تَتَّبِعْتِ عِبَادَاتٍ سَلِيحَاتٍ تَتَّبِعْتِ وَأَبْكَارًا ٥٥ ﴾ (التحریم: ٥).

(١) رواه البخاري في تفسير سورة التحريم، ومسلم (١٤٧٤).

فتسارع إلى اجتذاب رضاء النبي ﷺ عليها بكل ما تستطيع من سبيل.

زَهْرٌ من رياض شمائلها:

عاشت حفصة رضى الله عنها فى البيت النبوى الطاهر تمارس واجباتها على أكمل وجه، صوامة قوامة وبهذا جاءت شهادة زاكية زكية، حملها جبريل الأمين ﷺ إلى رسول الله ﷺ فيها كرامة ومكرمة لها.

قال جبريل ﷺ عن حفصة أم المؤمنين: إنها صوامة، قوامة، وهى زوجتك فى الجنة وفى رواية: إنها صئوم فنوم، وإنها من نسانك فى الجنة (١) وقد شهد شاهد من أهلها بحسن صلتها بالله عز وجل بكثرة الصيام، فقد قيل: إنها ماتت حتى ما تفطر .

ومنذ نشأة حفصة فى بيت أبيها عمر، عرفت بين أترابها بذكائها، وفطنتها، ولما أشرف نور الإسلام على مكة، آمنت مع السابقات وهى فى سن مبكرة، مما ساعدها على تنمية مواهبها، فقد كانت حادة الذكاء محبة للتزود من المعرفة، وذات حافظة قوية، وكانت تحفظ ما تسمعه من أى الذكر الحكيم الذى كان يتنزل ندياً على الحبيب المصطفى ﷺ ولذلك فإنها اشتاقت إلى معرفة الكتابة، فوافتها بذلك إحدى الصحابيات الفاضلات وشفقت ما بنفسها، وعلمتها الكتابة، هذه المعلمة الكاتبة الفاضل تدعى: الشفاء بنت عبد الله العدوية القرشية، إحدى فضليات نساء قريش الكاتبات، أسلمت قديماً وكانت من المهاجرات الأوليات اللاتى بايعن رسول الله ﷺ وكانت من علاقات النساء وفضلياتهن، وكان النبى الكريم ﷺ يزورها، ويقبل عندها، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام عليه.

ولما انتقلت حفصة إلى البيت النبوى ظلت الشفاء، رضى الله عنها، تتردد على أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، وذات يوم دخل النبى ﷺ على حفصة وكانت الشفاء عندها فقال لها: علميها رقية النملة كما علمتها الكتابة .

وفى هذا جواز تعلم المرأة الكتابة، والالتفات إلى المعرفة، ولعله من الفائدة أن نشير إلى أن بعض نساء النبى ﷺ يعرفن القراءة أو الكتابة، فقد كانت الصديقة بنت

(١) رواه أبو داود (٢٢٨٣) وابن ماجه (٢٠١٦).

الصديق عائشة رضی الله عنهما تقرأ فی المصحف ولا تکتب، وكانت أم سلمة أم المؤمنین تقرأ ولا تکتب.

وكان هناك بعض الصحابیات الفاضلات ممن كن يعرفن الكتابة منهن: أم كلثوم بنت عقبة الأموية، ومن نساء عصر التابعین كانت عائشة بنت سعد بن أبی وقاص، تقول: علمنی أبی الكتابة وكذلك كريمة بنت المقداد، وغيرهن كثيرات، ممن كتبن أنصع الصفحات فی تاریخ النساء الوضیء وأثرین تاریخ المرأة المسلمة بألوان المعرفة وأنواع العلوم...

ولعل حفصة أم المؤمنین رضی الله عنها، كانت واحدة من مراجع الفقه فی العصر الراشدي، فقد كان عمر ؓ يعود إليها لیسألها عن بعض الأحكام المتعلقة فی فقه المرأة المسلمة.

ولئن أبدعت حفصة رضی الله عنها فی مجال الفقه والعبادة والصلاح، لقد حلقت فی فضاء الأدب، وإن الآثار الأدبية التي وصلت إلینا عن أمنا حفصة تدل دلالة بينة على بيانها الناصع، وعلى ثروتها الأدبية ذات الروافد القرآنية والحديثية، وأعتقد أن أسلوبها الرائع ينم عن ملكاتها الأدبية التي جعلتها من ذوات الفصاحة، وربات البلاغة فی عصر النبوة، ولا أجد فی هذا المجال أبدع من قولها، عندما طعن عمر ؓ إذ ورد أنها قالت: يا أبتاه، ما يحزنك وفادتك على رب رحيم، ولا تبعة لأحد عندك، ومعى لك بشارة، لا أذيع السر مرتين، ونعم الشفيق لك العدل، لم تخف على الله عز وجل خشنة عيشتك، وعفاف نهمتك، وأخذك بأكظام المشركين والمفسدين فی الأرض .

وقد ورد أن أمنا حفصة رضی الله عنها، خطبت بعد استشهاد أبيها عمر خطبة فی غاية الفصاحة نورد منها قولها: الحمد لله الذي لا نظير له، والفرد الذي لا شريك له، أما بعد: فكل العجب من قوم زين الشيطان أفعالهم، ونصب حباله لختلهم، حتى هم عدو الله بإحياء البدعة، ونيش الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دنوره، وإراقة الدماء، وإياحة الحمى، وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها، فأضرى وهاج، وتوغر وثار غضباً، ونصره لدين الله، فأخسأ الشيطان، وكفف إرادته، وأصعر خده لسبقه إلى مشايعة أولى الناس بخلافة رسول الله ﷺ الماضى على سننه، المقتدى

بدينه، المقتص لأثره، فلم يزل سراجهُ زاهرًا، وضوؤه لامعًا، ونوره ساطعًا له من الأفعال الغرر، ومن التقدم في طاعة الله، إلى أن قبضه الله إليه قاليًا لما خرج منه... ولو رحنا نتتبع شمائل أمانا حفصة في جميع المجالات الفاضلة الخيرة الكريمة لما وسعت لها هذه الصفحات، ولكننا آثرنا أن نشير إلى نُبْدٍ من فضائل شمائلها التي عطرت الدنيا لتكون أسوة وقدوة للمؤمنات.

القرآن الكريم وحفصة:

عندما رحلت أنتسم أخبار أمانا حفصة رضى الله عنها بين المصادر المتنوعة، ووقفت طويلًا عند فضلها في جمع القرآن الكريم، ويبدو لى والله أعلم أن هذه منحة ربانية مباركة اختصها الله عز وجل بها، لتكون ذات فضل على أبنائها المؤمنين إلى يوم الدين.

وكم توقفت طويلًا متأملًا الجهد الذى بُذِلَ في جمع القرآن المجيد في العصر الراشدى!، وكيف كانت أمانا حفصة رضى الله عنها حارسة الكتاب، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كنت لأعلم كما يعلم الناس جميعًا أن الله عز وجل قد أنزل الذكر، وتعهد بحفظه، ولكن القرآن الكريم، بقى مسطورًا في قلوب الذين آمنوا، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانت أجزاءه وسوره محفوظة في صدور الوعاة من حفظة الصحابة، ومن بعدهم، وكانت ذاكرتهم صافية، نقية، لا تشوبها شائبة، ولا يعترها الوهن والنسيان...

لكنه من المؤكد أن القرآن الكريم، كان بالإضافة إلى حفظه في الصدور، كان مكتوبًا في قطع الأدم، والعصب، وكسر الأكتاف واللخاف، وما شابه ذلك، وعندما قبض النبي ﷺ، كان يُرَاجَع إلى ذاكرة الصحابة ممن يحفظون القرآن، وهم كثر، وإلى كتاب الوحى وهم معروفون، ومن ثم يرجع إلى النصوص المكتوبة، إذا أشكل أمر في القراءة أو نحوها.

لم يبق الأمر على هذا النحو، فقد كانت حروب الردة قد أتت على كثير من المسلمين، ومن بينهم عدد جم من خيرة حفاظ القرآن الكريم، الذين قضوا نحبهم وما بدلوا تبديلاً، وإذ ذاك ساورت المخاوف العبقرى النبيه النبيل سيدنا عمر بن الخطاب

فى أمر القرآن الكرىم؁ وخرشى أن يصيب المقدور بقية البررة من الصحابة؁ وعند ذلك يصعب جمع القرآن الكرىم.

هنالك سرت بارقة أمل مباركة ولمعت فى ذهن عمر ؓ؁ وتوجه إلى الخليفة أبى بكر الصديق عليه سحابات الرضوان؁ وأفضى إليه بما يدور فى خله فقال: أخشى أن يستحر القتل كرة أخرى؁ بين حفاظ القرآن فى غير اليمامة من بنى المغازى؁ وأن يضع لذلك كثير منه؁ والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن الكرىم .

وشرح الله عز وجل صدر سيدنا أبى بكر الصديق ؓ لهذه الفكرة العمرية الفاروقية المباركة؁ ولكن من يقوم بهذه المهمة العظيمة التى تنوء بها الجبال الراسيات. عند ذلك عجم أبو بكر عيدانه؁ واستعرض رجال العلماء؁ فألقى أن زيد بن ثابت الأنصارى أصلها عودًا فى هذا المجال؁ وهو من كبراء كتاب النبى ﷺ فأوعز إليه أبو بكر قائلاً: إنك رجل؁ شاب؁ عاقل لا نتهمك؁ وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ؁ فنتبع القرآن فاجمعه .

وقام زيد ؓ بأصعب مهمة فى تاريخ الإسلام فى هذا المضمار الضخم والمجال الميمون؁ وقد تهبب بادئ الأمر؁ ولكنه كشف عن ساعد الجد والعمل المتواصل وقد تحدث زيد عن مهمته هذه فقال: لما أمرنى أبو بكر؁ ؓ؁ فجمعت القرآن؁ كتبته فى قطع الأدم؁ وكسر الأكتاف والعسب؁ فلما توفى أبو بكر رحمه الله ورضى عنه؁ كان عمر؁ كتب ذلك فى صحيفة واحدة فكانت عنده .

استغرق عمل زيد هذا قرابة ثلاث سنين كانت سماناً مباركة لهذا الجهد الكرىم؁ ولما كملت كتابة النسخة الأولى؁ عهد بها عمر إلى حفصة رضى الله عنها؁ لتبقى فى حيازتها؁ وبهذا أضحت أمانة حفصة حارسة للقرآن طيلة خلافة أبيها عمر رضى الله عنهما.

وظلت الحالة كما هى حتى حدث الاختلاف فى وجوه القراءات بين الأمصار؁ ولاحظ هذا الاختلاف أحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ؁ وصاحب السر؁ سيدنا حذيفة ابن اليمان ؓ؁ وذلك عندما كان يجاهد فى أرمينية وأذربيجان؁ ولاحظ اختلاف القراءات عند الشاميين والعراقيين؁ فجزع لذلك؁ وطار إلى خليفة المسلمين إذ ذاك

عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان جزعًا وقلقًا من الاختلاف، وأوعز إليه أن يتدخل في الأمر، ليقف الناس حتى لا يختلفوا على كتابهم القرآن الكريم كما اختلف اليهود والنصارى.

لاحظ سيدنا عثمان بن عفان رضوان الله عليه شدة تأثر حذيفة بن اليمان لهذا الموضوع، وقد وصلت عثمان الأنبياء عن هذا الاختلاف من مصادر أخرى، فتبلورت فكرة جمع القرآن، وكتابه المصحف في نسخ، وإرسالها إلى الأمصار حتى لا يكون هناك خلاف أو اختلاف.

وبرز هاهنا مرة أخرى، الإمام الكبير، شيخ المقرئين، والفرّضيين، مفتى المدينة سيدنا زيد بن ثابت كاتب الوحي ﷺ، برز ليؤدى المهمة التى أوكلها إليه عثمان بن عفان ﷺ، وشد أزره بثلاثة من فصحاء قريش وأكابرهم، كل واحد منهم بحر فى فن البيان والفصاحة والخطابة وهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، ثم استأذن عثمان ﷺ، بأن يأخذ النسخة الأولى من عند أم المؤمنين حفصة، حتى ينسخوها فى المصاحف ومن ثم تعاد إليها.

وبدأ العمل وكتبت المصاحف بإشراف حفظة القرآن وعليّة الصحابة، وولاية زيد ابن ثابت الذى تلقى العرضة الأخيرة، وعمل على جمع صحف أبى بكر فعلى الرغم من اعتمادهم على صحف أبى بكر ﷺ، وعلى الرغم من حفظهم للقرآن الكريم، فقد كانوا يستوثقون فيما يختلفون فيه من الآيات، فيسألون عنها من تلقاها من رسول الله ﷺ مباشرة، وقد اختط عثمان ﷺ، وبموافقة أهل الرأى والعلم والمشورة من الصحابة رضى الله عنهم منهجًا حكيمًا لكتابة المصاحف، يجعله كفيلاً بما هبى له من كونه إمامًا يرجع إليه عند الاختلاف، ومصباحًا يهتدى به عند النزاع، وذلك المنهج يتضمن النقاط التالية:

(أ) ألا يكتب فيه إلا ما يتيقن كونه قرآنًا بنقل عدد التواتر له عن رسول الله ﷺ دون ما نقله الأحاد مهما كانوا ثقات حفاظًا.

(ب) ألا يكتب إلا ما استمر متلوًا طوال حياة رسول الله ﷺ، دون ما نسخت تلاوته، لأن منسوخ التلاوة ليس بقرآن وإن بقى حكمه.

(ج) أن مجرد من كل ما ليس قرآناً، كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى، أو بياناً لناسخ أو منسوخ، أو نحو ذلك.
 (د) أن يكتب القرآن كله فى ذلك المصحف مرتب الآيات فى سورها على ما وقفهم عليه النبى ﷺ.

(هـ) أن يكتب مرتب السور على ما نشاهده اليوم فى المصاحف.
 (و) أن تكتب منه مصاحف متعددة ليرسل إلى كل مصرٍ واحد منها للرجوع إليه.

(ز) أن يكتبوه بلسان قريش عند اختلافهم كما قال عثمان ؓ: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم .
 وهكذا تم العمل المبارك على أكمل وجه، وأدق طريقة، ثم بعث عثمان ؓ إلى كل مصر من الأمصار، بمصحف، ورد الصحيفة إلى أم المؤمنين حفصة لتكون فى حيازتها، وليكون لها فضل هذا العمل إلى يوم القيامة، وإلى ما شاء الله.
المُحَدِّثَةُ الحَافِظَةُ:

إذا كانت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها قد تبوأت مكانة كبرى فى سدة حفظ القرآن الكريم ورعايته، لقد حلقت عاليًا فى معرفة الحديث النبوى الشريف وروايته، فقد كانت إحدى أمهات المؤمنين الواعيات الحافظات له، بل كانت واحدة من اللواتى أكثرن رواية الحديث الشريف، وحفظه فى صدورهن، وكيف لا، وقد كانت حفصة تلميذة نجبية فى مدرسة النبوة، وفى البيت النبوى بعد أمهات المؤمنين: عائشة وأم سلمة وميمونة وأم حبيبة رضى الله عنها؟ ولها فى مجال الحديث الشريف أثر طيب، فقد روت عن النبى ﷺ، عن أبيها ستين حديثاً، وبهذا تأتى فى المرتبة الخامسة فى عقد أمهات المؤمنين الطاهرات.

اتفق لها البخارى ومسلم على ثلاثة أحاديث.

وقيل: على أربعة أحاديث، وانفرد مسلم بستة أحاديث^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٠).

روى عن حفصة من الرجال: أخوها الصحابي عبد الله بن عمر وهى أكبر منه بست سنين، وقد أطاب وأجاد، وغبط من قبل بعض الصحابة، لمكانته من رسول الله ﷺ، ولكثرة دخوله على حفصة، ولهذا كان يدعى: المؤتسى برسول الله ﷺ، فقد كان يسأل حفصة أخته عن هدى الحبيب المصطفى، حتى يقتدى به، ويهتدى بهديه. وممن روى عن حفصة أيضاً من الرجال: ابن أخيها حمزة بن عبد الله بن عمر، وحرث بن وهب، وشثير بن شكل والمطلب بن أبي وداعة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، والمسيب بن رافع، وطائفة أخرى من كبار علماء الصحابة والتابعين. وقد تالقت جماعة من النساء الحديث الشريف عن أمنا حفصة، وروينه وحفظنه، منهن الصحابية الكريمة أم مبشر الأنصارية وامرأة أخيها صفية بنت أبي عبيد، وغيرهما.

ومن مرويات أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، ما أخرجه البخارى فى صحيحه وغيره بسندٍ عن نافع عن عبد الله بن عمر قال: أخبرتنى حفصة أن رسول الله ﷺ كان إذا اعتكف المؤذن للصبح، وبدا الصبح، صلى ركعتين خفيفتين قبل أن تقام الصلاة (١).

ومما أخرجه مسلم رحمه الله لأم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، ما جاء فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن صفوان يقول: أخبرتنى حفصة أنها سمعت النبى ﷺ يقول: ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأوسطهم، وينادى أولهم آخرهم، ثم يخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذى يخبر عنهم . فقال رجل: أشهد عليك أنك لم تكذب على حفصة، وأشهد على حفصة أنها لم تكذب على النبى ﷺ (٢).

وفى سنن أبى داود، وسنن البيهقى، عن حفصة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه، ويجعل يساره لما سوى ذلك .

(١) رواه البخارى (٦١٨) مسلم (٧٢٣).

(٢) صحيح مسلم شرح النووى (١٨/٥، ٦).

وتروى أمنا حفصة رضى الله عنها، بعضاً من شمائل رسول الله ﷺ، وهديه فى العبادة فتقول: «أربع لم يكن يدعهن رسول الله ﷺ: صيام يوم عاشوراء، والعشر، وثلاث أيام من كل شهر، وركعتا الفجر (١)».

تعد أم المؤمنين حفصة عليها سحائب الرضوان إحدى النساء اللواتى يُرجع إليهن فى بعض الفتاوى، ويؤخذ برأيهم فى ذلك.

أورد الإمام أبو محمد على بن حزم الظاهري، أسماء طائفة من الصحابة الذين رويت عنهم مسألة، أو مسألتان أو أكثر بقليل من الفتيا، وسرد أسماء عدد من أعيان الصحابة، كما سرد أسماء عدد من الصحابييات وهى: حفصة أم المؤمنين، صفية أم المؤمنين، أم حبيبة أم المؤمنين، جويرية أم المؤمنين، ميمونة أم المؤمنين، فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضى عنها، أم عطية الأنصارية، لىلى بنت قانف، أسماء بنت أبى بكر، أم شريك الحولاء بنت تويت، أم الدرداء الكبرى، عاتكة بنت زيد، سهلة بنت سهيل، فاطمة بنت قيس، أم سليم بنت ملحان، زينب بنت أبى سلمة، وأم أيمن الحبشية وغيرهن، رضى الله عنهن أجمعين.

الزَّاهِدَةُ الْعَالِمَةُ:

قد تأتى الدنيا للمؤمن تختال بزينتها وزخرفها، وتمتد بين يديه هينة لينة، وعندئذ يستطيع أن يتناول أجمل ما فيها، ويغتم ما شاء من زينتها ومباهجها إلا أن المؤمن العاقل البصير، يترك ذلك كله، ويترفع عن الدنيا ابتغاء رضوان الله ومرضاته، إذ أن المؤمن اللبيب إذا امتحن الدنيا يراها عدوًّا فى ثياب صديق، ولذلك يحذرنا أشد الحذر، ويرنو لما هو باق عند الله عز وجل.

وهذا ما كان من أم المؤمنين حفصة وأبيها عمر رضى الله عنهما، فقد تركا الدنيا وزخرفها، وأبعدها عن كيانهما، ولكن حفصة، كانت تسلك طريقة سديدة فى الزهد، مستوحاة من هدى زوجها رسول الله ﷺ، بينما كان عمر ؓ، يفهم أن الزهد هو الابتعاد عن زخارف الدنيا مهما كان الأمر، ولذلك طفق عمر يذكر حفصة بأشياء وأشياء حتى يكون سلوكه كسلوك رسول الله ﷺ، وسلوك الصديق الأكبر أبى بكر ؓ.

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٧٨).

وتعال - عزيزى القارئ - نشهد هذه الصورة الكريمة الجميلة من الخليفة عمر، وابنته حفصة رضى الله عنهما، لنعرف مقامهما فى عالم الزهد والزهاد...

فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ؓ كثرت الفتوح واتسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، وأضحت الشخصيات اللامعة تزد إلى المدينة المنورة، لتقابل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذى دوخ الفرس، وأذل الروم، فكان يقابلهم بهدوء دون أن يعمد إلى تغيير هيئته وشكله، مما جعل ابنته حفصة تدعوه إلى مقابلة هؤلاء بثياب أليين من لباس الخشن.

وذات يوم، قالت له ابنته حفصة أم المؤمنين: يا أبت، البس لىن الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر ؓ يخاطب ابنته فى هدوء، ويلفت نظرها إلى أشياء تعلمها: ألسن تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟! .

قالت حفصة: بلى يا أبت .

قال عمر: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث فى النبوة كذا وكذا سنة، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟ .

قالت حفصة: نعم ...

قال عمر: وناشدتك الله هل تعلمين أن النبى ﷺ لبث فى النبوة كذا وكذا، لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ .

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليه، حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟! .

فقالت حفصة: نعم ...

قال عمر: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال: منعتونى قيام الليل بهذه العباءة، اثوها بانثنتين كما كنتم تثنونها .

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، صنعت له امرأة من بنى ظفر من الأنصار كساعين إزاراً ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ .

وما زال عمر ﷺ يقول حتى أبكاها، وبكى هو وانتحب، حتى كادت نفسه تخرج من شدة التأثر، وقال لها: كان لى صاحبان، سلكا طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما، سلكَ بى طريق غير طريقهما، وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد، لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد — يعنى رسول الله ﷺ وأبا بكر — .

ودخل عمر ﷺ على ابنته حفصة، ففقدت إليه مَرَقاً بارداً وخبزاً، وصبت فى المرق زيتاً، فقال عمر: أذمان فى إناء واحد، لا أذوقه حتى ألقى الله عز وجل .
بمثل هذه المشاهد الموحية، نجد أن أمتنا حفصة، وسيدنا عمر قد أجاد كل واحد منهما، فى معرفة طريق الزهد، وسلوكه سلوكاً صحيحاً، مهتدياً بهدى رسول الله ﷺ.

وتابعت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها طريقها فى التماس الهدى النبوى، وكانت التوجيهات العمرية تثير لها الطريق أحياناً، لتبقى فى نور الهداية النبوية، وظلت كذلك حتى طعن سيدنا عمر ﷺ، فجاءت حفصة والنساء يسترنها فدخلت على أبيها، فبكت عنده ساعة، لكنه وفى تلك الحالة من الآلام والأوجاع، منعها من النوح.

ذكر الزبيدي رحمه الله فى شرحه على الإحياء هذا فقال: دخلت حفصة على عمر عندما طعن فقالت: يا صاحب رسول الله ﷺ، ويا صهر رسول الله ﷺ، ويا أمير المؤمنين، فقال لابنه: أجلسنى، فلا صبر لى على ما أسمع .

وقال لها: إنى أخرج لما لى عليك من الحق أن تندبىنى بعدها، فأما عيناك فلا أملكهما، إنه ليس من ميت يُندبُ بما ليس فيه إلا مقتته الملائكة .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: أما طعن عمر صرخت حفصة، فقال: يا حفصة، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن المعول عليه يُعذَّب .

وبهذا ذكر سيدنا عمر ابنته حفصة بالهدى المحمدى، وهو فى أدق اللحظات وأحرجها...

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ .

في ظلال الخلافة الراشدة، ظلت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، تعيش في أفيائها مرعية الجانب، مرضية المكانة من الخلفاء الراشدين والصحابة الميامين وكبار العلماء، الفقهاء، وكل يشير إليها ويعترف بفضلها، ويعرف فضائلها، ويقر بمكانتها من البيت النبوى، فهي واحدة من روافد العلم والفقہ والأدب في عصر النبوة.

وفي بداية خلافة أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه، احتدمت الفتنة الأليمه، وأرادت حفصة أن تخرج مع عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما إلى البصرة، ولكن أخاها عبد الله بن عمر أشار عليها أن تلزم بيتها، وتلتزم عبادتها، وألا تشارك أحدًا في الخض على ثأر أو ما شابه ذلك.

قرت حفصة رضى الله عنها في بيتها، ولزمت ما أشار به أخوها، وظلت تحتفظ له بكبير الاحترام، وتعترف بمكانته وفضله... وتمضى الأيام والسنون، ويظل بيت أم المؤمنين حفصة منارة علمية، ومونلاً لطلاب العلم والحديث إلى أن حل العام الخامس بعد الأربعين من الهجرة وفي شهر شعبان من تلك السنة، شعرت أم المؤمنين حفصة بالوهن والضعف، وعرفت أنها سكرة الموت قد جاءت بالحق فلم تمض بضعة أيام حتى لبت نداء الحق، وصعدت روحها إلى ربها راضية مرضية...

وقد صلى عليها أمير المؤمنين وقتذاك مروان بن الحكم، وحملت في نعش على سرير، وحمل سريرها بعض الطريق ثم حمله أبو هريرة إلى قبرها في البقيع، ونزل في قبرها أخوها: عبد الله وعاصم ابنا عمر، وبنو أخيها عبد الله: سالم وعبد الرحمن وحمزة وقد بلغت من العمر ستين سنة على أغلب الروايات وكان ممن شيع جنازة أم المؤمنين حفصة إلى مثواها الأخير، الصحابي الجليل أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه.

وأوصت أمنا حفصة إلى أخيها عبد الله بما أوصى إليها عمر، وتصدق لها بمالٍ وقفته بالغابة.

وبعد، فهل أدينا جزءًا من حق أمنا حفصة بنت عمر في هذه الصفحات المباركات من سيرتها الطيبة وحياتها الميمونة الزاخرة بكل ما هو مفيد ونافع!؟

نرجو ذلك، ونرجو الله عزوجل أن يحشرنا مع الذين أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، وأن يتجاوز عما أسلفنا، ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين، إنه عفوٌ كريمٌ، وسميعٌ مجيب.

أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضى الله عنها

من نساء أهل البيت اللواتى اشتهرن بالبر والإحسان والجود والسخاء. كانت تدعى «أم المساكين» لكثرة معروفها وصدقاتها إلى الفقراء والمساكين. تزوجها النبي ﷺ بعد غزاة أحد، وصارت من أمهات المؤمنين. رحلت إلى ربها فى هدوء الأبرار، وصمت العابدين، وعمرها قرابة ثلاثين عامًا. توفيت سنة (٤هـ) وهى أول نساء النبي ﷺ وفاة بالمدينة ودفنت بالبقيع وصلى عليها النبي ﷺ.

أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضى الله عنها

من أبواب الخير:

المسلم الحق أولى الناس بحياة سعيدة طيبة، لأن المسلم — رجلاً كان أو امرأة — لا ينفرد بالخير لنفسه، بل يعد كل من حوله شريكه فى الخيرات، وهذه المشاركة تضىفى على النفس البشرية صفاءً ونقاءً تجعلها تحيا حياة طيبة فى ظلال الخيرات. ومن ألف عمل المعروف والخيرات، كافأه الله عز وجل بإدامة ثوابها عليه، ومن تعود الإحسان، وعمل الخيرات، يشعر بإلحاح فى نفسه، لمتابعة المسير فى هذا الطير الكريم.

وقد أشار القرآن الكريم، إلى كثرة منافذ الخير التى يجب أن يسير عليها المسلم مهتديًا بمنهج ربه عز وجل، إذ رغبه فى ثواب الله عز وجل، إذ إنه سبحانه لا يمنع المكافأة على أى خير مهما قل أو صغر، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٩٧) وقال أيضًا: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧).

وتحدث الآن عن واحدة من نساء أهل البيت النبوى الطاهرات، اللواتى أكرمهن الله عز وجل، وفضلهن على غيرهن من النساء، وهى إحدى النسوة اللواتى اشتهرن بالإحسان وحلقن فى سماته، فكتب لها الخلود، وكتبت فى سجل الخالدين، لا بل نظمت

فى عقد أمهات المؤمنين، فنالت شرف أمومة المؤمنين، ودخلت رحاب البيت النبوى الطاهر...

إنها زينب بنت خزيمة بن عبد الله الهلالية أم المؤمنين، هى من نسعى فى استجلاء أخبارها فى هذه الصفحات...

هذه المرأة الكريمة كانت - وظلت - تدعى أم المساكين لكثرة معرفتها وإحسانها إليهم ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ (الرحمن: ٦٠).

نرجو أن نوفق فى إلقاء الضوء على سيرة أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، لنوفىها بعض حقها من الذكر الحسن من خلال استجلاء سيرتها العطرة، وذلك ما نرجوه من الله عز وجل بأن يكرمنا بالحديث عن سيرتها بمنتهى الحب والشفافية^(١).

شذرات من حياتها:

ولدت زينب بنت خزيمة فى أم القرى قبل البعثة النبوية بثلاث عشرة سنة تقريباً، ولما أيفعت، أشرفت مكة بنور الإسلام، فسارعت زينب إلى الانضمام لثلة الأولين الذين نعموا بأفياء الإيمان بالله وبالرسول.

أما عن زواج زينب بنت خزيمة، فهناك أقوال أشهرها ما قاله الزهري رحمه الله أنها كانت زوجاً لعبد الله بن جحش، وقتل عنها فى يوم أحد.

وقيل: «كانت زوجة للطفيل بن الحارث، ثم خلف عليها أخوه الشهيد عبدة بن الحارث المطلي».

ولا نستطيع أن نجزم فى هذه الأقوال شيئاً، أو أن نرجح أحدها، أننا لا نمتلك السند الوثيق فى هذا المجال، ويمكننى أن أضع القارئ الكريم أمام آراء المؤرخين، وكتاب السيرة، والتراجم حتى نقرب معاً من ضوء الحقيقة بإذن الله عز وجل.

فقد روى الطبرانى رحمه الله بسنده عن محمد بن إسحاق رحمه الله قال: «تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين كانت قبله عند الطفيل بن الحارث بالمدينة».

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨) طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦) الإصابة (٤/ ٣٠٩).

وقريب من هذا ما أورده ابن الكلبي قال: «كانت زينب بنت الحارث عند الطفيل ابن الحارث، فطلقها، فتزوجها أخوه عبدة بن الحارث، فقتل يوم بدر شهيداً ثم خلف عليها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة بعد حفصة بنت عمر رضی الله عنهما».

زينب من أمهات المؤمنين:

في السنة الثالثة كانت غزاة أحد، وفي هذه الغزوة، استشهد رجال كرام من الصحابة الكرام رضی الله عنهم، وتركوا وراءهم الدنيا والأهل طاعة لله عز وجل وابتغاء مرضاته، والفوز بجنته التي وعدهم بها.

أما المسلمون من الصحابة الكرام، فلم يتركوا أزواج الشهداء وذريتهم للضياع، وإنما راح كل قادر منهم يضم إليه زوجة شهيد وأبناءه، كي يمسح عن قلوبهم ألم الفراق، وألم اليتيم.

نتذكر هاهنا حمنة بنت جحش رضی الله عنها، وقد صرخت باكية على زوجها مصعب بن عمير ؓ، وقالت: «واحزناه» ويسمعا رسول الله ﷺ فقال: «إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد» وعندئذ قال لها ﷺ «لِمَ قَلْتِ هَذَا؟» قالت حمنة رضی الله عنها: «يا رسول الله، ذكرت يتم بنية فراغني» فدعا لها رسول الله ولولدها، أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف، فتزوجت طلحة بن عبید الله ؓ، فكان أوصل الناس لولدها.

وممن استشهد في أحد زوج زينب بنت خزيمة الهلالية، فكانت دائمة الحزن عليه، ونظرت فرأت نفسها وحيدة حزينة في المدينة المنورة، وليس لها من معيل، أو معين أو عون، سوى الله عز وجل.

إلا أن زينب بنت خزيمة رضی الله عنها كانت موصولة القلب بالله عز وجل، وتذكر أن الله عز وجل لن يضيعها، فأسلمت إليه أمرها، واستسلمت لقضائه وقدره.

انقضت عدة زينب بنت خزيمة، فلم تشعر إلا ورسول الله ﷺ يطرق الباب ليخطبها، وحينذاك جعلت أمرها إليه، فالرسول الكريم ﷺ هو خير من يتولى أمرها، ويرعى شأنها، وقد أصدقها النبي الكريم ﷺ أربع مائة درهم، وبنى لها حجرة إلى

جوار حجرة عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر رضى الله عنهم أجمعين، وذلك قرب المسجد النبوى الشريف.

وبهذا أخذت زينب بنت خزيمة رضى الله عنها مكانة مباركة عالية، إذ غدت إحدى أمهات المؤمنين اللواتى كن من صفوة نساء الدنيا كمالاً، ودينًا، وصيانة، وعفة، وحلمًا، وكرمًا...

أم المؤمنين وأم المساكين:

فى رحلة الإيمان، ورحلة العطاء والكرم، تسجل أم المؤمنين زينب رضى الله عنها فضائل جليلة، فى صفحات البيت النبوى الكريم، إذ أثر عنها أنها كانت أمًا للمساكين بالإضافة إلى كونها من أمهات المؤمنين رضى الله عنها.

والذى يظهر - والله أعلم - أن كنية زينب بنت خزيمة بأم المساكين، كنية قديمة، قد تعود إلى ما قبل هجرتها إلى المدينة المنورة، فقد كانت تُعرف بأم المساكين قبل قدومها المدينة، ولعل خير ما يؤيد هذا ما ذكره ابن أبى خيثمة رحمه الله قال: «كانت زينب بنت خزيمة الهلالية تسمى أم المساكين فى الجاهلية».

وقال البلاذرى رحمه الله: «وكنيت بذلك فى الجاهلية» أى أم المساكين.

وقال القسطلانى رحمه الله: «كانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين».

وروى الطبرانى رحمه الله برجال ثقات عن الزهري رحمه الله قال: «تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وهى أم المساكين، سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين».

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله فى السيرة: تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، وقال ابن كثير رحمه الله: وهى التى يقال لها: أم المساكين، لكثرة صدقاتها عليهم، وبرها بهم وإحسانها إليهم.

نعم، لقد كانت أمنا زينب بنت خزيمة رضى الله عنها، من أرق النساء وأرحمهم للفقراء والمساكين فى عصرها، وزادت من حنانها عليهم، بعد أن أنعم الله عليها بنعمة الإيمان، وأكرمها الله بدخول البيت النبوى الطاهر، لتصبح من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أجمعين.

إن هذه الصفة الكريمة - أم المساكين - تزيد من رصيد أمانة زينب بنت خزيمة في عالم نساء أهل البيت النبوي الطاهر، فالإحسان إلى المساكين، والعطف عليهم، والرأفة بهم، يشير إلى خيريتها، وإلى كرمها الفياض الذي جعلها أمًا للمساكين في المدينة المنورة، تحنو عليهم وترعاهم، إذ تعودوا على نوالها وكرمها، وهذا ما يجعلها في صف الخالدات وفي صف الفضليات، وفي عالم الكرم والكريمات.

أم المساكين وعائشة وحفصة:

كانت السيدتان النبيلتان عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر رضى الله عنهما، أسبق من زينب أم المساكين إلى دخول البيت النبوي الطاهر الكريم وكان لهاتين الكريمتين: عائشة وحفصة، مكانة كبرى، ومنزلة عظمى، عند رسول الله ﷺ، ولذلك لم تستشعر عائشة، ولا حفصة، نحو السيدة زينب بنت خزيمة أية غيرة، أو أى شيء من بواعثها...

كانت كل من أمانة عائشة، وأمانة حفصة رضى الله عنهما، تعرفان أن رسول الله ﷺ قد تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين، رحمة منه وعطفًا، وكانتا تعلمان أيضًا أن رسول الله ﷺ ما ينطق عن الهوى، وقد تزوجها بوحى من الله عز وجل. أما زينب بنت خزيمة أم المساكين رضى الله عنها، فلم تكن راغبة هي الأخرى في منافسة عائشة وحفصة اللتين سبقتاها إلى بيت النبي الكريم ﷺ.

كانت زينب بنت خزيمة عليها سحابات الرضوان، تعيش في عالم العطف والمودة والحنان، وتعيش في كنف الإسلام وعظمته، وتحس بالسعادة الغامرة تملأ قلبها ووجدانها في رحمة المساكين، وفي رقتها عليهم، ورفقها بهم، والإحسان إليهم، فجعلت جُلَّ وقتها في عبادة الله عز وجل، ثم في رعاية ثلثة المساكين وإطعامهم، والتصدق عليهم، ولهذا غلب عليها تسمية أم المساكين، وناهيك بهذه التسمية الفضلى الفواحة بدفء الحنان ونسائم الإحسان!.

لقد كانت أمانة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها خيرة من الخيرات، طيبة من ذوات النفوس الطيبات، وما كان يخرج من حجرتها إلا الصدقات، وإلا الطاعات والعبادات، فأكرم وأعظم بذى المكرمات!.

كانت رضى الله عنها قريرة العين، مطمئنة القلب، بأن أصبحت زوج رسول الله محمد ﷺ، وهل فوق هذا من فضل أو مفخر؟! فما كانت الغيرة تعرف إلى نفسها سبيلاً، وما كانت مشاغل النساء تداعب فؤادها، فهي سعيدة راضية بأومة المؤمنين وأم المساكين، وقد غمرت أهل الصفة، الذين انقطعوا للعبادة والمناجاة فى المسجد النبوى الطاهر، وعملوا على حراسة الحبيب المصطفى ﷺ، غمرت هؤلاء الأخيار ببرها، وعطفها وكرمها، وإحسانها، حتى لهجوا بالدعاء لها، والثناء عليها رضى الله عنها.

إلى دار السلام:

لم يطل مقام أمنا زينب بنت خزيمة أم المساكين فى البيت النبوى، ولم تكن حياتها طويلة مع أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن، فما كادت تمضى بضعة شهور حتى علا الوجوم والحزن وجوه من كانوا فى المسجد النبوى الشريف، فقد خرج ذات يوم من بيت النبى ﷺ، من أعلن للملأ أن زينب بنت خزيمة أم المساكين قد لحقت بربها...

دخلت زينب بنت خزيمة رضى الله عنها بيت رسول الله ﷺ، فى هدوء الأبرار وصمت العابدين، وخرجت فى صمت الخاشعين، لتُدفن فى البقيع إلى جوار الأبرار الأخيار الذين سبقوها إلى دار السلام، ولنعم دار المتقين الجنة، كان موت زينب أم المساكين أليماً على قلب الحبيب المصطفى ﷺ، إذ تذكر بموتها الطاهرة خديجة بنت خويلد، أول أمهات المؤمنين، وأحبهن إلى قلبه الشريف، رضى الله عنها وأرضاها.

توفيت أم المساكين، ولم ترُ شيئاً عن النبى ﷺ.

قال الذهبى رحمه الله: «وما روت شيئاً».

وقال ابن الجوزى رحمه الله: «وما نعلمها أسندت شيئاً».

ولعل هذا يعود إلى انشغالها بأحوال المساكين، وإلى قلة مكثها فى بيت رسول الله

ﷺ.

روى الطبرانى رحمه الله قال: «توفيت أم المساكين ورسول الله ﷺ حى، لم تلبث

معه إلا يسيراً».

توفيت أم المساكين في ربيع الآخر في السنة الرابعة من الهجرة المباركة، وشيعت إلى مئواها الأخير في البقيع في المدينة المنورة وكانت عندما توفيت في ريعان الشباب، فقد ذكرت المصادر وكتب السيرة، أنها ماتت وعمرها حول الثلاثين. وفي الطبقات أخرج ابن سعد رحمه الله ما يتوافق مع هذا عن شيخه محمد بن عمر قال: «سألت عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما: من نزل في حفرتها.

فقال: إخوة لها ثلاثة.

قلت: كم كان سنها يوم ماتت.

قال: ثلاثين سنة أو نحوها».

وكانت أم المساكين، أول نساء النبي ﷺ موتاً بالمدينة، وقد توفيت أم المؤمنين خديجة قبلها في مكة.

وقد فازت زينب بنت خزيمة بوفاتها في حياة رسول الله ﷺ، بأن صلى عليها، ودعا، لها ولم يمض من زوجاته بالمدينة غيرها في حياته ﷺ.

رضى الله عن أمنا زينب بنت خزيمة، وأكرم مئواها ووهبنا لها، فهو الكريم الرحيم الوهاب، وجزاها بالحسنى، فهو القائل في كتابه العزيز: ﴿ وَجَزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النجم: ٢١).

وجعلها في عليين مع الأبرار والصالحين، وأدخلنا معها ومع أهل البيت النبوى الطاهر في رحمته، إن ربي غنى كريم، ومع وداع سيرة أم المساكين.

ما رأيكم أن نقرأ هذه التفريفة الجميلة؟

مع زينب أخرى نواصل للحديث مؤكدين
 هي زوجة الهادى وإحدى أمهات المؤمنين
 أم المساكين التى عرفت بإحسان ودين
 عرفت ببنت خزيمة ذاكم أبوها عن يقين
 كانت قبيل المصطفى زوجاً لأحد الداهيين
 ذاكم عبدة فى العمومة مع إمام المتقين
 قد راح فى بدر شهيداً أول المستشهدين

فتأيمت من بعده مع لوعة الحزن الدفين
لما انتهى زمن الحداد كشرع كل المسلمين
قد أرسل الهادى ليخطبها كفعل الخاطبين
قالت فأمرى للنبي وإبنى فى الطائعين
فتزوج الهادى بها بالمهر ثم الشاهدين
لكنها لم توفِ عامًا عند ختم المرسلين
ظلت ثمانى أشهر ثم اغتدت فى الراحلين
صلى عليها المصطفى والصحب كانوا شاهدين

أم المؤمنين
هند بنت أبي أمية (أم سلمة)
رضي الله عنها

من سادات النساء وأعلاهن منزلة، اشتهرت بحصافة الرأي، وسلامة المنطق، وكانت تسعى لمرضاة الله عز وجل.

كان لها مكانة رفيعة عند النبي ﷺ، وكان يصلي في بيتها.
في بيتها نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

كانت من فقيحات نساء أهل البيت، روت (٣٧٨ حديثًا) وكانت عالمة، قارئة، فصيحة، أديبة، لها كلمات مأثورة.

عاشت أكثر من (٨٠ سنة) وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة رضي الله عنها.

أم المؤمنين
هند بنت أبي أمية (أم سلمة)^(١)
رضي الله عنها

﴿ أَوْلِيَّتِكَ الْمُقْرَبُونَ ﴾ (الواقعة: ١١).

كان في طليعة الأباة السابقين إلى دوحة الإسلام، ثلثة من خيار أهل مكة، الذين ضربوا أوفى الأمثلة، في ميادين الشجاعة والسخاء، والصبر والإيمان والمكارم والفضائل.

من بين أولئك الأباة الميامين: أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، السيد الكبير أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وابن عمته برة بنت عبد المطلب، وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام، الذين نعموا بنور الإيمان ومحبة الله تعالى ورسوله الأمين ﷺ.

كان اسم أبي سلمة في سجل الإيمان بارقًا يلمع بين الأرقام الأولى، فقد أسلم بعد عشرة أنفس، فكان من المقربين الذين عرفوا الحق من أول يوم هبت فيه أنسام الإيمان

(١) طبقات ابن سعد (٣/٣٩٣) أسد الغابة (٦/٣٤٠ - ٣٤٣) الإصابة (٤/٤٠٧) الاستيعاب (٤/٤٠٥).

الندية على مكة — بل الدنيا — فتعطرت به تلك النفوس الصافية النقية، واستضاءت بنوره وهده، وتظهر من بين أولئك السابقين، امرأة سجلت أعظم الأثر في البيت النبوي الطاهر، في مجالات خيرة متنوعة الفضائل، هذه المرأة الفاضلة هي: السيدة المحجبة الطاهرة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله المخزومية ابنة عم خالد بن الوليد، ومشهورة بكينيتها أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها. قال عنها الإمام الذهبي رحمه الله: «من المهاجرات الأول، كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة: أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الرجل الصالح، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً».

وتعدُّ أم سلمة رضى الله عنها، من أوليات المؤمنات بالله عز وجل وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ولم يسبقها في عالم النساء، إلا صديقة المؤمنات الأولى خديجة وبناتها، وأم أيمن الحبشية، وأم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهن أجمعين، ولهذا تنتظم أم سلمة في عقد المؤمنات السابقات إلى خيري الدنيا والآخرة، فأكرم بهذا السبق المظفر الكريم!

كِرَمُ الْأَعْرَافِ:

لو ألقينا الأضواء على حياة هند أم سلمة قبيل الإسلام، لألفينا أنها امرأة ذات شرف في أهلها، وذات نسب مُعْرِقٍ في المعالي، ومنبت كريم حسيب في قومها بنى مخزوم، ثم هي بعد ذلك كله، ابنة واحدٍ من كرماء قريس، وأنداهم كفاً، وأجودهم عطاء، فأبوها زاد الراكب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن سخائهم، فكانوا إذا سافروا، وخرج معهم الناس، لم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا ناراً لهم فيكفونهم ويفنونهم.

ولا ريب في أن هند بنت أبي أمية، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة التي عاشتها في مطلع فجر حياتها، ورأت ما رأت من مكانة أبيها وكرامته بين الناس، فلا عجب أن تكون هي الأخرى، ذات يدٍ معطاءة، ونفس صافية، تعرف مكانم الرحمة، فتفجر البر في نفوس الناس تفجيراً.

ولما بلغت هند بنت أبي أمية مبلغ النساء، تزوجها أبو سلمة بن عبد الأسد، أحد الأشراف من بني مخزوم، وأحد ذوى الراى الجزل والشجاعة والكرم والمروءة فيهم، فانتقلت إلى داره لتعيش معه فى سعادة وهناء.

كان أبو سلمة بن عبد الأسد ترب محمد بن عبد الله الأمين الكريم ﷺ الذى سمعت هند كثيرًا عن شمائله فى المجالس، إذ هو ريحانة الندى فى مكة، ومقل كل رجاء، ومجمع كل جود، ومناطق كل فضيلة، ورأس الشرف والنسب، إذ لا يعلو على نسبه أحد فى الخاقين، فهو سليل الأسياد الأشراف، حاز المكارم والتقى والجود، والله در من قال:

نسب كان عليه من شمس الضحى نورًا ومن فلق الصباح عمودا
ما فيه إلا سيد من سيد حاز المكارم والتقى والجودا
يضاف إلى ذلك كله، أن أبا سلمة تربط بينه وبين محمد بن عبد الله ﷺ صلة القرابة، فمحمد ابن خال أبى سلمة، وأم أبى سلمة هى برة بنت عبد المطلب عمه النبى ﷺ.

كانت هند أم سلمة تعيش حياة النعيم والرخاء، والسعة والدعة، وخفض العيش، ينفق عليها زوجها ويرعاها، ويحنو عليها حنو المرضعات على الفطيم، فقد عرفت بين أترابها بكمال طلعتها وجمال روحها، ورقة طبعها، ناهيك بكرم والدها الذى شمل رجال مكة وما حولها.

غير أنها فى غضون أيام تترك هذا النعيم المزيف كله، لتنتقل إلى نعيم روحى حقيقى آخر، عبت مكة كلها بأريجه، إنه نعيم الإسلام الذى يدعو إليه محمد ﷺ، وسارعت أم سلمة وزوجها إلى الإسلام والإيمان بالله، فكانا من السعداء.

كبر إسلام هذين الزوجين الكريمين على بنى مخزوم ولعب بهم الغيظ، على محمد ﷺ وعلى أصحابه، لا بل إن رسول الله ﷺ قد اتخذ من دار الأرقم بن أبى الأرقم بن أسد المخزومى دار اجتماع لتلقى المؤمنين تعاليم رسالته، ولم يعلم بها بنو مخزوم على الرغم من أنها على مقربة من أعينهم...

كانت هذه الدار مجمع السابقين إلى الإيمان من أصحاب محمد ﷺ، والذي زاد من غيظ المخزوميين، ثم القرشيين، أنه أقبل على الإيمان أهل الصدق من خُصّص شباب قريش رجالاً ونساء، قد اتبعوا دينه، وصدقوا رسالته، وكثروا وتكاثروا في ظل الإيمان، وفي ظل الرعاية الربانية، والتربية المحمدية الهادية إلى النعيم والسلام والوئام.

أسلمت أم سلمة وأبو سلمة، وكانت قبيلة بنى مخزوم بقضّها وقضيضها، تركب رأسها تعاند الإسلام، والمسلمين، وها هو ذا عمها الوليد بن المغيرة المخزومي، الملقب بالوحيد، وبالعدل، ومن ذوى الشرف، والعز، والسؤدد، لكنه يؤلّب ويكيّد، وابن عمها كذلك ومن معه يصبون الأذى صبّاً على المسلمين والمسلمات ومنهم أخوها في الرضاعة، المؤمن السابق، مولى المخزوميين عمار بن ياسر ؓ.

استفاقت قريش وبنو مخزوم من غفلاتهم، فإذا بهم يرون أن محمداً ﷺ، قد اجتذب منهم زهرات شبابهم إلى رحيق الإيمان، فإذا هم عنده ومعهم مسلمون، مؤمنون، قد هجروا آلهة آبائهم وأسلافهم، وسفهاوا معه أحلامهم، ودخلوا معه بشطّط العيش، وبس الحياة وفقرها، بعد الترف والمتعة في بيوتهم بين أهليهم وذويهم، وفارقوا المال والولد، والإخوة والآباء والأمهات والزوجات، وتبدلوا بهم - وهو الحق - محمداً ﷺ وأصحابه.

طارت عقول قريش في أدمغتهم، وانخلعت قلوبهم من بين أضلاعهم، لما يرون ويشاهدون ويسمعون، وعندئذ أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم يعذبونهم، ويؤذونهم، ليردوهم عن دينهم، ولكن المؤمنين كانوا يزدادون إيماناً مع إيمانهم، وتزداد جموع فجار المشركين حقداً على حق، وسوءاً على اختلاف فنون الأذى والتعذيب، وفي مسيرة العذاب والتعذيب، نالت أم سلمة وزوجها نصيبهما من أذى المشركين، وصبروا صبر الكرام، مع إخوانهم المؤمنين، حتى جاءت نفحة الهجرة إلى الحبشة لتتولى أم سلمة الحديث الشائق العبق حولها، ولتكون هي راوية حديث الهجرة، الذي يعتبر أصح، وأجود، وأجمع حديث ذكر قصة الهجرة إلى أرض الحبشة، فأحسنت

الحديث وجودت وجمعت الحقائق ونظمتها في عقدٍ بياني فريد، يعد واحداً من المصادر الأساسية في بداية السيرة النبوية.

كانت أم سلمة إحدى المهاجرات إلى الحبشة مع زوجها أبي سلمة فمع المهاجرين والمهاجرات نعيش لحظات رغيدة، ومعهم نخلق بأرواحنا، نحيا مع تلك الفئة الكريمة التي تعتبر من أعز بيوت العرب وقبائلها وسنشهد ونشاهد أشرافاً وأعلاماً من أرومة قريش وهي تشد الرحال إلى الحبشة، قال ابن اسحاق رحمه الله: وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: عثمان بن عفان، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

أم سلمة وحديث الهجرة:

قلنا: إن أم سلمة رضی الله عنها، كانت مع الذين هاجروا أول هجرة في الإسلام إلى الحبشة، وهناك ولدت لزوجها أبي سلمة ابنته زينب، ثم بعد ذلك، ولدت له، سلمة وعمر ودره، إن أهل الهجرة الأولى إلى الحبشة كانوا اثني عشر رجلاً، وأربع نسوة: عثمان وامرأته، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، والذبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وأبو سيرة بن أبي رهم، وحاطب ابن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود.

خرج هؤلاء الأخيار يتسللون سراً، فوق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار، فحملوهم إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم في رجب في السنة الخامسة من المبعث ثم خرجوا ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء تسع عشر امرأة، ومنهن: أسماء بنت عميس، وأميمة بنت خلف، وبركة بنت يسار، وفاطمة بنت صفوان بن أمية، وفاطمة بنت المجل العامرية، وغيرهن...

وفي إحدى الجلسات المباركة، شرعت أم المؤمنين أم سلمة تروي ذكريات الهجرة الحبشية... وحديث الهجرة إلى الحبشة — عزيزي القارئ — طويل الذبول، عريض الأكتاف ولكني أحب أن أشير إلى أنها كانت — كذلك — هجرة تبليغ، ونشر للدعوة المحمدية التي تركت آثارها وأثرها بالحوار الصدوق، الذي تولاه جعفر بن أبي طالب

ﷺ باسم سائر المسلمين المهاجرين، واستجاب لها النجاشي، وأخباره، ورهبانه الذين فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وأنزل الله عز وجل فيهم قرآناً يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ۗ ﴾ (المتدة: ٨٢)

ولنعد إلى مائدة أم سلمة الإيمانية، تغذى الأرواح، ونمتع الأسماع بفقرات رطبة من شذى قصة الهجرة، ولاحظ معي سلاسة الألفاظ، ودقة التعبير، وسمو القصد، وكمال الرؤية السلمية للأحداث.

قالت أم سلمة عليها سحائب الرضوان: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار، النجاشي، أمناً على ديننا، وعبداً لله تعالى، لا نوذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ قريش انتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي وبطارقته، هدايا مما يستطرف من متاع مكة... ثم بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما، قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدما على النجاشي... فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته... ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي... ثم كلماه فقالا: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك... وقد بعثنا إليك فيهم أشراف من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه، فقال بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك... فأسلمهم إليهما... حتى أدعوهم فأسلمهم عما يقول هذان في أمرهم، فإذا كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما... وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسننت جوارهم ما جاوروني... ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم، ودعا أساقفته، فلما جاءوا سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟!.

فقال جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي

منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقته، وأمانته، وعفاه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده... وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه، واتبعناه على ما جاء به من الله... فعدا علينا قومنا، فعذبونا وأفتتونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان... فلما قهرونا وظلمونا... خرجنا إلى بلادك... ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك...

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فأقرأه عليّ... فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كَهَيْعَصَ ﴾ (مريم: ١) فبكى والله النجاشي، حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لرسولي قريش: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون. فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبْدٌ، ثم عدا من الغد.

فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم، فسلمهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم... فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم.

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، يقول: هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول... فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود.

قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم سيوم — أو شيوم — آمنون بأرضي من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا — جبلاً — من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم... فخرج رسولاً قريش من عنده مقبوحين، مردودًا عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار . هذه أقباس من قصة المهاجرين في الحبشة، استمعنا إليها من أم سلمة، واستمعتنا بما فيها من المواقف العطرة، والدروس والتوجيهات والعبر، ولاحظنا كيف حَفَّتْ

العناية الإلهية المهاجرين، وكيف اكتفتهم في أرض غربتهم، فعاشوا بخير دار مع خير جارٍ، ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمكة، بالبيت العتيق، بالأهل والأصحاب، وبالحيب المصطفى ﷺ الذي أخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الهدى ودين الحق، فما كان يأتي من مكة خبيراً، بأن الله أعز رسوله بأنصار حتى يهرع من برحهم الشوق إلى الأحبة بالعودة إلى أحب أرض الله إليهم، وقد عاد عثمان بن عفان، ورقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة، وأم سلمة وأولاهن، كما عاد بعض المسلمين الذين حنوا إلى مكة المكرمة.

قدم أبو سلمة وأم سلمة من الحبشة إلى مكة، وهما يحسبان أنهما سيعيشان بين قومهم بأنعم بال، فإذا بأشرار الفجار يبطشون بهما، وبغيرهم ممن عادوا إلى مكة وبدا لهم أنهم يكفوا عن إيذاء المسلمين، وافتتانهم بدينهم.

أراد أبو سلمة وزوجه العودة إلى الحبشة، وقبل أن يتجهز للرحيل، بلغه إسلام من أسلم من الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند بيعة العقبة الأولى، وإذ ذلك عزم على أن يهاجر إلى عرينهم، حتى يأتي الله بالفرج، أو نصر من عنده.

والآن، دعونا نعيش رحلة الهجرة الموفقة إلى المدينة المنورة مع الأسرة الصابرة، المؤلفة من أبي سلمة وأم سلمة وبنيهما رضي الله عنهما أجمعين، وتعالوا نستشق عبير تلك الأحاديث العطرة التي تصل القلوب ببارئها، وتتساب إلى أغوار النفس فتربطها بوشائج الحب مع الحبيب المصطفى ﷺ، ولأصحابه الكرام، ولأهل البيت الأطهار الأخيار.

أم سلمة وأضواء الإيمان:

كانت البيعة الكبرى في العقبة فتح الفتوح في تفريغ كرب المسلمين المعذبين في أم القرى، وكان لها من الفضل في توحيد مجتمعهم، وشد سواعدهم، وصلابة قناتهم ما جعلهم قوة مرهوبة، يخافها أعداء الإسلام، وكان لها من إدخال البهجة على قلب رسول الله ﷺ ما جعله يظهر سروره لأصحابه، ويبشرهم بأنه قد أخبر بدار هجرتهم، وهي يثرب المدينة دار الأنصار، وعرين الأبطال الذين بايعوه على أن يكونوا حرباً لمن حاربه، وسلماً لمن سالمه من العالمين.

وصار في المدينة المنورة في كل دارٍ من دور الأنصار نكر لرسول الله ﷺ ولرسالته السماوية، وهذا الأمر جعل أباة الضيم من السابقين الأولين في مكة، يتطلعون إلى الهجرة حيث يأمنون على دينهم وممارسة عبادتهم ورأوا أن المدينة المنورة هي المكان الآمن الأمين، والحصن الحصين الذي تطمئن فيه قلوبهم، لأنه يجمعهم مع إخوانهم في الإيمان من أنصار الله عز وجل، وأنصار رسوله ﷺ ودعوته برابط المحبة والأخوة في الله عز وجل.

أعد المؤمنون العدة للهجرة، وكان في مقدمتهم أبو سلمة صاحب الهجرة: هجرة الحبشة وهجرة المدينة المنورة، ومعه زوجه أم سلمة أيضاً صاحبة الهجرتين أيضاً، لكن أبا سلمة ﷺ أبت عليه رجولته وشجاعته ورسوخ إسلامه، أن تكون هجرته إلى المدينة المنورة سرّاً من الأسرار، فكيف يستخفي بهجرته وهو الفارس المعلم والبطل المقدم.

لا ين يهاجر مستخفياً، بل سيهاجر مستعلنًا تحت سمع قومه بنى مخزوم وبصرهم، أولئك الذين كانوا ينالون منه، ويؤذونه، ويستهزئون به، ويمنعه إسلامه أن يرد عليهم عداوتهم عليه، لأن السابقين الأولين كانوا مأمورين بالصبر والعفو، والاحتمال السمح المتكرم، وأبو سلمة من سرّاة السابقين الأولين رضى الله عنهم.

كانت هجرة أبي سلمة إلى المدينة المنورة، قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة، ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة، وهجرة زوجه السيدة النبيلة أم سلمة مثلاً مضروباً، ونموذجاً يحتذى، وأسوة تؤتسى في مواقف الشجاعة، وقوة العقيدة، والوفاء، واحتمال الصبر، وما هنالك من معالي المكارم.

والآن، تعالوا نجلس في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، نستمع إلى حديث الهجرة — ولكن هذه المرة إلى المدينة المنورة — نستمع إلى أمنا وهي تكشف عن روائع الإيمان، وقوة نور اليقين، في هجرتها، وهجرة زوجها أبي سلمة رضى الله عنهما.

تقول أم سلمة في معرض حديثها عن المهاجرين والهجرة إلى رحاب المدينة المنورة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحّل لى بغيره، ثم حملنى عليه،

وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجرى، ثم خرج بى يقود بعيره، فلما رآته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايتك صاحبك هذه، علام نتركك تسير في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذونى منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموها من صاحبنا.. فتجاذبوا ابني سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم.

وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة، ففرقوا بينى وبين زوجى، وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فلا أزال أبكى حتى أمسى، سنة أو قريباً منها، حتى مر بى رجل من بنى عمى، أحد بنى المغيرة، فرأى حالى، فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين ولدها؟! فقالوا لى: الحق بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابني، فارتحلت بعيرى، ثم أخذت ابني فوضعتة فى حجرى، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى من أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمنى لقيت حتى أقدم على زوجى .

ذروة المروءة ووفائها:

إن الأحداث الكبيرة التى مرت بها سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها لدليل على همتها، وصدق إيمانها، وقد صدقت رضى الله عنها فى محنتها، فما قاسته فى التفريق بينها وبين زوجها، وما رآته فى نزع ابنها من حجرها حتى خلعت يده، وما لزمته من خروجها إلى الأبطح نهارها تبكى سنة أو قريباً منه، أمورٌ عظيمة، تغلبت بالصبر عليها، وقد احتملت وصبرت صبراً جميلاً، حتى قيص الله عز وجل لها فرجاً.

ولنكمل رحلة الهجرة مع أم سلمة، وكيف لقيت من ذروة الوفاء، وقمة النخوة الرجولية، وكرم النفس من أحد الذين امتن الله عليهم بالإسلام فيما بعد وهو عثمان بن طلحة العبدرى الذى أثنت عليه أم سلمة ثناءً عطرًا سطرته أمهات المصادر، هذا الثناء يشهد له بالنبل والكرم والوفاء، تقول أم سلمة بعد أن غادرت مكة متوجهة تلقاء المدينة: حتى إذا كنت بالتعظيم، لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار.

فقال لى: إلى أين يا بنت أبى أمية؟.

فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟.

فقلت: لا والله، إلا الله، وبنى هذا.

قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوى بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل، أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري، فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت، واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي، حتى أقدمنى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقاء، قال: زوجك في هذه القرية — وكان أبو سلمة بها نازلاً — فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت أم سلمة رضوان الله عليها تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة .

وتثنى أم سلمة رضى الله عنها على ذلك الرجل الشهم الكريم الذى أحسن صحبتها فتقول: ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

وكان يقال: إن أم سلمة، أول ظعينة دخلت إلى المدينة المنورة مهاجرة .
وفى ربوع المدينة المنورة هبطت أم سلمة تعيش إلى جانب أبي سلمة، يعبدان الله تعالى، وينتظران قدوم النبي ﷺ لتكتمل فرحة انتصار المسلمين على طغيان قريش...
وفى تلك الأثناء عكفت أم سلمة على رعاية أولادها وتربيتهم وتغذيتهم بحب الله عز وجل، وحب النبي ﷺ، فأولادها صحابييون حازوا شرف الصحبة النبوية وهم: زينب، وعمر، وسلمة، ودرة.

ولما كانت غزاة بدر، خرج زوجها أبو سلمة ليكون فى البدرين الذين من الله عليهم بجنته، وكانوا خير أهل الأرض يومئذ.

مضى عام، فإذا المشركون يتجهزون لقتال المسلمين وذج المسلمون إلى أحد، وهناك التقوا المشركين، وكان أبو سلمة رضي الله عنه من الجنود الأوفياء في الجيش المحمدي، وفي أحد رماه أبو سلمة أسامة الجشمي بسهم في عضده، ولما عاد المسلمون إلى المدينة مكث أبو سلمة شهراً يداوى جرحه ويعالجه، وبجانبه زوجته الوفية أم سلمة، تقوم على رعايته وخدمته إلى أن برأ جرحه.

وكان شماس بن عثمان المخزومي رضي الله عنه، قد حمل من أحد إلى المدينة المنورة، وبه رمق، فأدخل على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ورأت ذلك أم سلمة.

فقالت: ابن عمي يدخل إلى غيري؟! .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احمليه إلى أم سلمة .

فحملوه إليها، فمات عندها، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُردَّ إلى أحد، فيدفن هناك، كما هو في ثيابه التي مات فيها، وكان قد مكث يوماً وليلة، ولم يذق شيئاً، فلم يُصلَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غسَّله.

دعوة مستجابة وعقبى صالحة:

انقضى شهران على غزاة أحد، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بنى أسد، يدعون إلى مهاجمته ومحاربتة في داره بالمدينة، فأحب النبي صلى الله عليه وسلم أن يباغتهم في ديارهم، واختار لهذه المهمة أحد فرسان المسلمين، ترى من يكون هذا الفارس؟.

وقع اختيار النبي صلى الله عليه وسلم على ابن عمته أبي سلمة المخزومي، فدعاه إليه، وعقد له لواء سرية قوامها مائة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأمره بالانطلاق إلى بنى أسد، وأوصاه قائلاً: سر حتى تنزل أرض بنى أسد، فأغرّ عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم كان أبو سلمة قد أصيب بجرح بالغ في غزوة أحد — كما أسلفنا — وقد ضمده فالتأم، وكان التئامه من السطح، فلم يعبأ بجرحه ولم يلتفت له، وخرج لينفذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسار بسريته، وأعدَّ السير حتى انتهى إلى مكان العدو، فأخذهم على غرة، وأحاط بأعداء الله، وأعداء رسوله في عمية الصبح، وراحت السيوف المؤمنة تضرب منهم كل بنان، وتطايرت السهام من الأيدي المؤمنة، لتستقر في أفئدة القوم الظالمين، واستمات المسلمون في

القتال، وأبلوا بلاءً حسناً، فقد كانوا يشعرون أن هذه المعركة التي يخوضونها معركة ذات أهمية كبيرة، فالنصر فيها يغسل عنهم هزيمة أحد، ويعيد ما ضيعت أحد من هبة المسلمين بين القبائل المحيطة بالمدينة، وغيرها من القبائل التي سولت لها أنفسها أن تعتدى على حرم المدينة.

ارتفعت صيحات المسلمين تهتف: الله أكبر الله أكبر، وراح أبو سلمة يصول ويجول حتى أجده النضال، فغمر جرحه وانتقض، وهو لا يأبه به حتى تم النصر المبين لأفراد سريته، وساقوا الغنائم والإبل والشاة، إلى المدينة المنورة، وكانت فترة غيابهم تسعاً وعشرين ليلة.

عاد المسلمون المجاهدون لثمانٍ خلون من صفر من السنة الرابعة للهجرة، وفي ركابهم النصر، ولكن الوجوه كانت حزينة، فأبو سلمة قائد السرية مريض قد ذبل، وأنهكه جرحه، ودخل على أهله، وهو ينوء بحمل الآلام، فاستقبلته أم سلمة رضى الله عنها خافقة القلب، وكادت تندُّ منها صرخة يأس حينما رأت حال أبي سلمة وآلامه.

وسجى أبو سلمة فى فراش الموت، فجاء رسول الله ﷺ ليعوده، فألفاه وجود بالأنفاس الأخيرة، فبقى إلى جواره يدعو له بخيرٍ حتى صعدت روحه إلى الله عز وجل وهو يدعو: اللهم اخلفنى فى أهلى بخير .

وأغمض ﷺ بيده الشريفة عيني أبي سلمة ثم دعا له، وكبر عليه تسع تكبيرات، فقيل له: يا رسول الله، أسهوت أم نسيت؟ .

فقال: لم أسه، ولم أنس، ولو كبرت على أبي سلمة ألفاً، كان أهلاً لذلك .
والحقيقة، فقد كان أبو سلمة ﷺ واحداً من الرجال الفضلاء ومن عقلائهم الذين يدركون معنى الحياة الكريمة فقد أوصى أم سلمة وصية كريمة جعلتها من سادة النساء وساداتهم، بل أمًا للمؤمنين، وعندما أصبحت أم المؤمنين اغتبطت أيما اغتباط وصار لها شأن وأى شأن.

ذكرت المصادر أن أم سلمة قالت لأبي سلمة رضى الله عنهما: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة ثم لم تزوج، إلا جمَعَ الله بينهما فى الجنة، فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدى، ولا أتزوج بعدك قال أبو سلمة: أتطيعيننى؟ .

قالت أم سلمة: نعم فقال: إذا مت تزوجي .
ثم رفع يديه داعيًا الله عز وجل: اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها .

قضى أبو سلمة ﷺ نحبها، فلما مات قالت أم سلمة رضى الله عنها: من خير من أبي سلمة؟ ولم تلبث أم سلمة رضى الله عنها مديدة؟ حتى جاء خير من أبي سلمة، جاء رسول الله ﷺ فقام على الباب، وذكر الخطبة إلى ابنها، فقالت: أردُّ على رسول الله ﷺ، أو أتقدم إليه بعيالى؟! (١).

لكن الله عز وجل قدر أن تكون أم سلمة إحدى أمهات المؤمنين، تنتظم في عقدهن، وقد استجيب دعاؤها ودعاء زوجها أبي سلمة رضى الله عنهما وأرضاهما.
فمن أم سلمة رضى الله عنها قالت: لما توفي أبو سلمة، أتيت النبي ﷺ فقلت: كيف أقول؟ قال: قولى: اللهم اغفر لنا وله، واعقبني منه عقبى سالحة، فأعقبني الله محمداً ﷺ (٢).

إلى رحاب أمهات المؤمنين:

مضى أبو سلمة إلى ربه، وخلف زوجه أم سلمة، وقد استجاب الله عز وجل دعاءهما، واعتدت أم سلمة عدتها فلما انتهت عدتها، تم أمرُ الله عز وجل، وغدت أم سلمة في رحاب البيت النبوي الشريف ومن أمهات المؤمنين.

تذكر المصادر الحديثية، وكتب السيرة، والطبقات، خبر الزواج الميمون، فنقول: لما انقضت عدة أم سلمة رضى الله عنها، تقدم إليها أبو بكر الصديق وخطبها، فلم تتزوجها، وردته في رفقٍ، ثم تقدم إليها عمر الفاروق يخطبها فردته بحجة أنها مسنة، وأن معها أولاداً صغاراً، وبعث إليها رسول الله ﷺ يخطبها، فإذا بالسرور يغمر قلبها، فهو شرف عظيم ومقام كريم أن تصبح زوج رسول الله ﷺ وتغدو أم المؤمنين، غير أنه مر بخيالها عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وهما شابتان عند رسول الله

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣) وطبقات ابن سعد (٨/ ٨٨) بتصرف.

(٢) رواه مسلم (٩١٩) أبو داود (٣١١٥) الترمذى (٩٧٧).

ﷺ، فتحركت إذ ذاك غيرتها، وبعثت إلى رسول الله ﷺ بقولها: إني امرأة غيرى، ومسنة، وإني مصيبة، وليس أحد من أوليائي شاهدًا وبعث إليها رسول الله ﷺ بأنه سيدعو الله عز وجل أن يذهب غيرتها وأن سنه أكبر من سنها، وأن الله عز وجل سيكفيها صبيانها، وهم على الله ورسوله، وأما أولياؤها فليس أحد منهم إلا سيرضى رسول الله ﷺ.

وعند ذلك قالت لابنها: قم فزوج رسول الله ﷺ فزوجها، وكان هذا الزواج الميمون في شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة النبوية الشريفة^(١).

عرفت عائشة رضى الله عنها، أن النبي ﷺ تزوج أم سلمة رضى الله عنها، فحزنت حزناً شديداً، لما ذكر لها من جمالها، فتلطفت حتى رأتها، فرأت أضعاف ما وصفت به، فذهبت إلى حفصة بنت عمر — وكانت عرى الصداقة موثقة بينهما — وأخذت تتحدث عن أم سلمة، وعن جمالها، فقالت حفصة: لا والله، إن هذه الغيرة ما هي كما تقولين، وإنها لجميلة .

وظفقت حفصة تتحدث عن تقدم أم سلمة في السن، وأن جمالها بقايا من بقايا، وإذ ذاك عادت الثقة إلى نفس عائشة، فرأتها بعد ذلك، فكانت كما قالت حفصة، ولكنها كما قالت عائشة نفسها عن نفسها بأنها امرأة غيرى^(٢).

أم سلمة في كنف النبي ﷺ:

ما رأيكم أن تشهد الساعات الأولى لأم سلمة في البيت النبوى الطاهر؟! لقد شرعت منذ اللحظات الأولى تقوم بشئون البيت النبوى، اسمع ما يقوله عنها المطلب بن عبد الله بن حنطب: دخلت أيم العرب — أم سلمة — على سيد المرسلين أول العشاء عروساً، وقامت آخر الليل تطحن^(٣).

هذه البدايات الأولى لأم سلمة، في البيت الذى أذهب الله عنه الرجس، وطهره تطهيراً، وماذا بعد من إشراقات أمنا أم سلمة!؟

(١) رواه أحمد (٣١٣/٦، ٣١٤) النسائى (٦/٨١، ٨٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٩) بتصرف.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/٩٢) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٠٥).

هناك كثير من المواقف الكريمة اللطيفة التي تشير إلى حسن رأيها، وفهمها للأمور فهمًا سليمًا، مراعية بذلك أمر رسول الله ﷺ.

ذكر الإمام مالك رحمه الله ما يشير إلى حصافة رأى أم المؤمنين أم سلمة قال: لما بنى رسول الله ﷺ بأم سلمة قال: ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت لك، وسبعت عندهن - يعنى نساءه - وإن شئت ثلاثًا، ودرت؟ قالت: ثلاثًا^(١).

لقيت أم سلمة رضى الله عنها كل رعاية فى رحاب العطف المحمدى، كما لقي أولادها كل حب وحنو من الحبيب المصطفى ﷺ، وكانت أم سلمة قد جاءت بطفلتها زينب إلى بيت النبي ﷺ، فكان يأتى أم سلمة ويقول: أين زنا ب؟ وكان الحبيب المصطفى ﷺ يداعب الطفلة زينب ويفرهما بعطفه وحنانه، إلا أن عمار بن ياسر وكان أخو أم سلمة من الرضاعة حاء يومًا فانتزع زينب من حجر أمها وهو يقول: دعيها فقد أذيت بها رسول الله ﷺ فأخذها عند ذلك والتمس لها مرضعًا.

شغلت أم سلمة بيت زينب أم المساكين رضى الله عنهما، وأخذت تسعى لمرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله ﷺ، وقد تمتعت بمكانة رفيعة عند النبي ﷺ، وذلك لما كان يرى منها من شدة العناية به، وملاحظة رضاه فى كل شىء، ولم يؤثر عنها، أنها خالطت أمهات المؤمنين بالغيرة منهن، مع أنها - كما أسلفنا - كانت تخشى الغيرة على نفسها، إلا أن الله عز وجل قد أذهب غيرتها ببركة دعاء النبي ﷺ، فلم تعد تغار من الضرائر، وشفى نفسها، وأقر عينها أن ابنتها زينب ربيبة النبي ﷺ، فقد أضححت من أفقه نساء اهل زمانها، ببركة النبي ﷺ، فكان إذا ذكرت امرأة بالمدينة فقيهة، ذكرت زينب بنت أبي سلمة ربيبة المصطفى ﷺ.

وقد شهد ابن عبد البر رحمه الله زينب بالفقه فقال: كانت زينب من أفقه نساء زمانها.

(١) رواه مسلم (١٤٦٠) أبو داود (٢١٢٢).

أُم سَلَمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ:

إن نساء أهل البيت النبوي رضوان الله عليهم، لسنن كأحد من النساء في الفضيلة والفضل والشرف والتقوى، لما منحهن الله عز وجل من صحبة النبي ﷺ الكريم، وعظيم المحل منه، ونزول القرآن الكريم، والذكر الحكيم في حقهن، قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣)

قال الزجاج رحمه الله: يراد به نساء النبي ﷺ .

وقيل: «يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته .

قال القرطبي رحمه الله: الذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنما قال: ويطهركم لأن رسول الله ﷺ وعلياً وحسناً وحسيناً كان فيهم، وإذا اجتمع المذكور، والمؤنث غلبَ المذكور، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت، لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن، يدل عليه سياق الكلام (١).

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: إن الله بقوله: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفت الأقوال في أهل البيت، والأولى أن يقال: هم أولاده، وأزواجه، والحسن والحسين منهم، وعلیٌ منهم، لأنه من أهل بيته، بسبب معاشرته ببنت النبي، وملازمته للنبي ﷺ (٢).

وأم سلمة رضی الله عنها واحدة من أمهات المؤمنين، اللواتي سماهن الله عز وجل: أمهات المؤمنين فقال سبحانه: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (الأحزاب: ٦) ولهذه الأمومة الكريمة تكاليفها، وللمرتبة السامية الباسقة التي استحققت بها هذه الصفة تكاليفها، ولمكانتهن من رسول الله ﷺ تكاليفها، ولذلك قال الله عز وجل في فضلهن: ﴿ يَنْبِئُكَ النَّبِيُّ لَسُنَّكَ أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتِنَّ ﴾ إلى قوله: وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٢ - ٣٤) فهذه آيات شريفة في زوجات نبينا ﷺ.

(١) تفسير القرطبي (٤/١٨٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/١٨١).

وذكر عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾.

قال: نزلت فى نساء النبى ﷺ، ثم قال عكرمة: من شاء باهله أنها نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة.

وبهذا نجد أن البيت النبوى الطاهر، هو المقصود بالطهارة، وهذا تكريم من الله عز وجل، وتشريف واختصاص عظيم، إذ يتولى الله سبحانه بذاته العلية تطهيرهم، وإذهاب الرجس عنهم، وهى رعاية علوية مباشرة بأهل البيت العظيم، الذى اختصه البارى بالخير العميم، وفضله على بيوت الدنيا تفضيلاً.

وفى بيت أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها نزلت هذه الآية الكريمة: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿الأحزاب: ٣٣﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسيره: وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية ^(١).

ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: إنها نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة .

وعلق ابن كثير رحمه الله على هذا القول تعليقا كريما مجودا يشير إلى سعة أفقه وفهمه، فقال: فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ففى هذا نظر .

ويدل ابن كثير رحمه الله على أن أهل البيت النبوى، معروفون كالشمس فى الظهائر، فأزواجه الطاهرات رضى الله عنهن من آله الطاهرين، ويشير ابن كثير رحمه الله إلى التدبر فى الذكر الحكيم لمعرفة ذلك فىقول: ثم الذى لا شك فيه أنه من تدبر القرآن وفهمه، وأن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣) فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥١).

اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ (الأحزاب: ٣٤) أى: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله، فى بيوتكم من الكتاب والسنة واذكرن هذه النعمة التى خصتن بها من بين الناس أن الوحي ينزل فى بيوتكم دون سائر الناس .

ويتابع ابن كثير قوله: وعائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي فى فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

قد بلغت أزواج النبى ﷺ، هذه المنزلة السامية بلطف الله عز وجل بهن، وبخبرته بهن، حيث إنهن أهل لذلك الفضل منه، فقد جعلهن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، وكان جل شأنه بهن خبيراً، إذ اختارهن لرسوله أزواجاً، وكرمهن فى البيت النبوى، فصرن يعرفن ﴿ أَهْلَ ﴾ الْبَيْتِ وأهل البيت هنا فى سياق الآية: نصب على النداء أو على المدح.

قال القاسمى رحمه الله فى تفسيره: والمراد بهم من حواهم بيت النبى ﷺ (١). وذكر أبو السعود رحمه الله فى تفسيره معلقاً على أهل البيت، ومن هم؟ فقال: وهذه كما ترى آية بيينة، وحجة نيرة، على كون نساء النبى ﷺ من أهل بيته . وقد تساءل القاسمى رحمه الله فى تفسيره بقوله: قد تنازع الناس فى آل محمد ﷺ من هم؟! .

وأورد أقوالاً عديدة خلص منها إلى القول الآتى: بأن الصحيح أن أزواجه من آله، فإنه قد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه علمهم الصلاة عليه: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته . ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته، وامرأة لوط من آله وأهل بيته، بدلالة القرآن، فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته؟! ولأن هذه الآية تدل على أنهم من أهل بيته، وإلا لم يكن لذكر ذلك فى الكلام معنى ويمكننا أن

(١) تفسير القاسمى (٣/ ٢٥٠).

نقول الآن: إن زوجات النبي الطاهرات كلهن من أهل البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً .

ويظهر أن أمنا أم سلمة رضى الله عنها كانت تفخر على نساء أهل البيت بشرف نزول هذه الآية الكريمة فى بيتها، وبذلك تكون قد شاركت الصديقة بنت الصديق عائشة بهذه المكرمة العظيمة، حيث كان الوحي ينزل على الحبيب المصطفى ﷺ فى بيتها. ومن مكارم أم سلمة رضوان الله عليها، أن النبي الكريم ﷺ كان يؤدى الصلاة فى بيتها، وقد شهد شاهد من أهلها بهذا، وهو ابنها عمر بن أبى سلمة حيث قال: رأيت النبي ﷺ يصلى فى بيت أم سلمة فى ثوب واحد، متوشحاً به، واضعاً طرفيه على عاتقه .

أُمُ سَلْمَةَ تَحْمَلُ بَشَارَةَ رَبَّائِيَّةٍ وَنَبِيَّةٍ:

لأم سلمة رضى الله عنها مكارم لم تكن إلا لها، كأن هذه المكارم قد اختصت بها من لدن حكيم خبير، فقد حملت بشارة التوبة لأكثر من صحابى كريم، إذ كان ينزل القرآن الكريم على النبي ﷺ وهو عندها ليبشر بتوبة الله على عباده المؤمنين، وتنقل أمنا أم سلمة هذه البشارة إلى أصحابها، ونحن مرسلوا القول فى هذا بمشيئة الله. فى غزوة بنى قريظة، أبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزل يهود قريظة على حكمه — بعد أن خانوا الله ورسوله — فأرسلوا إليه أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصارى لنستشيره فى أمرنا، وكانوا حلفاءه.

فذهب إليهم أبو لبابة، فلما رأوه، قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان ليكون فى وجهه، فرق لهم، وقالوا له: ما ترى، أنزل على حكم محمد؟ .

فقال أبو لبابة: نعم فانزلوا وأوماً إلى حلقه بالذبح.

وفى اللحظة ذاتها شعر أبو لبابة، أنه خان الله ورسوله، فندم وقال فى خوف شديد: إنا لله وإنا إليه راجعون وسربله الندم، وساورته الهموم، وجعل ضميره يؤنبه، ويخزه وخزاً شديداً، فقال له أحد أبحار اليهود: ما لك يا أبا لبابة؟ .

قال فى صوت متهدج وقد غلغه الندم: خنت الله ورسوله .

وملأت الدموع عينيه، ثم انطلق راجعاً على وجهه، فلم يذهب إلى رسول الله ﷺ وإنما ذهب إلى المسجد النبوي الشريف، وكان الحر شديداً يومذاك، ولكن النار التي تتلظى في جوفه كانت أشد حرّاً، وأعظم شراً، ففكرة أنه خان الله ورسوله كانت تلسعه لسعاً يعذبه ولا يكاد يطيق نفسه.

ارتبط أبو لبابة بالمسجد إلى عمود من عمدته بسلسلة ثقيلة، وكان العمود عند باب أم المؤمنين أم سلمة، وكان أكثر تنقل رسول الله ﷺ عند ذلك العمود، وكان ما فعله أبو لبابة غير مألوف، فخف إليه أناس من المسلمين يسألونه الخير، فقال في تأثر وانفعال: والله لا أدوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت، أو يتوب الله عليّ مما صنعت .

ظل أبو لبابة مرتبطاً في العمود تأتيه امرأته أو ابنته فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط، وأقام على ذلك بضع ليال، وجعل أبو لبابة يرهف سمعه لعله يسمع توبة الله عليه، فقد كان على يقين من أن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأنه هو الغفور الرحيم...

نزلت توبة أبي لبابة من فوق سبعة أرقعة... بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَأَخْرُورٌ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢) وقد نزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ، وهو في بيت أم سلمة فقالت أم سلمة رضی الله عنها: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقالت له: مم تضحك يا رسول الله ﷺ أضحك الله سنك؟ .

قال: تَنِيَّبَ على أبي لبابة .

قالت أم سلمة: أفلا أبشره يا رسول الله؟ .

قال: إن شئت .

فقامت أم سلمة على باب حجرتها — وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب —

فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك .

فقالت أم سلمة: فثار الناس، وأسرعوا إليه ليطلقوه، ولكن أبا لبابة أبي، وقال: لا

والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده الشريفة.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلما مر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه، وغمر

السرور أبا لبابة بأن تجاوز الله عز وجل عنه بما أسرف.

صار المسلمون يتلون في بيوت الله ما أنزل الله فيه: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(التوبة: ١٠٢)

وفي غزاة تبوك كان لأم سلمة رضى الله عنها مكرمة أخرى، فقد تخلف ثلاثة من الصحابة الكرام عنها، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكان رسول الله ﷺ، عند أم المؤمنين أم سلمة، لما نزل في شأن هؤلاء الصحابة الثلاثة قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنَوْا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

وقد صور القرآن الكريم حالة هؤلاء النفر، وما هم فيه بسبب تخلفهم عن رسول الله ﷺ، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن الأرض على سعتها، ضاقت عليهم، وهو مثل للحيرة كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه بسبب القلق والجزع الذى يملأ نفوسهم، كما ضاقت عليهم قلوبهم، فأصبح لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم.

روى أحد أولئك النفر الثلاثة، وهو كعب بن مالك خبر تخلفه وصاحبيه عن رسول الله ﷺ، وعن إحسان أم سلمة إليه، واعتنائها بأمره، وعن نزول الوحي عندها، فقال في حديث طويل جاء في الصحيحين وكتب الحديث والسيره، فلنستمع إلى فقرات كاشفة من هذا الحديث.

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعت أبي كعب بن مالك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: أنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ، فى غزوة غزاهها قط غير غزوتين: غزوة العسرة، وغزوة بدر، قال: فأجمعت صدق رسول الله ﷺ ضحى، وكان قلما يقدم من سفر سافر إلا ضحى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين، ونهى النبى ﷺ عن كلامى وكلام صاحبى، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب كلامنا الناس فلثبت كذلك حتى طال على الأمر، وما من شىء أهم إلى من أن أموت فلا يصلى على النبى ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون

من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمنى أحد منهم، ولا يصلى على، فأنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى، معنية فى أمرى، فقال رسول الله ﷺ يا أم سلمة تئيبَ على كعب .
قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟.

قال: إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، أذن بتوبة الله علينا... الحديث(١).
وقد كسبت أم سلمة هذه الفضيلة الأخرى.

وكان لأمنا أم سلمة رضى الله عنها فضيلة أخرى فى هذا المجال من قبل، وذلك أيام فتح مكة المكرمة، إذ كلمت رسول الله ﷺ فى اثنين من الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، وهما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، فقد لقيا رسول الله ﷺ، بموضع بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة رضى الله عنها فيهما، ورحبت أن يصفح عن زلتها فيما مضى، فقالت: يا رسول الله لا يكن ابن عمك، وابن عمك وصهرك أشقى الناس بك قال: لا حاجة لى بهما، أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال فلما بلغها قوله، قال أبو سفيان بن الحارث: والله لتأذن لى، أو لأخذن بيد بنى هذا، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً .

وعندما بلغ ذلك الحبيب المصطفى ﷺ رق لهما، وأذن لهما، فدخلا وأسلما، وإذ ذاك سرت أم سلمة بانضمام هذين الرجلين إلى دوحة الإسلام.

ومما يشبه هذا فى شفاعتها وبشارتها للناس، ما ورد أنها ترضت رسول الله ﷺ على أخيها المهاجر بن أبى أمية، الذى استعمله ﷺ على كندة، وكان قد تخلف بتبوك، فرجع رسول الله ﷺ، وهو عاتب عليه، فبينما أم سلمة رضى الله عنها تغسل رأس النبى ﷺ قالت: كيف ينفعنى عيش وأنت عاتبٌ على أختى؟ فرأت من النبى ﷺ رقة، فأومأت إلى خادمها، فدعت أباها، فلم يزل النبى ﷺ يذكر عذره حتى رضى الله عنه، واستعمله على كندة، فتوفى النبى ﷺ، ولم يسر إلى عمله، ثم سار بعده.

(١) رواه البخارى (٤٦٧٧) مسلم (٢٧٦٩) أبو داود (٤٦٠٠) الترمذى (٣١٠١) النسائى (٥٣/٢).

وهكذا كانت أم المؤمنين أم سلمة سبّاقة في هذا المضمار النفيس، الذي يشير إلى علو همتها، وإلى صفاء نفسها وكرامتها رضى الله عنها.

أم سلمة والجهاد ورأيها الميمون:

من يسر الإسلام، التخفيف عن غير القادرين على القيام ببعض التكاليف الشرعية، ومن ذلك أنه خفف عن المرأة، فلم يكلفها بأعباء القتال، لضعف بنيتها الجسدية، ولذلك سمح لها بأعمال توافق حالها كالسقى، وتجهيز الطعام، ومداواة الجرحى، ونحو ذلك من خدمات ميدانية.

كُتِبَ لأم سلمة رضى الله عنها شرف الجهاد، وشرف صحبة النبي ﷺ في مغازيه، فقد حضرت معه عددًا من غزواته، فكانت معه في صلح الحديبية في غزوة المريسيع، وفي غزاة خيبر، وفي فتح مكة، وفي حصار الطائف، وفي غزوة هوازن وتقيف، وصحبته كذلك في حجة الوداع.

وكان لأم سلمة رضى الله عنها بعض الآثار المحمودة، والمواقف المذكورة في غزواتها، ولعل موقفها الباهر وجزالة رأيها الزاهر في قصة الحديبية، يشير إلى كرامتها ويمن رأيها، وسعة أفقها، ونظرتها إلى الأمور بميزان الشريعة.

ففي المدينة المنورة، رأى النبي ﷺ في الرؤيا أنه دخل مكة، هو وأصحابه آمنين محلّقين رعوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه مع الطائفين...

ولما قضيت صلاة صبح ليلة الرؤيا، جعل رسول الله ﷺ يقص على أصحابه رؤياه وهو بادى البشر، وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بهذه المنة العظمى من الله عز وجل في هذا الصباح الجميل المونق، فقد صاروا جميعًا موقنين أن الفتح قريب، فرؤيا الأنبياء وحى وتعد إخبارًا بما سيكون.

وخرج رسول الله ﷺ لأداء العمرة، وخرجت معه زوجته أم سلمة، وأم عمار المازنية، وأم منيع الأنصارية، وأم عامر الأشهلية وغيرهن، وخرج معه المهاجرون والأنصار، وأحرموا بالعمرة، وارتفعت التلبية من أعماق القلوب تشق صمت الصحراء

ما بين المدينة ومكة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك،
والملك لا شريك لك... .

ولكن قريشاً ركبت رأسها، وصعرت خدها، وأرهفت حدها ومنعت المسلمين من
أداء عمرتهم، ثم جرت مفاوضات أعقبها صلح بين المسلمين والمشركين، وكانت الهدنة
المعروفة بصلح الحديبية، والمشهورة بتفاصيلها في كتب التفسير والحديث والسيرة
والتاريخ والمغازي...

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا، وهم لا يشكون في الفتح بعد أن قص
عليهم رؤياه، فلما انتهى الأمر بالهدنة، وعودة المسلمين إلى ديارهم دون أداء العمرة
هذا العام دخل الناس أمر عظيم، حتى إن عمر بن الخطاب ؓ قال فيما ورد في
الصحيح: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ.

فقلت: يا رسول الله ﷺ، ألسنت نبي الله؟.

قال: بلى .

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟.

قال: «بلى» .

قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟.

قال: إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري .

قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف حقاً؟.

قال: بلى فأخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟.

قلت: لا.

قال: فإنك آتية ومطوف به .

قال: فأتيت أبا بكر...

قلت: يا أبا بكر، أليس هذا حقاً نبي؟.

قال: بلى .

قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟.

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى الله، وهو ناصره، فاستمسك
بغرضه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق .

قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟.

قال: بلى، فأخبرك أنك تأتية العام؟.

قلت: لا.

قال: فإنك آتية ومطوف به... .

ولم يكن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فى ذلك اليوم على شك من شىء وإنما
ظنوا أنهم قد بُخسوا حقهم مع المشركين، وهم المنتصرون الغالبون المتمسكون بحبل
الله عز وجل، ولذلك توجه إليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: قوموا فانحروا ثم احلقوا .
إنهم يسمعونه ويرونه، ولكنهم سمعوه مرة ثانية يقول: قوموا فانحروا ثم احلقوا
ثم كرر ذلك ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد، فلما لم يقم منهم أحد، دخل النبي ﷺ على
أم سلمة، فاضطجع.

فقلت: ما لك يا رسول الله؟ .

فذكر لها أنه أمر الناس بالأمر، فلم يفعلوه، وأمرهم بالحلق والنحر مراراً فلم
يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرون إلى وجهه الشريف.

فقلت أم سلمة رضى الله عنها: أتحب ذلك — أى أن يطيعك أصحابك فيما
تأمرهم به — فأشار ﷺ أن نعم قالت: اخرج، ثم لا تكلم أحداً حتى تتحرر بُذْنَك، ثم
تدعو بحالقك، فيحلقك.

فقام ﷺ، وأخذ الحربة، وقصد هديه، وأهوى بالحربة إلى البدن رافعاً صوته:
باسم الله والله أكبر ثم دخل ﷺ قبة له من آدم أحمر، ودعا بخراش بن أمية بن
الفضل الخزاعى فحلق رأسه.

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم
يقتل بعضاً غمًا.

وبهذا نجا الصحابة الكرام من مخالفة الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك ببركة رأى أم
المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها التى تذكرنا بمواقف أم المؤمنين خديجة عليها

سحائب الرضوان، وإن نسى التاريخ، فلا ينسى مواقف أم سلمة رضى الله عنها، وخصوصاً رأيها الميمون فى ذلك اليوم الذى يقرن باسمها كلما نكر يوم الحديبية ومن المكارم التى اختصت بها أمنا أم سلمة رضى الله عنها، أنها رأت جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبي رضي الله عنه.

ورد عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: أنبئت أن جبريل عليه السلام، أتى نبي الله ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، ثم قام، فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: من هذا؟ أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبي، قالت: كما حسبه إلا إياه، حتى سمعت خطبة نبي الله ﷺ يخبر خبرنا، أو كما قال .

ومن مكارم أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها، أنها كانت تحتفظ بخصلة من شعره الشريف وكان شعره ﷺ مخضوباً بالحناء.

فصاحة أم سلمة وأدبها:

أمنا أم سلمة رضى الله عنها واحدة من النساء اللواتى حفظ الدهر مقامهن، واحتفظ بأثارة من أقوالهن التى تجرى مجرى الحكمة، وهى واحدة من النساء ممن كن يقرأن ولا يكتبن، وهذا مما زاد فى رصيدها العلمى والمعرفى والبلاغى.

وتعود مصادر الفصاحة عند أم سلمة إلى ثقافتها الكبيرة التى نهلتها من القرآن الكريم، إذ أنه منبع الفصاحة وسلسيل البيان، ثم زودت فصاحتها بكلام النبوة، والأدب النبوى الذى غذيت به.

كانت رضى الله عنها إحدى نساء قريش المعدودات فصاحةً وبياناً، وقد أثر عنها أنها كانت تقرض الشعر أحياناً، ومما روى عنها، أنها رثت ابن عمها الوليد بن المغيرة رضى الله عنها قالت:

يا عينُ فابكى للوليد	—	بن الوليد بن المغيرة
قد كان غيباً فى السنيـ	—	ن ورحمة فينا وميرة
ضحخ الدَّسِيعَة ماجداً	—	يسمو إلى طلب الوتيرة
مثل الوليد بن الوليد	—	أبى الوليد كفى العشيـ

فسمع النبى قولها، فقال: ما اتخذت الوليد إلا حناناً فسموه عبد الله .

ولعلك قرأت حديث الهجرة الذي مر معنا، ولاحظت فصاحة أمنا أم سلمة رضى الله عنها وبلاغتها، ومرت معك جملاً من روائع قولها، وبدائع لفظها، حينما قالت عن النجاشي: أقمنا عنده بخير دار، مع خير جار .

وقولها: أمناً على ديننا، وعبداً لله تعالى، لا نوذى ولا نسمع شيئاً نكرهه .
ولأم سلمة رضى الله عنها كلام يفيض فقهاً وعلماً، ويسيل أدباً وذنوباً، كأنه خرج من نبع النبوة، اسمع قولها: من خرج فى طاعة الله فقال: اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا رباء، ولا سمعة، ولكنى خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك، فأسألك بحقك على جميع خلقك أن ترزقنى من الخير أكثر مما أرجو، وتصرف عني من الشر أكثر مما أخاف، استجيبت له بإذن الله .

ولما توفيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، حضرت أم سلمة وفاتها، وجعلت تقول: رحمك الله، وغفر لك، وعرفينك فى الجنة .

والأمثلة كثيرة على فصاحة أمنا أم سلمة، وقد جاء بعضها فى غضون كلامنا عن سيرتها المونقة المبهجة.

العالمة رَاوِيَةُ الْحَدِيثِ:

أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها، إحدى النساء اللاتي أكثرن الرواية عن رسول الله ﷺ، ولم يتقدما فى الرواية من نساء النبي ﷺ سوى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

وأم سلمة رضى الله عنها قد وعت الحديث الشريف، وتفقهت بأمر الدين والشريعة الغراء، حتى كانت تعد من فقهاء الصحابيات، ومن اللواتي يرجع إليهن فى بعض الأمور والأحكام والفتاوى، وخصوصاً فيما يخص فقه المرأة المسلمة، وفيما يتعلق ببعض أحكام الرضاع، أو الطلاق، أو ما شابه ذلك، وقد ورد أن سيدنا عبد الله ابن عباس كان يرسل فيسألها عن بعض الأحكام.

وتعد أم سلمة رضى الله عنها من المتوسطين فيما روى عنهم من الفتيا، وهم ثلاثة عشر، هي أولهم وهم: أم سلمة أمن المؤمنين، أنس بن مالك، أبو سعيد الخدرى، أبو هريرة، عثمان بن عفان، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن الزبير، أبو موسى

الأشعري، سعد بن أبي وقاص، سلمان الفارسي، جابر بن عبد الله، معاذ بن جبل، وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن حزم: ويضاف إليهم طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، عبد الرحمن ابن عوف، عمران بن الحصين، أبو بكرة، عبادة بن الصامت، معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

أما الثروة الحديثية التي أثرت عن أم المؤمنين أم سلمة فتبلغ ثلاث مائة وثمانية وسبعين حديثاً، روتها عن رسول الله ﷺ.

وقد أخرج لها منها في الصحيحين (٢٩ حديثاً) والمتفق عليه (١٣ حديثاً) انفرد البخاري بثلاثة أحاديث، ومسلم بثلاثة عشر وأحاديثها منتورة أيضاً عند أصحاب السنن الأربعة وفي المسانيد، روت أم سلمة عن النبي ﷺ، وعن فاطمة الزهراء رضي الله عنهم أجمعين.

أما الذين روي عن أم المؤمنين أم سلمة فكثر، فمن روى عنها من رجال الصحابة: عبد الله بن عباس، وأبو سعيد الخدري، وابنها عمر رضي الله عنهم.

وأما من روى عنها من نساء الصحابة فعائشة أم المؤمنين، وابنتها زينب رضي الله عنهما.

وروي عنها عدد غفير من كبار التابعين من الرجال منهم: سعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وآخرون...

وأما من روى عنها من عصر الصحابة والتابعين، فكثيرات أيضاً منهم: خيرة أم الحسن البصري، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وصفية بنت محسن وغيرهن...

ومن مرويات أم سلمة رضي الله عنها ما جاء في الصحيح عن هند بنت الحارث الفارسية عن أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت من صواحبها قالت: كان يسلم فينصرف الناس فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ (١).

ومما رواه الشيخان عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله، هل لي أجر في بنى أبي سلمة أنفق عليهم ولست بتاركهم هكذا وهكذا، إنما هم بنى؟ قال ﷺ: نعم لك أجر ما أنفقت عليهم (٢).

ومن مرويات أمنا أم سلمة ما أخرجه لها أصحاب الصحيح والسنن والمسانيد وغيرهم، بسند إلى زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إلي، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار (٣).

وقد نقلت لنا أم سلمة رضي الله عنها صورة عن دعاء رسول الله ﷺ، فيما أخرجه الحافظ أبو يعلى رحمه الله بسنده عن شهر بن حوشب قال: سألت أم سلمة، قلت: يا أم المؤمنين، ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ، إذا كان عندك؟ .

قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .

قالت: فقلت له: يا رسول الله، ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! .

قال: يا أم سلمة، إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، ما شاء الله أقام وما شاء أزاغ (٤).

ومن مروياتها في أهل البيت النبوي، ما رواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أهلوا يا آل محمد بعمره في حج .

(١) رواه البخاري (٨٥٠).

(٢) رواه البخاري، (١٤٦٧) مسلم (١٠٠١) أحمد (٦/٢٩٢).

(٣) رواه البخاري (٦٩٦٧) مسلم (١٧١٢) الترمذي (١٣٣٩) النسائي (٨/٢٣٣) ابن ماجه (٢٣١٧).

(٤) رواه الترمذي (٣١٥٧) وأبو يعلى (٦٩٨٦).

والأحاديث التي روتها أم سلمة رضى الله عنها كثيرة ومنثورة فى كتب الحديث الشريف، ولا يمكن استقصاؤها فى بحثنا هذا، وحسبنا فى هذا المجال ما يدل على فضلها وفضل عائشة رضى الله عنهما، ما ذكره البلاذرى بسنده عن محمود بن لبيد قال: كان أزواج النبي ﷺ يحفظن من حديث النبي ﷺ كثيراً، ولا بمثل عائشة وأم سلمة (١).

وفاة أم سلمة رضى الله عنها:

بلغت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها من الكبر عتياً، وتجاوزت الثمانين، وعاشت الخلافة الراشدة، وامتدت بها الحياة إلى عهد يزيد بن معاوية، كانت حياة أم سلمة مفعمة بالأحداث الكثيرة، ولكن حياة العلم، ورواية الحديث هى الغالبة على حياتها، إذ كانت إحدى المراجع الفقهية فى صدر الإسلام، وكان يؤخذ برأيها. كانت أم سلمة رضوان الله عليها آخر من مات من أمهات المؤمنين الطاهرات، وهى إحدى الصحابييات المعمرات اللواتى تخطين الثمانين، وقد توفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها، وعن بنيتها، وكان بيتها أحد مراكز العطاء العلمى والفقهى للصحابة والتابعين والعلماء فى شتى الأمصار.

وقال ابن أبى خيثمة والذهبي رحمهما الله: عمرت أم سلمة رضى الله عنها حتى بلغها مقتل الحسين الشهيد، فوجمت لذلك وغشى عليها، وحزنت عليه كثيراً، ثم لم تلبث بعده إلا يسيراً، وانتقلت إلى الله تعالى، وذلك فى ولاية يزيد بن معاوية، وكان ذلك سنة إحدى وستين على الصحيح، وقد عاشت نحواً من تسعين سنة رضى الله عنها.

قيل: ماتت وعمرها ٨٤ سنة رضى الله عنها (٢).

ولما توفيت أم سلمة دخل قبرها ابناها عمر وسلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أبى أمية، وعبد الله بن وهب بن زمعة، ودفنت بالبقيع إلى جانب أمهات المؤمنين وأهل البيت النبوى الأطهار.

(١) رواه أحمد (٦/٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٢).

ومن الجدير بالذكر أن أول من مات من أزواج النبي ﷺ بعد وفاته زينب بنت جحش، توفيت في خلافة عمر ؓ، وآخر من مات أم سلمة زمن يزيد بن معاوية سنة ثنتين وستين.

رضى الله عن أم المؤمنين أم سلمة، وجعلها في عباده المتقين، ونفعنا بسيرتها وسيرة أمهات المؤمنين وعفا عنا، وأدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

أم المؤمنين زينب بنت جحش رضی الله عنها

سامها الله مؤمنة بنص القرآن الكريم، وبسببها نزلت آية الحجاب. كانت من عليّة نساء قريش، وكانت ذات يدٍ طويلة في المعروف، تعمل بيدها وتتصدق.

اختصها الله عز وجل بمكرمة فريدة بأن زوجها نبيه ﷺ من فوق سبع سماوات، وجاءت قصتها في القرآن الكريم.

كانت خاشعة متضرعة عابدة راضية، صوامة قوامة، كثيرة الخير والبر والصدقات.

من روايات الحديث النبوي، عاشت (٥٣ سنة) وتوفيت سنة (٢٠هـ) ودفنت بالبقيع رضی الله عنها.

أم المؤمنين زينب بنت جحش^(١) رضی الله عنها

ينبوع الهداية:

جاءت رسالة الإسلام لتنفذ الإنسانية من ضلال الجهل والجاهلية، وتخرجها من المنحدر الذي هوت إليه، لترقى بها إلى نرا أنوار الهداية ونعيمها، وهي تنسكب من أشعة شمس الرسالة الخاتمة لتمسح مآسى الظلم، وتقر الرحمة والعدل، وهي تحمل مصباح الكلمة الإلهية، ومفتاح القلوب إلى البشرية أن اعبدوا الله ربكم الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، وتدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد على بصيرة من الهدى والحق.

امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه حينما أوحى إليه: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) فأخذ ﷺ يدعو أقاربه إلى نور الهدى الربانية، ويأخذ بأيديهم إلى ينبوع الفتوحات الرحمانية، فاستجاب له ثلة من الأقربين ممن فتح الله بصرهم وبصائرهم، وأمنت وصدقته بما أنزل الله عز وجل على النبي ﷺ.

(١) انظر أسد الغابة (٦/ ١٢٥ - ١٢٧) والاستيعاب (٤/ ٣٠٦ - ٣١٠١) والإصابة (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨).

تبرز من بين هؤلاء الأقربين، امرأة سبابة إلى الخيرات، سابقة إلى المبرات، لتأخذ مكانتها في عقد السابقات، عقد الطاهرات الذي يمثل أمهات المؤمنين اللواتي يمثلن البيت النبوي الذي أذهب الله عند الرجس وطهره تطهيراً، وجعله أشرف بيوت الدنيا وأعلاها.

هذه المرأة ممن ذكر القرآن الكريم قصتها، ووردت سيرتها في الحديث النبوي الشريف، لتزداد شرفاً وتشريعاً، كما عطرت بقصتها كتب السيرة، والطبقات، وغيرها، كما أثنى عليها المفسرون والعلماء في ثنايا تفاسيرهم ومصنفاتهم.

والآن ما علينا إلا أن نبحر لاستخراج الكنوز والدرر، من سيرة هذه الكريمة العابدة، إنها أمنا زينب بنت جحش بن رباب الأسدية، ابنة عمّة رسول الله ﷺ أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، وهي أخت حمنة، وأبى أحمد، وعبد الله رضى الله عنهم أجمعين.

قال الإمام البيهقي في دلائله: «زينب بنت جحش بن رباب الأسدية تكنى أم الحكم».

السيدة الشريفة:

كان مولد زينب بنت جحش في مكة المكرمة، إذ ولدت قبل الهجرة بأكثر من ثلاثين سنة.

ترعرعت زينب بين شرف السيادة، وسيادة الشرف، وأنعم الله علينا بالجمال، والحسب الرفيع، والنسب الأصيل، فكانت من عليّة نساء قريش، ومن فضليات النساء في مكة المكرمة.

فمن أخوالها: الحمزة، والعباس، وما أدراك ما الحمزة والعباس رضى الله عنهما. فالحمزة: أسد الله، وأسد الرحمن، وأسد النبي ﷺ، والعباس: كان يمنع الجار، ويبدل المال، ويعطى في النوائب.

ومن خالاتها: صفية بنت عبد المطلب الهاشمية شقيقة حمزة، وأم حواري النبي ﷺ الزبير بن العوام الأسدي، من المهاجرات الأول، وإحدى فضليات نساء الإسلام. وأخوها: عبد الله بن جحش الأسدي، وأبو أحمد بن جحش.

فأما عبد الله، فأحد فرسان مدرسة النبوة الأطهار، وأحد الشهداء الأبرار الأخيار.
وأما أبو أحمد، واسمه عبد بن جحش الأعمى، فهو أحد السابقين الأولين من
المؤمنين، ومن المهاجرين إلى المدينة المنورة، ومن شعراء الإسلام المجيدين، وممن
شهد بدرًا والمشاهد كلها، مع الرسول الكريم ﷺ.

وأختها: حمنة بنت جحش من طليعة السابقات المبكرات، كانت من ثلثة الأولين
السابقين الذين امتدحهم الله بقوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي
جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴾ (الواقعة: ١٠-١٣).

ويتوج هذه السيادة ويشرفها ويضمخها بأطيب الطيب، قرابتها من رسول الله ﷺ،
فهو ابن خالها عبد الله بن عبد المطلب، وجدهما واحد هو: عبد المطلب: سيد قريش فى
زمانه.

إذن فزينب من أوسط العرب دارًا وأعلام نسبًا وأزكاهم حسبًا وأنداهم كفاً
وأكثرهم كرماً وجودًا.

وتدل الأخبار التى وصلت إلينا عن زينب بنت جحش أنها قد تأثرت فى الاعتزاز
والتمسك بنفسها وشرف أسرتها، وجعلها تشعر بشيء من الفخر، حتى إنها صرحت
بهذا مرة عندما قالت: «أنا سيدة بنات عبد شمس» ولكننا سوف نلاحظ فيما بعد كيف
تلاشى هذا الفخر، عندما أصبحت سيدة نساء عبد شمس أمًا للمؤمنين باقترانها من
رسول الله ﷺ، ودخولها رحاب البيت النبوى الكريم، ذلك البيت الذى فجر فيها مكامن
الفضل تفجيرًا، فأثرت الدنيا بفضلها وجودها وتواضعها ومكارم أخلاقها رضى الله
عنها.

المؤمنة المهاجرة إلى الله:

منذ أن أعلن النبى ﷺ دعوته، وأنذر أقرباءه، كانت زينب رضى الله عنها من
السابقات المستجيبات لدعوة الإسلام، فاستضاء قلبها بنور الإسلام ونعم بحلاوة الإيمان،
وعاشت فى أقياء الدوحة الإيمانية سعيدة النفس، رضية القلب بينما حرم مشركو مكة
الخير كله مذجدوا الرسالة المحمدية، وقعدوا بكل صراط يوعدون، ويصدون عن
سبيل الله من آمن به، ويبغونها عوجًا.

أخذ فجار الكفار، يصبون ألوان العذاب على من آمن رجلاً كان أو امرأة، وأرهقوا المسلمين إرهاقاً شديداً حتى شغلوهم بأنفسهم، فناموا نومة المجرم الذى اغترف الإثم، ولكنه آمن القصاص، وظن ألا تناله يد العدالة.

وصبر المسلمون جميعاً صبر الكرام، وتحملوا قسوة المجرمين وظلمهم، وسقطت سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر شهيدة بأيدي فاجر المشركين، فرعون الأمة عمرو ابن هشام أبى جهل، فكانت فى مقدمة ركب الشهداء، وأوذى غيرها من النساء والرجال فى سبيل الله عز وجل.

وقد تحملت زينب بنت جحش، ونساء قومها نصيباً من أذى قریش، حتى هاجر بعضهم إلى الحبشة، ثم عُذِنَ إلى مكة، إلى أن جاء الإذن بالهجرة إلى المدينة وعندئذ هرعوا إلى المدينة ترفع رءوسهم الثقة بالله عز وجل، ويحدوهم نور اليقين وتصاحبهم عناية البارئ.

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة أم القرى زرافات ووحداناً حتى هجرت دور بأسرها، وغلقت أبوابها، وغدت تصفر فيها الرياح، وكان من هذه الدور: دار بنى جحش، ودار بنى مظعون، ودار بنى البكير، هجرها سكانها رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، وكان العدد من النساء كبير.

أورد ابن إسحاق أسماء طائفة منهن فقال: «ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وأم قيس بنت محصن، وجذامة بنت جندل، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيس، وسخيرة بنت تميم، وحمة بنت جحش، رضى الله عنهن أجمعين».

وكان من المهاجرين أبو أحمد بن جحش الذى عبر عن الهجرة بأشعار جميلة، من ذلك قوله يذكر هجرة قومه إلى الله ورسوله:

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ومروتها بالله یرت يمينها
إلى الله تغدو بين منى وواحدٍ ودين رسول الله بالحق دينها
ويقول فى قصيدة أخرى يصف هجرتهم الجماعية، نقتطف منها بعض الأبيات

المعبرة الموحية:

لما رأتنى أم أحمد غادياً بزمة من أخشى بغيب وأرهبُ

تقول فإما كنت لا بد فاعلاً
فقلت لها بل يثرب اليوم وجهنا
إلى الله وجهى والرسول ومن يقم
دعوت بنى غنم لحقن دمانهم
أجابوا بحمد الله لما دعاهم
وَرِعْنَا إِلَى قول النبي محمد
فيمم بنا البلدان ولتنا يثربُ
وما يشأ الرحمنُ فالبعدُ يركبُ
إلى الله يوماً وجهه لا يخيبُ
وللحق لما لاح للناس ملحبُ
إلى الحق داع النجاح فأوعبوا
فطاب ولاة الحق منا وطيبوا

مع الأنصار في المدينة:

في المدينة المنورة وجد المهاجرون إخوانهم الأنصار يؤثرونهم على أنفسهم فطابت قلوبهم، فقد أكرمهم الأنصار، وآوهم وآسوهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة الأهل والعشيرة.

إن هذه الهجرة الجماعية، أثارت المشركين، ولكن ملاً الفجار لم يعترفوا بأنهم السبب في ذلك، فهم يجرمون، ويرمون الوزرَ على أكتاف غيرهم، ويقهرون المستضعفين، ومع ذلك يتهمون الحبيب المصطفى ﷺ، بأنه سبب الشتات والشقاق في قريش.

ذكر ابن إسحاق رحمه الله في السيرة «أن عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، مروا وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستتركها النكباء والحب

ثم قال: أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها... فقال أبو جهل وهو يشير إلى العباس: هذا عمل ابن أخيك هذا، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا».

إن أبا جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبيعته العدوانية، وتبرز نفسه الحاقدة، على رسول الله ﷺ ولكن الله عز وجل متم نوره ولو كره أبو جهل ومن معه من المشركين.

فى المدينة المنورة أخذت زينب بنت جحش مكانتها بين المؤمنات، وفى سجل الأوائل كانت زينب رضى الله عنها من المهاجرات الأول(١).
هذه الأولية المباركة فى الهجرة جعلت لها ذكراً حسناً فى نساء الأنبياء، ونساء الصحابة الكرام رضى الله عنهم أجمعين.

نَفَحَاتُ زَيْنَبِیَّةَ:

حينما تملك الإيمان قلوب المؤمنين، راحت قلوبهم التى استودعت بذور الإيمان تنبت بالخيرات، كما ينزل الوابل الصيب على التربة البكر الخصبة ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْتَبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴾ (الحج: ٥).
فالإيمان بالله عز وجل قوة سامية فاعلة، إذا استمكنت شعاب القلب، وتغلغلت فى أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكناً، وزينب بنت جحش رضى الله عنها، واحدة من فضليات النساء، ممن لامست قلوبهن نفحات الإيمان، فجعلت منهن فراند ودرراً لا تتكرر فى الدنيا، وقد صقل وازع الإيمان ورحيق الإخلاص نفسها فجعلها من سيدات نساء الدنيا فى الدين، والورع، والجود، والمعروف، وناهيك بالورع عند المرأة لتكون من الفضليات!.

وقد رشحتها هذه الصفات الكريمة، لتنظم فى سلك الدرر الثمين، وتغدو واحدة من أمهات المؤمنين، وإحدى نساء أهل البيت التقى النقى بل اختصها بمكرمة متفردة بها، إذ أنكحها رسوله فى السماء، فهل بعد هذا من مفخر؟!.

إن الإيمان الذى أضاء نفس زينب، رفعها مكاناً علياً فى مقام الصلاح، وفى محراب العبادة فكانت صوامع تقوم الليل، تتاجى ربها، تبكى خوفاً وطمعاً ولم تتوقف عند هذا الحد فحسب، وإنما كانت بارة بمن حولها من الناس، ومن الذين يطلبون المعروف عند أهله، فكانت رضى الله عنها كهفاً وملأداً للمحتاجين، تسخو عليهم من جودها حتى غدت مثلاً فى الكرم الزينبى المرفود بالكرم النبوى.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١).

زينب في القرآن الكريم:

في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، شهد الله عز وجل لزينب بنت جحش بالإيمان، ودعاها «مؤمنة» بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

فالمؤمنة هاهنا زينب بنت جحش رضی الله عنها، المرأة الحسبية الشريفة التي اختيرت من بين نساء الصحابة، لتكون المثل العملي لتحطيم الموروثات الجاهلية التي صحح الإسلام الحنيف مفاهيمها.

تُرى، ما شعور زينب؟ وما الإحساس الذي ساورها يوم أن عرض عليها رسول الله ﷺ الزواج من مولاه زيد بن حارثة ﷺ؟.

هلموا، فنقف وقفة إكبار أمام هذه المؤمنة التي استكانت لأمر الله وقضائه وقدره، وغذاؤها بذلك رحيق الإيمان الذي قامت عليه نفسها، فصارت لا ترى إلا من خلاله، وكانت تزن أمورها بميزان التقوى، ذلك الميزان الذي لا يخسر معه أحد... تقول المصادر الوثيقة المتعددة: «إن سيدنا وحبیبنا محمدًا ﷺ، قد خطب زينب بنت جحش ابنة عمته، على زيد بن حارثة مولاه، وسمعت زينب حديث الخطبة هذه لزيد مولى رسول الله ﷺ، فدهشت ولم تتوقع ذلك أبدًا وأخذتها الأفكار المتصارعة ذات اليمين وذات الشمال، وراحت بها إلى الماضي... ولكن نسبها الرفيع همس في وجدانها قائلاً: «إن زيد بن حارثة مولى من الموالى، وهل يكون المولى من الأكفاء لذات الحسب والنسب والشرف»؟!.

وندت منها كلمة، فقالت للرسول ﷺ: «لا أتزوج أبدًا، وأنا سيدة عبد شمس». وفي رواية ابن سعد رحمه الله قالت: «يا رسول الله ﷺ، لا أرضاه لنفسى، وأنا أيمُّ قریش».

وشاركها في هذا الرأي أخوها عبد الله بن جحش، ورفض أن تكون أخته زينب، وهي قرشية حسبية أصيلة وابنة عمه النبي ﷺ، وزينة نساء قریش، تحت مولى من الموالى، اشترته خديجة بنت خويلد، ثم وهبته لرسول الله ﷺ، الذي أعتقه، ومنَّ عليه

بشرف الانتساب إليه، فكان يدعى: زيد بن محمد، إلى أن أمر الله أن يدعى كل واحد لأبيه.

فكر عبد الله بن جحش في هذا كله، وفكر بأخته زينب فرأى في هذا الزواج عاراً كبيراً عليها، فقد كانت الأعراف والتقاليد عند العرب لا تسمح بهذا أبداً، إذ لم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من الموالى، وإن اعتقوا وصاروا أحراراً. بيد أن الإسلام الحنيف، أراد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة على سوق هزيلة في نفوس تغلغلت فيها العصبية وحدها، وأعمتها قيود التقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد...

أراد الإسلام أن يدرك الناس جميعاً أن لباس التقوى ذلك خير، وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فانه عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

أما الحبيب المصطفى ﷺ فقد كان يرى أن زينب ابنة عمته هي التي تحتل هذا الخروج عن تقاليد العرب، والقضاء على عاداتها، وكان رسول الله ﷺ يعلم أن تقاليد الجاهلية لم تتلاشى من نفوس المسلمين بعد، إذن، فليكن مولاه زيد بن حارثة زوجاً لها، وقال لها: «بل فانكحيه، فإنى قد رضيت لك».

وقبل أن تتردد زينب في هذا نزل قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

لم يبق أمام زينب وأخيها عبد الله بعد نزول هذه الآية، إلا الامتثال وإلا الإذعان لامر الله وقضائه وإلا: ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦) وهنا قالوا: «رضينا يا رسول الله» وانفردت زينب بقولها: «قد رضيت يا رسول الله منكحاً» فأجاب الحبيب المصطفى ﷺ: «قد رضيت لك» قالت زينب رضيت قالت زينب رضيت الله عنها ورشحات الإيمان والتسليم تقطر من كلامها: «إذن لا أعصى رسول الله ﷺ وقد أنكحت نفسي».

ساق زيد بن حارثة ﷺ إلى بنى جحش عشرة دنانير وستين درهماً، ودرعاً، وخماراً، وملحفة وإزاراً، وخمسين مئداً من الطعام، وعشرة أمداد من التمر، أعطاه ذلك كله الحبيب المصطفى ﷺ.

وبنى زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش سلیلة الشرف فی قریش، زینب التي كانت تعتز بنسبها، وذلك لتقرير حقيقة المساواة بين البشر، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن ليس لحر على عبد من فضل إلا بالتقوى.

رضيت زينب بنت جحش رضى الله عنها قضاء الله عز وجل، وقضاء رسوله الكريم ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، رضيت وقبلت أن تتزوج زيدا، فقد كانت مؤمنة صادقة الإيمان، شهد الله لها بالإيمان، وهذا أعلى ما تطمح وتطمع به: مرضاة الله عز وجل، ومرضاة الرسول ﷺ، وهذا هو الفوز العظيم.

استكانت زينب للأوامر الإلهية الصادرة من لدن حكيم خبير، فعدت بطاعتها سيدة من سادات النساء فى عصر النبوة، رضى الله عنها.

﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ﴾:

بنى زيد بزینب رضى الله عنهما، وأكد الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بميزان التقوى، فالناس جميعهم لآدم، وآدم من تراب، ومن أراد أن يتفاخر، فليتفاخر بالتراب، كان زيد بن حارثة ﷺ أفطس الأنف، ولم يكن جميل الصورة، فلم ينشرح له قلب زينب رضى الله عنها، ولم يكتب للبيت الزينبى الزيدى الوفاق، ولم تخفق فوقه أجنحة السعادة، بل وهت العلاقة بينهما، فبعد أن صارت زينب إلى زيد، لم يسلس له قيادها، ولم تنس إياها، بل شمخت عليه وتعالته، وتعمدت إيلام قلبه بالتعالى عليه فى النسب والحرية.

آلم زيد هذا النفور الزينبى، ولما كان زيد ربيب النبى ﷺ، فقد غذى على الكرامة ونشأ عليها، وأبى أن يرتبط بهذه التى زهدت فيه، واشتكأها إلى النبى ﷺ مرة بعد مرة يقول له: «يا رسول الله، إن زينب تتعظم على لشرفها، وإن فيها كبراً، وهى تؤذيني بلسانها».

كان الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه في خلقه السمح، وسجاياه الطاهرة، يهدد من آلام زيد ومتاعبه ويقول له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

ويرجع زيد إلى زينب، وتكون الحالة هي هي، أو قريبة من هي، فيذهب إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه أن يطلقها، ولكن رسول الله ﷺ يقول: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ كان في ذلك حكمة بالغة من الله عز وجل، الذي أراد أن تتلاشى تقاليد الجاهلية وتندرس آثارها، ويسود شرع الإسلام الذي ارتضاه الله عز وجل للناس، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَىٰ الْأَشْيَاءِ إِتْقَانًا ﴾ (آل عمران: ١٩) لقد حطم زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش رضى الله عنهما حلقة متينة من تقاليد الجاهلية: ترفع السادة عن الزواج من العبيد، وإن كانوا أتقياء، وكانوا أكفاء...

وكان هناك حلقة أخرى، كتب على الرسول الكريم ﷺ أن يحطمها، فقد كان العرب قبل الإسلام، لا يتزوجون أزواج أديعائهم إذا قضوا منهن وطراً.

كانت زينب رضى الله عنها كارهة البقاء مع زيد، وكان زيد يأتي رسول الله ﷺ يلتمس منه أن يوافق على طلاق زينب، وكانت الحكمة تقضى أن يقبل ﷺ ذلك الفراق، وأن يخطب ابنة عمته لنفسه، لتتم شريعة الإسلام، وتتحطم حلقات الجاهلية الواهية، وليعوضها عن تضحيتها الغالية: إطاعة الله ورسوله، ولكنه كان يخشى الناس، فقال لزيد: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾.

أصبحت الحياة بين زينب وزيد لا تطاق، وكان لا بد من الطلاق، إلى أن أتى أمر الله عز وجل، وغلب على ذلك كله، فسمح لزيد بطلاقها، بعد أن استحال جو البيت جحيماً كما قال تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَالِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وقد أنزل الله عز وجل على الحبيب المصطفى محمد ﷺ في الكتاب العظيم مفخرة المفاخر التي زكاه بها فيما زكى إخوانه المرسلين، وهو ﷺ صاحب المقام المحمود في هذه التزكية المنيفة، فقال له متلطفاً به في أشد مضايق موافقه في رسالته: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٥﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى
بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿الأحزاب: ٣٨، ٣٩﴾.

تم الأمر الإلهي المقدر، ونفذ رسول الله ﷺ ما أمره ربه في غير حرج، فلما
انقضت عدة زينب، قال النبي ﷺ لزيد: «أذهب فاذكرها علي». فأنطلق حتى أتاها وهي تخمر عجبها وقال لها: «أبشري أرسلني رسول الله ﷺ
بذكرك».

قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل ثم قامت إلى مسجدها، ونزل
القرآن الكريم، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن^(١). وهكذا زوج الله عز وجل هذه المؤمنة بنص كتابه بلا ولي، ولا شاهد، وكانت
زينب رضى الله عنها تقول مفتخرة بذلك على أمهات المؤمنين: «زوجكن أهاليكن
وزوجنى الله من فوق سبع سماوات»^(٢).

والآن، فلا بد لنا من وقفات شافية مع هذه القصة العظيمة حتى نعرف كيف طهر
الله عز وجل المجتمع المسلم من رجس مفسدة اجتماعية، لا تتحقق إلا بعزيمة الرسول
الكريم ﷺ.

مَنْهَجٌ قَوِيمٌ:

شرفت السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضى الله عنها بأشرف مقامات القرب من
رسول الله ﷺ، فكانت أمًا للمؤمنين بزواجه ﷺ منها وضعا للأمر في مواضعها.
فقد كان العرف الجاهلي بأباطيله وشروبه ومفاسده، يجعل من الدعى ابناً، ويعطيه
خصائص النبوة الحقيقية في أمور تجرُّ على المجتمع من الشرور والأسواء والويلات
ما لم تؤمن مغباته وعواقبه على حياة الأمة في حاضرها وفي مستقبلها.
وكان من أظهر مفاسد هذا العرف الباطر: التعاير بتزويج الرجل الحسيب النسب
زوجة دعيه إذا طلقها الدعي باعتقادٍ وإيه أن الدعي هو ابن حقيقي من الصلب، فأراد

(١) رواه مسلم (١٤٢٨) / أحمد (١٩٥ / ٣) / النسائي (٧٩ / ٦) / (٨٠).

(٢) رواه البخارى (٧٤٢٠).

الله عز وجل أن يبطل هذا العرف الفاسد المفسد، وهذا الموروث الباطل الذى يبدد أواصر المجتمع، لم يكن من يتحمل ثقل هذا الإبطال، سوى رسول الله ﷺ، فهو أقوى إرادة، وأمضى عزمًا، وأعظم نفسًا، وأطهر ذيلًا وهو الأسوة المتأسى به فى امتثال تطبيق الأحكام الشرعية، وهو القدرة التى تجرى على سننها أمته، وهو مهبط الخطاب الإلهى فى جميع الأحكام الربانية.

من هذا المنطلق، كان الرسول الحبيب ﷺ، هو المختار لتصحيح أباطيل الجاهلية، ومفاسدها فى واقع الحياة فقيل له: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بنعمة الإيمان والإسلام، وكفالتك إياه، وتحبيبه إليك وَأَنْعَمْتَ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق والحرية والرعاية، وإحسان التربية والاختصاص بك، فكان حبك مولاك، ولم يكن أبنا لك من صلبك.

ثم إن زيدًا وهو يعرض عليك ثقل الحياة الزوجية فى بيته مع زوجته، وما يلقى من مرارة فى عشرته معها، ويشاورك مستأذناً فى مفارقتها بعد يأس منه فى حسن الموافقة فتقول له متلطفًا: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ لأنك منبع التلطف والإحسان، تأبى عليك نفسك الزاكية، وتأبى عليك مكارم أخلاقك أن تشير على زيد، بفصم عرى ما عقد الله، بينه وبين زوجته من وشائج كان من حقها أن يظلمها الود والسكون، وهما منك فى القرب الودود، بمكانهما الذى لهما عندك، ولهذا كنت تقول له بلطف ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

إنه لم يكن هنالك قط أمر من الله لك بتطليقها من زيد، وإن تكن قد سبقت إليك لوائح إشارتنا، إذ قطعنا وشائج الجاهلية المزورة بين الدعوى ومتبنيه بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤).

ولقد أوضحنا الحق الذى جعلناه نهجًا فى واقع الحياة بتصحيح وضع هؤلاء الذين شذت بهم الحياة نهجها القويم، رفعًا لخسيصة ألصقت بهم إصاقًا، فنفتهم عن آبائهم ونفت آباءهم عنهم، وباعدت بينهم، ثم وصلنا ما قطعه الجهل فى الجاهلية بأعرافها الفاسدة المفسدة، وقلنا لك حتى تعلم أمتك: ﴿ آدَعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥) لأنه الحق، ولأنه سبيل الخير الذى يهدى إليه الله فى شريعته المنزلة لإقامة منار العدل: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥) فلا ضيعة لهم عند الله، ولا ضيعة

لهم في مجتمع الإسلام، لأنهم إخوانكم في الدين الذي جمعت وشيجة الإيمان بين سلالته من جميع الأجناس والأوضاع ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠) وهم بهذا الإخاء الإيماني مواليكم، وأقرب الموالين لكم، يناصرونكم وتناصرونهم على البر والتقوى، فهم أحق بالإكرام والإحسان.

ولكنك في هذا التلطف مع مولاك، أخفيت في نفسك لوايح الإشارة فيما أنزلناه عليك من قطع وشائج الجاهلية الكاذبة التي عقدها بأهوائهم وشهواتهم بين المتبني ومتبنيه، وما يترتب على قطع تلك الوشائج الجاهلية المخترقة من إصلاح اجتماعي في مجتمع رسالتك، لتكون أنت مصدره ومنبعه، والمتأسى به فيه في التطبيق الواقعي الذي يقوم أود الحياة، وعوج مناهجها.

﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾

في أمر تحطيم التقاليد الجاهلية، جاء الخطاب الإلهي صريحاً للناس كافة بأن محمداً رسول الله، وكل ما يتقوله المتقولون والمنافقون والذين في قلوبهم مرض، من أن محمداً ﷺ ينهى عن زوجات الأبناء، ويتزوج هو زوجة ابنه زيد، كل هذا ليس له قيمة في ميزان العدل الإلهي، بل ليس له مكانة في المجتمع الإسلامي، ولا يؤثر على سير الرسالة، وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وأوضح الله عز وجل أن الأدياء ليسوا أبناء، فالكلام وإن تعارف عليه أهل الجاهلية لا يغير واقعاً، بل لا يخلق علاقة غير علاقة الدم، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤).

وقد أجمع أهل التفسير على أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أنزل في سيدنا زيد بن حارثة وغيره لأن زيذاً سبياً وهو صغير، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ؓ، فوهبه لعمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضی الله عنها، فوهبته خديجة للنبي ﷺ، فأعتقه، ثم تبناه، فأقام زيد عند النبي ﷺ مدة، ثم جاء أبوه وعمه في فدائه، فقال لهما الحبيب المصطفى ﷺ: «خيراه فإن اختار كما فهو لكما دون فداء».

فاختار زيد الرق مع رسول الله ﷺ على حريته، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش اشهدوا أن زيدًا ابني أرثه ويرثني».

ولما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش التي كانت امرأة زيد بن حارثة الذي تبناه النبي ﷺ قالوا: «تزوج محمد امرأة ابنه» فكذبهم الله عز وجل في ذلك، ورد علاقة النسب إلى أسبابها الأصلية الحقيقية، وهي علاقة الدم، والأبوة، والبنوة الواقعية، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤).

وهكذا قضى على تلك العادة الذميمة المذمومة التي لا تستند إلى حقيقة أو شريعة، وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هي المرأة التي أكرمها الله عز وجل بهذا، وذكر قصتها في كتابه العزيز منبهاً إلى فضلها، ولذلك كانت تقول: «إن الله أنكحنى فى السماء». رواه البخارى.

أما زينب وآية الحجاب:

روى البخارى ومسلم والإمام أحمد والترمذى، عن أنس بن مالك ؓ، قصة نزول الحجاب صبيحة عرس أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها، وسنعمتد رواية البخارى إذ أخرج بسنده عن سيدنا أنس بن مالك ؓ قال: «بنى على النبي ﷺ بزینب بنت جحش، بخبزٍ ولحم، فأرسلتُ على الطعام داعيًا، فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعو، قال: «فارفعوا طعامكم» وبقي ثلاث رهط يتحدثون فى البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله فيك، فنقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ، فإذا ثلاث رهط فى البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أخبر أن القول خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجة، أرخى الستر بينى وبينه وأنزلت آية الحجاب»^(١).

(١) رواه البخارى (٤٧٩١) مسلم (١٤٢٨) الترمذى (٣٢٧٠).

وتعالوا نقرأ معا آية الحجاب التي نزلت يوم أن تزوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين زينب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

والآن، لنقرأ هذه التفريفة الجميلة التي تتحدث عن زواج زينب رضى الله عنها ونزول آية الحجاب:

دخل النبى بزینب وانحل شرع الجاهلین
 یوم الدخول بها إلى القرآن والنور المبین
 قد أبطل القرآن ما كانوا له متوارثین
 بطل التبنی كان شرعاً فی العهود السابقین
 أيضاً وقد ضرب الحجاب على نساء المسلمین
 فخرّ لزینب أصبحت من أمهات المؤمنین
 والفخر أكثر زوجت من أمر رب العالمین
 قالت لخير الخلق يوماً یا إمام المتقین
 أنا لست مثل ضرائرى فی منطق المتفاخرین
 أبأوهن وإخوة كانوا لهن مزوجین
 أما أنا فبلا ولى أو شهود شاهدین
 الله زوجنى لخبر الأنبياء المرسلین

ونود أن نشیر إلى أن هذه الآية الكريمة تفید أن كلمة حجاب تعنى: «الشىء يحجز بين طرفین، فلا یرى أحدهما الآخر، أى تتعدم معه الرؤیا تماماً، ولا يمكن أن یغنى أن لباساً یلبسه إنسان، لأن اللباس أياً كان قدره ونوعه — ولو ستر جميع بدن المرأة حتى وجهها — فلن یمنع هذه المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن یمنع الناس أن یروا

شخص المرأة وإن تسربلت بالسواد من قمة رأسها - مع وجهها - حتى أخمص قدميها، والحجاب الوارد في قوله عز وجل: **فَسَلُّوهُنَّ** ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٣) هو الستر الذي يكون في البيت، ويرخى ليفصل بين مجلس الرجال ومجلس النساء».

ولعل حديث الفاروق عمر رضي الله عنه يوضح المفهوم الذي أردناه من كلمة الحجاب، فقد أخرج البخاري بسنده عن أنس قال: «قال عمر رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب»^(١).

ويظهر أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان تواقاً لإلزام النساء بالحجاب حتى تحفظ المرأة حفظاً سليماً، ويظهر إخلاصه في هذا برغبته في أشياء تنفع المسلمين عامة، وأشياء تتعلق بنصيحته لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وإحداهن ابنته حفصة أم المؤمنين، إذ كان يود لو نزل ما يشفى غليله في الحجاب، وقد أكرمه الله عز وجل في هذا لإخلاصه، وعن هذا الإكرام يتحدث سيدنا عمر فيما أخرجه البخاري رحمه الله بسنده عن حميد عن أنس قال: قال عمر: وافقت الله في ثلاث - أو وافقتني ربي في ثلاث - قلت: يا رسول الله، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى.

قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساته، فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نساته قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ (التحريم: ٥) الآية^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٣).

من الفضائل الزينية:

لا تزال نسمات البركات تهب علينا ندية رقيقة، ولا تزال بركة أمتنا زينب بنت جحش تقطر على المؤمنين من فيضها منذ اليوم الأول لدخولها في رحاب البيت النبوي الطاهر.

فعندما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش أولم عليها، وأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، ثم أهدت له أم سليم بنت ملحان الأنصارية طعاماً ليلة دخوله بها فأطعم منه خلقاً كثيراً، وبورك في هذا الطعام.

فهللوا بنا إلى مائدة الحديث الشريف نفترف منها بعض مكارم تلك الليلة المباركة.

روى الأئمة: البخارى ومسلم والترمذى والنسائى رحمهم الله عن أبى عثمان واسمه الجعد عن أنس بن مالك ؓ قال: كان النبي ﷺ عروساً بزيب، فقالت لى أم سليم أمى: لو أهدينا لرسول الله ﷺ هدية، فقلت لها: افعلى، فعمدت إلى تمر وسمن وأقط، فاتخذت حيسة فى برمة، فأرسلت بها معى إليه، فانطلقت بها إليه، فقال لى: «ضعها» ثم أمرنى فقال: «ادع لى رجالاً سماهم وادع لى من لقيت» قال: ففعلت الذى أمرنى، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، فرأيت النبى ﷺ وضع يده على تلك الحيسة، وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة، يأكلون منه، ويقول لهم: «اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه».

قال: فأكلوا حتى شبعوا.

قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة، حتى أكلوا كلهم.

فقال لى: «يا أنس ارفع».

قال: فرفعت، فما أدرى حين وضعت كان أكثر، أم حين رفعت^(١).

وسأل الجعد أنس فقال: عدد كم كانوا؟!.

فقال أنس: «زهاء ثلاث مائة».

(١) رواه البخارى (٥١٦٣) مسلم (١٤٢٨) الترمذى (٣٢٧٢) النسائى (١٣٦/٦)، (١٣٧).

وتكثير الطعام صبيحة عرس زينب يشير إلى بركتها رضى الله عنها، كما أن ذلك معلماً واضحاً من علامات النبوة.

القرآن وزينب وعائشة وحفصة:

دخلت زينب بنت جحش رضى الله عنها البيت النبوى الطاهر، وقد سبقتها إليه عائشة بنت الصديق وحفصة بنت عمر رضى الله عنهم أجمعين.

كانت زينب وضيئة الشكل جميلة الطلعة صافية النفس، نزل القرآن فى شأنها، كما كانت ورعة همها من دنياها مرضاة الله عز وجل ومرضاة رسوله ﷺ وقد شهدت السيدة عائشة رضى الله عنها لزينب بذلك كله، كما ورد فى الصحيح قالت: «وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ»^(١).

وروى أبو بكر بن أبى خيثمة رحمه الله من طرق عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لم يكن أحد من نسائه يسامينى فى حسن المنزلة عنده غيرها تعنى زينب بنت جحش».

وكان الحبيب المصطفى ﷺ يمكث عند زينب، فقد كانت تعجبه صفاتها، وشمائلها الكريمة، وربما أطال الجلوس عندها فقد كانت زينب رضى الله عنها، تحب أن تسقيه العسل، ويظهر أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما قد طرقت الغيرة أبوابهما، وتسلفت إليهما، وأسرت كل واحدة إلى الأخرى ما بنفسها من الغيرة تجاه زينب فتواصت عائشة وحفصة أن تحتالا ليخفف النبى ﷺ من زيارته لها، فماذا كان؟.

نزل القرآن الكريم لينصف زينب رضى الله عنها وها هى ذى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تروى خبر ذلك:

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عند أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير إنى أجد منك ريح

(١) رواه البخارى (٤٧٥٠) مسلم (٢٧٧٠).

مغافير، قال: «لا، ولكنى كنت أشرب عسلاً عد زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبرى بذلك أحدًا»^(١).

وعند ذلك نزل قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا﴾ (التحریم: ١ - ٤) لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ (التحریم: ٣) لقوله: «بل شربت عسلاً ولن أعود له، وقد خلفت فلا تخبرى بذلك أحدًا يبتغى مرضاة أزواجه، فيعنى بقوله: «ولن أعود له» على جهة التحريم.

وبقوله ﷺ: «حلفت» أى بالله، بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ يعنى العسل المحرم بقوله: «لن أعود له» و ﴿تَبْتَغِي مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أى تفعل ذلك طلباً لرضاهن: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لماً أوجب المعاتبه، رحيم برفع المؤاخذه. وبعد هذا التوجيه القرآنى من العليم الخبير، الذى حث عائشة وحفصة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ ثابت كل واحدة منهما، وعرفت مكانة زينب رضى الله عنها وصفاءها وحسن نيتها.

الخاصة المتضرعة:

ارتقت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها مكانة عليا فى سماء المجد، ونالت أعلى مقامات القرب والشرف منذ دخولها البيت الطاهر، وحظيت بالمكانة اللائقة عند النبى الكريم ﷺ، فقد حباها الله عز وجل من كريم الصفات، وجميل المآثر ما جعلها قدوة بين النساء.

اقتبست زينب أم المؤمنين رضى الله عنها كثيراً من أخلاق رسول الله ﷺ، فكانت تحذو حذوه فى طرق الخير وخصوصاً الزهد فى زخرف الدنيا، فالآخرة خير وأبقى، كانت كريمة اليد، سخية النفس، لها أخبار عطرة فى الجود والزهد.

(١) رواه البخارى (٤٩١٢) مسلم (٢٤٧٤).

وكان رسول الله ﷺ يعرف هذه الخصلة الحميدة في زينب، فكان يحلها من نفسه مكاناً عظيماً، وقد أثنى عليها بأنها من أصحاب المعروف، فكان ﷺ يخبر أزوجه بأنها أطولهن يداً في المعروف.

أخرج مسلم رحمه الله بسنده عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: «قال رسول الله ﷺ: «أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً»».

قالت: فكان يتناولن أيتهن أطول يداً.

قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق»^(١).

وفي حياة زينب مع الرسول ﷺ وقفات رائعة، فقد أثنى عليها النبي ﷺ بحسن الخشوع والعبادة.

عن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ؓ: «إن زينب بنت جحش أواهرة» قيل: يا رسول الله، ما الأواهرة؟.

قال: «الخشاعة المتضرعة» (إن إبراهيم لحليم أووه مئيب) (هود: ٧٥) كانت زينب أم المؤمنين رضى الله عنها كثيرة، الصلاة، خاشعة القلب، موصولة دائماً بالله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يحب هذه الصفات العالية فيها، وتعجبه صلاتها وصلتها بربها عز وجل.

روى الطبراني رحمه الله عن راشد بن سعد الحبراني قال: دخل رسول الله ﷺ منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب بنت جحش تصلي، وهي تدعو في صلاتها، فقال النبي ﷺ: «إنها الأواهرة».

وكان ﷺ يكثر من الثناء عليها بقوله: «إنها لأواهرة» وكفى بشهادة رسول الله ﷺ لتجعلها في مكانة سامية في سدة العبادة والصلاة.

ولله در أبي نعيم الأصبهاني إذ أصاب بقوله في مفتتح ترجمته لزينب رضى الله عنها فقال: «الخشاعة الراضية، الأواهرة الداعية».

وكانت زينب رضى الله عنها تعرف مدى ارتباطها بالرسول ﷺ، وتدرك قيمة الوشيجة التي أحلتها حظوة ومكانة عنده، فكانت تقول للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني لأدل

(١) رواه مسلم (٢٤٥٣).

عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدى وجدك واحد، وإنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام».

ومن المتوقع أن أمنا زينب رضوان الله عليها، كانت تفاخر أمهات المؤمنين الأخريات، بما اختصت به من عزة الشرف، وشرف المحتد، وكرم المكانة، وفي زواجها الميمون فتقول: «أنا أكرمك ولياً، وأكرمك سفيراً، زوجك أهلكن، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات».

وخلال حياة أم المؤمنين زينب مع رسول الله ﷺ، كانت ترافقه فى الجهاد، فقد كانت معه فى حصار الطائف، وفى غزاة خيبر، وذكر ابن سعد والذهبي رحمهما الله «أن رسول الله ﷺ أطعم زينب بنت جحش بخير مائة وسق».

ورافقته زينب رضى الله عنها فى حياة العبادة والطاعة، فى حجة الوداع كانت من نساء الطاهرات، وقال ﷺ لهن يوم إذ: «هذه ثم ظهور الحصير» فكانت نساء النبى ﷺ يحججن سوى أم المؤمنين سودة بنت زمعة وزينب بنت جحش قالتا: «لا تحركنا دابة بعد رسول الله ﷺ، وفى رواية الإمام أحمد، أنهما كانتا تقولان: «والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ».

لم تخرج زينب أم المؤمنين من بيتها وهى ملتزمة بالذى أوصاها به ﷺ وسائر أزواجه، أخرج محمد بن سعد رحمه الله فى طبقاته قال: لم تحج زينب بنت جحش بعد حجة رسول الله ﷺ التى حجتها معه حتى توفيت فى خلافة عمر سنة عشرين، وكانت زينب قد عملت بوصية رسول الله ﷺ حينما قال لأزواجه: «أیکن اتقت الله، ولم تأت بفاحشة مبينة، ولزمت ظهر حصيرها، فهى زوجتى فى الآخرة».

ثَنَاءُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهَا:

لا شك فى أن ثناء المرأة على المرأة ليس شيئاً عادياً، ولا يمكنك أن تنتزع الثناء من واحدةٍ لأخرى إلا بشق الأنفس، فطبيعة المرأة بعامه، وأثرتها لا تسمح لها أن تجود بالثناء على بنات جنسها، أو أن تمتدح صفات طيبة فيها، ولقد أصاب الشاعر قديماً حينما قال:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبعياً إنه لدميمٌ

غير أن أمهات المؤمنين رضى الله عنهن يعطين كل ذى حق حقه، فقد ارتوين من ينبوع الأدب النبوى، وتغذين من المائدة القرآنية، فانتشعت نفوسهن، فكن يقلن الحق، ويثنى بعضهن على بعض بما فيه مرضاة الله عز وجل دون مجاملة أو محاباة، فليس هناك من أمر يدعو لذلك وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها تكن الحب والاحترام لأمهات المؤمنين، وتثنى عليهن خيرًا...

فى حديث الإفك الطويل الذى روته أمنا عائشة رضى الله عنها، يشهد لزينب بدينها وصيانتها وورعها وطيب عنصرها وكرم منبتها وترفعها عن اللغو، قالت أمنا عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت»؟.

فألت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، ما علمت إلا خيرًا.

ألت عائشة: «هى التى كانت تسامينى من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع...» الحديث.

وظلت كلمات زينب الطيبة الصادقة رصيذاً غالباً لعائشة رضى الله عنهما، ولذلك أثنت عليها عائشة خير ثناء من كريم الصفات، وفضائل المكرمات ومحاسن الشماثل. ورد فى الصحيح ثناء لأم المؤمنين عائشة على أم المؤمنين زينب رضوان الله عليهما، من حديث طويل ألت فى عائشة: «فأرسل أزواج النبى ﷺ زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ وهى التى كانت تسامينى منهن فى المنزل عند رسول الله ﷺ ولم أرَ امرأة قط خيرًا فى الدين من زينب، وأتقى، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم للصدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى تصدق به، وتقرب به على الله تعالى...» الحديث.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن عروة بن الزبير عن عائشة بلفظ: «ولم أرَ امرأة خيرًا منها، وأكثر صدقة، وأوصل للرحم، وأبذل لنفسها فى كل شىء يتقرب به إلى الله عز وجل من زينب» وقد أثنت عائشة على زينب فى مجال البر والصدقات واصطناعها المعروف، فألت: «وكانت أطولنا يذاً زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق».

ولما توفيت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها طففت عائشة تعدد فضائلها، وتجود بالثناء عليها، وتذكر مناقبها، فقد كانت تحدث الناس عن شمانلها الحسان.

يروى عن عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية رحمها الله عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، أنها أثنت على زينب بنت جحش فقالت: «يرحم الله زينب لقد نالت فى الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف: إن الله زوجها، ونطق به القرآن، وإن رسول الله قال لنا: «أسرعن بى لحوفاً أطولكن باعاً» فبشرها بسرعة لحوقها به، وهى زوجته بالجنة».

ومما يزيد من مكانة زينب بين أمهات المؤمنين، أنها كانت تعمل بيدها وتتصدق، وهذا يشير إلى مدى برها وجودها، فالمرأة إذا جادت بمالها الخاص، دليل على طيب نفسها وكريم عنصرها، وقد شهدت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لزينب بهذه الخاصية المباركة: كثرة الصدقة، والإيثار فقالت: «كانت — زينب — صناع اليد، فكانت تدبغ وتخرز، وتتصدق» ولو رحنا نعدد ما أثنت به عائشة على زينب رضى الله عنها لعرفنا مقدار محبة عائشة لها، وعرفنا مكانة زينب فى العقد الميمون الذى نُظِمَتْ فيه فكانت من أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن وأرضاهن.

وإذا كان الثناء على الأحياء فضيلة، فإن الثناء على الأموات من أرفع الفضائل وأنفسها، ولذلك فإن زينب رضى الله عنها لما توفيت قالت عائشة: «لقد ذهبت حميدة، متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل».

وإذا ما ذكرت أم المؤمنين زينب أمام عائشة أم المؤمنين أكثر الثناء عليها، وأكثرت من ذكر محاسنها ونشر فضائلها، فقد سأل عروة بن الزبير رحمه الله خالته أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: «يا خالة أى نساء رسول الله ﷺ كانت أثر عنده؟» فقالت: «ما كنت أستكثره، ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما عنده مكانة، وكانتا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدى».

وفى معرض الثناء الفياض بالخير، والبركات تشارك أم أخرى من أمهات المؤمنين بنشر طيب أعمال زينب وصفاتها وتشير إلى صلاحها وصلاتها، تقول أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها: «كانت امرأة صالحة صوامة قوامة».

وهذه الشهادة ترفع أم المؤمنين زينب عاليًا عاليًا، وتجعلها فى مكانة سامقة فى العبادة والصلاح، وكفاك بهذه المنزلة شرفًا.

وكما كانت عائشة تنثى على زينب، كانت أم سلمة، تمتدح زينب أيضاً، ذكرت زينب بنت أم سلمة قالت: «سمعت أُمى أم سلمة تقول: وذكرت زينب بنت جحش، فترحمت عليها وذكرت بعض ما كان يكون بينها وبين عائشة فقالت زينب: أى أم المؤمنين: إني والله ما أنا كأحدٍ من نساء رسول الله ﷺ إنهن زوجن بالمهور، وزوجهن الأولياء، وزوجني الله ورسوله، وأنزل في الكتاب يقرأ به المسلمون ولا يبذل ولا يغير: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ الآية، قالت أم سلمة: وكانت لرسول الله معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت امرأةً سالحة صوامة قوامة صناعاً يتصدق بذلك كله على المساكين».

وقد اقتبس فقهاء العلماء وعلماء الأمصار ثناءهم لأم المؤمنين زينب مما أتني به أمهات المؤمنين عليها، قال ابن كثير: «كانت زينب بنت جحش من المهاجرات الأول، وكانت كثيرة الخير والصدقة».

أما الذهبي رحمه الله ففي كل مكان أورد فيه سيرة أم المؤمنين زينب يذكر من نجاتها الإيمانية ما تذل له الأسماع والأبصار، ففي سير أعلام نبلائه ذكرها بقوله: «كانت من سادة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً مرضى الله عنها».

وإذا ما تحدث في تاريخه، أوجز صفاتها بقوله: «كانت كثيرة البر والصدقة . وجمع الواقدي رحمه الله صفات أم المؤمنين، والثناء عليها في عبارة واحدة قال: كانت امرأةً سالحة، صوامة، قوامة، صناعاً، تتصدق بذلك كله على المساكين».

زَيْنَبُ فِي ظِلَالِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ:

أدركت أمنا زينب رضى الله عنها خلافة الصديق، وكانت مرعية الجانب، يعرف مكانتها في البيت النبوي الطاهر، فهي تناصى ابنته عائشة في المنزلة الكريمة عند النبي ﷺ، وكتاتهما جوهرتان في عقد نساء أهل البيت الطاهرات.

أما في عهد الفاروق عمر، فكانت زينب تناصى ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنهما، وكان عمر يعرف قدرها، ويشهد بورعها، وبزهداها، وإعراضها عن الدنيا التي جعلتها في يدها، ولم تجعل لها سبيلاً إلى قلبها.

كان سيجنا عمر يقسم لأمهات المؤمنين في العام اثني عشر ألفاً لكل واحدة، وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها لا تستبقى منهم درهماً واحداً، وإنما تنفق المال كله على نوى أرحامها، وعلى أيتام قریش، فكانت الدراهم وسيلتها لإدخال السرور إلى قلوب نوى الحاجات وتفريج كربهم.

ولنشهد هذا الموقف الكريم لأمنا زينب رضوان الله عليها:

ففى السنة التى توفيت فيها، أرسل عمر بن الخطاب ﷺ إلى زينب بعطائها الذى لها، فقالت: «غفر الله لعمر غيرى من أخواتى أمهات المؤمنين كان أقوى على قسم هذا المال». قالوا لها: «هذا المال كله لك يا أم المؤمنين».

قالت رضى الله عنها: «سبحان الله العظيم! واستترت منه بثوب، وقالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوباً» ثم أمرت برزة بنت رافع — وهى التى روت هذا الخبر — وقالت لها: «يا برزة، أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة، فاذهبى بها إلى بنى فلان، ثم بنى فلان، وذكرت جماعة من رحمها وأيتامها» وبقيت بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: «غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا فى هذه الدراهم حق!!» فقالت زينب رضى الله عنها: «لكم ما تحت الثوب» قالت برزة بنت رافع: «فعددنا المال فوجدناه خمسة وثمانين درهماً...» ثم إن أم المؤمنين زينب رضى الله عنها رفعت يدها إلى السماء ودعت ربها فقالت: «اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا» فاستجاب الله لها فماتت عامئذ.

قال ابن سعد رحمه الله: «ما تركت زينب بنت جحش رضى الله عنها درهماً ولا ديناراً، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين».

وأورد ابن سعد رحمه الله عن محمد بن كعب أنه: كان عطاء زينب بنت جحش اثني عشر ألف درهم، ولم تأخذه إلا عاماً واحداً، حُمِلَ إليها اثنا عشر ألف درهم، فجعلت تقول: اللهم لا يدركنى قابل هذا المال، فإنه فتنة، ثم قسمته فى أهل رحمها، وفى أهل الحاجة حتى أتت عليه، فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام، وقال: قد بلغنى ما فرقت، فأرسل إليها بألف درهم يستنقها، فسلكت بها طريق ذلك المال».

روايتها لأحاديث المصطفى:

أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها، إحدى إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات اللواتي روين الحديث الشريف عن رسول الله .
ولم تكن أم المؤمنين رضى الله عنها من المكثرات فى الرواية، وإنما أحصى لها أصحاب الأحاديث، أحد عشر حديثاً روتها عن النبى ، اتفق لها البخارى ومسلم على حديثين.

وبالإضافة إلى وجود أحاديث أمنا زينب فى الصحيحين، فإن أحاديثها منثورة فى بقية الكتب الحديثية الأربعة وهى: سنن الترمذى، النسائى، وأبى داود، وابن ماجه، إذن فحديثها فى الكتب الستة يضاف إليها المسانيد، كمسند أحمد وأبى يعلى.
روى عن أم المؤمنين زينب رضى الله عنها من الرجال: ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وأرسل عنها القاسم بن محمد بن أبى بكر، ومذكور مولاها.
وروى عنها أمهات المؤمنين: أم المؤمنين رمة بنت أبى سفيان المشهورة بكنيتها أم حبيبة رضى الله عنها.

ومن الصحابييات: زينب بنت أبى سلمة وأمها أم المؤمني أم سلمة، كما روت عنها: كلثوم بنت المصطلق.

ومن الأحاديث الشهيرة المعروفة التى رويت عن أمنا زينب بنت جحش رضوان الله عليها، ما ورد الصحيحين وغيرهما بسندٍ عن حميد بن نافع، عن زينب بنت أبى سلمة، أنها أخبرته قالت: «دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها، فدعت بطيب فمست منه، ثم قالت: والله ما لى بالطيب من حاجة، غير أنى سمعت رسول الله يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على الميت فوق ثلاث ليال، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً».

ومما أخرجه لها البخارى وغيره من أئمة الحديث، ما رووه بسندٍ عن أم حبيبة بنت أبى سفيان، عن زينب بنت جحش: أن رسول الله دخل عليها يوماً فزغاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح اليوم من رُدْم يأجوج ومأجوج مثل

هذه - وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها - قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث».

وَفَاتَهَا وَوَصِيَّتُهَا:

عاشت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها شطراً من الخلافة الراشدة، وفى سنة عشرين من الهجرة المباركة شعرت بدنو الرحيل إلى رحاب الملك المقدر، لتلقى محمداً ، وتقل عليها المرض، فمرضها أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

ولما حضرت زينب بنت جحش الوفاة قالت: «إني قد أعددت كفى، فإن بعث لى عمر بكفى، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذ أدليتمونى أن تصدقوا بحقوى فافعلوا». وفى سنة عشرين للهجرة توفيت أم المؤمنين زينب، وصعدت روحها إلى بارئها راضية مرضية، ولها من العمر ثلاثة وخمسون عاماً وكانت أول نساء رسول الله لحوقاً به، وبذلك تحققت نبوءة رسول الله حيث ذكر ذلك.

أخرج ابن سعد رحمه الله بسنده عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله يوماً، وهو جالس مع نسائه: «أطولكن باعاً أسرعن لحوقاً بى» فكن يتناولن إلى الشيء، وإنما عنى رسول الله بذلك الصنعة، وكانت زينب امرأة صنعا، فكانت تتصدق به فكانت أسرع نسائه لحوقاً به وقد أوصت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها أن تُحْمَلَ على سرير رسول الله ، ويجعل عليه نعش، وأوصت كذلك ألا تتبع بنار.

ولما ماتت أمر عمر منادياً فنادى: «ألا لا يخرج على زينب إلا ذو رحم من أهلها» فقالت أسماء بنت عميس رضى الله عنها: «يا أمير المؤمنين، ألا أريك شيئاً رأيت الحبشة تصنعه لئسانهم؟» فجعلت نعشاً، وغشته ثوباً، فلما نظر إليه قال: «ما أحسن هذا! ما أستر هذا!» ثم قال: «نعم الخباء الطعينة».

وقيل: «إن زينب هى أول امرأة جعل عليها النعش» وبعد ذلك أمر عمر منادياً فنادى أن اخرجوا على أمكم.

ولما حملت زينب إلى قبرها بالبقيع، قام عمر إلى قبرها فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إني أرسلت إلى نساء النبي ﷺ حين مرضت هذه المرأة، من يمرضها ويقوم عليها، فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

ثم أرسلت إليهن حين قبضت: من يغسلها ويحنطها ويكفنها؟.

فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

ثم أرسلت إليهن: من يدخلها في قبرها؟.

فأرسلن: من كان يحل له الولوج عليها في حياتها، فرأيت أن قد صدقن، فاعتزلوا

أيها الناس».

فناهم عن قبرها، ثم أدخلها رجالان من أهل بيتها.

وعن عبد الرحمن بن أبزي قال: «صلى عمر على زينب بنت جحش، فكبر عليها

أربع تكبيرات، فأراد أن يدخل القبر، فأرسل إلى أزواج النبي فقلن: إنه لا يحل لك

أن تدخل القبر، وإنما يدخل من كان يحل أن ينظر إليها وهي حية، بنو أخيها، وبنو

أختها».

وأمر عمر رضي الله عنه أن يضرب فسطاط بالبقيع على قبرها لشدة الحر يومئذ، فكان أول

فسطاط ضرب على قبر بالبقيع، وكان عمر رضي الله عنه والأكابر من أصحاب رسول الله

قيامًا على أرجلهم، فأمر عمر محمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن أبي أحمد بن

جحش، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ابن أختها حمنة، فنزلوا في قبر زينب بنت جحش

أم المؤمنين، وهؤلاء من محارمها.

وبعد، فهذه نفحات نديات من سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها،

وإني أرجو الله عز وجل أن أكون قد وفقت في عرض سيرتها ونظمها في عقد نساء

أهل البيت الطاهرات.

رضى الله عن أمنا زينب وأرضائها، وجعل الجنة مأواها، ونسأل الله عز وجل أن

يكرمنا بأهل البيت، ويحشرنا مع الذين أنعم عليهم، ويدخلنا برحمته في عباده

الصالحين، إنه سميع مجيب جواد كريم.

أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضى الله عنها

من فضليات النساء وساداتهن، كانت صافية القلب نقيّة السريرة.
كانت أعظم الناس بركة على قومها وأهلها.

كانت ذات عقل حصيف، ورأى موفق، وكانت قانتة ذاكرة شاكرة، نقيّة.
عالمة ناقلة للحديث الشريف، روى أحاديثها أصحاب الكتب الستة.
توفيت سنة (٥٠هـ) عن عمر يناهز السبعين ودفنت بالبقيع فى المدينة المنورة.

أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضى الله عنها^(١)

شَخْصِيَّةٌ فَرِيدَةٌ:

كانت السيدة جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقية تعترز بأبيها الحارث سيد قومها، وكانت قد نشأت فى ظلال سيادة أبيها لقومه فى عز وسؤدد ومجدٍ مؤتلفٍ، وكما نعلم فإن للبيوت العريقة أعظم الأثر التربوى وأبقاه فى تنشئة ناشئها، وتربية بناتها وبنيتها.

تزوجت جويرية بنت الحارث فى حداثة سنها مسافع بن صفوان، أحد فتيان خزاعة، وأصل بنى المصطلق، اقترنت به فى وقت مبكر، قبل أن تتم العقد الثانى من عمرها.

وقد زين الله عز وجل السيدة جويرية منذ صغرها بكريم الصفات، ولطيف المكرمات، وجميل الأخلاق، وحسن الأدب، وغيرها من محاسن الفضائل، ما جعلها من فضليات النساء وساداتهن.

لهذه الصفات الكريمة، تفيأت السيدة جويرية ظلال الدوحة النبوية الشريفة، وأضحت من أمهات المؤمنين، وواحدة من نساء أهل البيت الطاهرات ذوات الشأن فى الإسلام.

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦ - ١٢٠) والاستيعاب (٤/ ٢٥١ - ٢٥٤) والإصابة (٤/ ٢٥٧، ٢٥٨) أسد الغابة (٦/ ٥٦ - ٥٨).

ولكن كيف انتظمت ودخلت السيدة جويرية في عقد الدرر النبوية، وغدت إحدى حباته فصارت من أمهات المؤمنين الطاهرات؟.

هذا ما سنعرفه إن شاء الله في الصفحات التالية:

بداياتُ النُّورِ:

عمَّ نور الإسلام الدنيا، وانتشر سناه في الجزيرة العربية، إلا أن بنى المصطلق كانوا من الذين لا يزالون يغطون في نوم الرواسب الجاهلية، بزعامة رئيسهم الحارث ابن أبي ضرار، وكانت تصك أذانهم أخبار الحروب التي نشبت بين المسلمين، وبين المشركين الذين أقضَّ مضاجعهم صدى انتصاراتهم المدوية هنا وهناك، فتثير في نفوسهم السقيمة نعة الطيش المتهور.

كان بنو المصطلق من بقايا الغناء المشرك المتخلف في الجزيرة العربية، وقد استولى عليهم الرعب وغلفهم الاضطراب، وخافوا إن هم ظلوا في موقفهم الاعتزالي المتردد المتحير، أن تدور عليهم الدائرة، وتقضى عليهم كتائب فرسان المسلمين وأبطالهم، وهم في غفلتهم يترددون، أو هم ساهون أو نائمون.

بدأ الشيطان يتسلل إلى نفوسهم ويلعب بهم، ويزين لهم أنهم أقوياء وأنهم فرسان العرب، وأنهم وأنهم... وإذ ذلك تحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم الحبيب المصطفى ﷺ، وأخذوا يعدون العدة لذلك، ويتأهبون بكل ما يقدرون عليه من الرجال، والعدة، والسلاح، والمؤن، ليهاجموا قوة هذا المجتمع الكريم، الذي يبغى لهم الخير والنجاة والفوز والفلاح، وكذلك للمجتمع الإنساني كله.

ومشى زعيمهم ورجالهم الذين أخذتهم العزة بالإثم، مشوا في أحياء بقايا غسلات القبائل، وبقايا العشائر، يجمعونها معهم لتجربة حظهم في حجب النور المتنامي الممتد لإزالة ظلمات عقولهم الجارف الذي بدأ يكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية الطاغية، وأزال كل العقبات من طريق دعوته، وأضاء الدنيا بتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل، والنور والهدى.

حِكْمَةُ نَبَوِيَّةٍ:

كانت الأخبار تَرِدُ رسول الله ﷺ، عما يدور في الجزيرة العربية من أحداث وأمر، وبلغ خبر تجمع بنى المصطلق وتحفزهم رسول الله ﷺ، فنظر بعين الحكمة إلى هذا الخبر، وأراد جرياً على منهجه، وحكمته النبوية أن يتحرى ويتأكد ما بلغه عن بنى المصطلق، فبعث رسول الله ﷺ بُرَيْدَةَ بن الحصيف بن عبد الله الأسلمي، ليعلم له علم أولئك القوم، ويأتيه من صفوفهم، واجتمع برئيسهم ورأسهم الحارث بن أبي ضرار، وتحدث إليه، واختبر أمره وسره، فوجدهم عازمين على مهاجمة رسول الله ﷺ وأصحابه ليستأصلوهم من أرضهم وديارهم.

رجع بريدة بن الحصيف ﷺ، بما حصده واستخلصه من أخبار القوم، وبما علم من نيتهم، وبما سولت لهم أنفسهم، فأخبر رسول الله ﷺ خبرهم، وبث إليه حديثهم، وألقى بين يديه سرهم وجهرهم، فندب رسول الله ﷺ أصحابه، وكانوا سبع مائة مقاتل، وخرج بهم مسرعاً إلى بنى المصطلق، وخرجت معه في هذه الغزاة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها وعن أبيها وحشرنا في معيتهما.

وبلغ رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبي ضرار، ومن معه من الجموع، مسير الحبيب المصطفى ﷺ إليه، وإلى جموعه التي تجمعها رابطة الطمع، وهي أوهن من خيط العنكبوت، فتملك الخوف الحارث بن أبي ضرار، ورعب رعباً شديداً، فارتعدت فرائصه، واستولى عليه الذعر والهلع، واستحوذ على جموعه الفرع، فنفروا عنه وتركوه مع لفائف قومه، وهم لا يقلون عنه خوفاً وهلعاً.

أما رسول الله ﷺ، فقد بلغ بأصحابه إلى المريسيع، فضرب عليه قبة، وتهيأ الجمعان للقتال، وقبل أن ينشب قتال أو نزال، أمر الحبيب الأعظم ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ، أن ينادى بنى المصطلق أن يقولوا: «لا إله إلا الله» ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم.

لكن بنى المصطلق ركبهم شيطان الغرور، وركبوا رءوسهم الخاوية، فأبوا أن يستجيبوا لدعوى الحق، ونور الحقيقة، وسماحة الإسلام، وأشعلوا فتيل الحرب وأوروا زنادها فرمى رجل منهم المسلمين بنبله وسهامه، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه وأصحابه أن يحملوا على هؤلاء حملة رجل واحد، فاستجابوا وصدقوا الله عز وجل في حملتهم

حتى أخذوا أعداءهم أخذًا، فلم يفلت منهم أحد، وقتلوا منهم عشرة، كان مسافع بن صفوان زوج جويرية بنت الحارث من العشرة الذين جندلتهم السيوف المسلمة وجعلتهم كأمس الدابر، وأسروا سائرهم، وكانوا سبع مائة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم، وذراريهم، واستاقوا نعمهم وشاءهم، ونصر الله عز وجل رسوله نصرًا عزيزًا.

جويرية ونصر المؤمنين:

بعد أن انتهت أمر غزوة بنى المصطلق بذلك النصر المبارك السريع، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة منصورًا مظفرًا، تساق الأسرى والغنائم والسبي من النساء والذراري بين يديه، وكان ذلك شيئًا كثيرًا أنعش المسلمين، وأغناهم، والروايات متفقة على أن عدد الأسرى كان أكثر من سبع مائة، وكانت غنائم الإبل ألفي بعير، وغنائم الشاه خمس آلاف شاة، وكان السبي من النساء والذراري قرابة مائتي أهل بيت.

قد قسمت هذه الغنائم، ووزعت الأسرى والسبايا والذراري بين المجاهدين، وكان من بين السبايا السيدة العاقلة جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وكانت فتاة لا تزال في زهرات العمر الأولى، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري ﷺ، فكاتبها على تسع أواق من الذهب.

كانت السيدة الحسيبة جويرية بنت الحارث ذات عقل رصين، وخلق كريم، وتفكير حصيف، وحسن بصر بالأمور، وفصاحة، تعرف مواقع الكلام، وتدرک تأثيره في النفوس الكريمة، وكانت ذات تعزز وأنفة لا تصبر على الضيم، كما كانت ذات سوؤد سما بها عن الرضا بمذلة الرق، والتطلع إلى الحرية الكريمة، إذ عاشت في ظلال العز والسوؤد، وفي بيت من أعز البيوت العربية المنيفة، الذي تخفق فيه رفرفات الشرف والمجد والرفعة، ولذلك رضيت جويرية بما كاتبت عليه ثابت بن قيس على الرغم من كثرتها، لأنها كانت تتطلع إلى معالي الأمور، وتخوض لها لجج المكارم، لتتبوأ نروتها، فقد كانت ذات نفس كبيرة شريفة، استطاعت من خلالها أن تكسب الخلود على مدى الأيام، وتغدو حسيبة النسب بالاتصال بسيد الكائنات محمد ﷺ، ثم لتكون أمًا للمؤمنين، وهل هناك مرتبة أرفع وأعظم وأكرم من هذه المرتبة؟! إذن سنتعرف كيف أصبحت

جويرية درة من درر العقد النظيم فى نساء آل البيت النبوى، من خلال السطور وال فقرات التالية...

سؤدد وطموح:

أنعم الله عز وجل على السيدة جويرية رضى الله عنها بنعمة كريمة هى نعمة الجمال والملاحة، وقد لفتت نظر أمنا عائشة رضى الله عنها إليها، فقالت تصفها: «وكانت حلوة ملاحه».

إن هذه الملاحة جعلتها متميزة بين النساء، لأنها كانت تنظر إلى معالى الآمال، نظرة تدل على طموحها الكريم، وفراستها المستلهمة من تربيتها الكريمة السامية. فقد كان من سمو نفسها، ورفعة تصوراتها، وطموح آمالها، أنها — بعد أن كاتب على نفسها بذلك القدر الباهظ من المال — جاءت وآمال الفراسة الصحيحة تقودها إلى سيد المكارم والمكرمات، وأكرم الكائنات، وأعلمهم بمنازل الناس ومقاماتهم، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان، لانتشالها من وهدة ألقها فيها أعاصير التخلف الجاهلية، فباعدت بينها وبين حياتها التى كانت كلها نسائم رقيقة من الصبا، ورشحات عبقة من ندى رغد العيش والشرف المنيف.

جاءت جويرية رسول الله ﷺ، هذا النبى الكريم الذى هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم، وذراريهم بالأمس القريب، فكانت هى إحدى سبايا قومها، وهى ابنة سيدهم ورئيسهم، ووقعت فى سهم رجل من علية المسلمين، وفصحاء الأنصار ثابت بن قيس خطيب الحبيب المصطفى ﷺ فى محافل المنافرات، إلا أن جويرية لم تصبر نفسها الكبيرة على بلاء الرق وهوانه، وفتت جويرية أمام الرسول الكريم والرعوف الرحيم ﷺ، وفتت تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة، وتستشعر العزة التى كانت تتقلب بين أزهارها وورودها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وقصت عليه القصص فقالت: «يا رسول الله ﷺ إبنى امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمرى ما لا يخفى عليك».

وفى رواية أنها قالت: قد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبنى على ما لا طاقة لى به، ولا يدان لى، ولا قدرة عليه،

وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهنى على ذلك إلا أنى رجوتك صلى الله عليك، وجنتك أسالك فى كتابتى».

ولك عزيزى القارئ أن تتصور فى تلك اللحظات موقف جويرية أمام رسول الله ﷺ وهى ترجو من مكارمه الفياضة ما يحقق حريرتها.

ولكن من كان يدرى أن جويرية وضعت رحل رجائها بين يدى النبى ﷺ، لتكون معه فى أعلى عليين، أمًا للمؤمنين، وحليلة سيد المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، من كان يعلم ذلك؟.

كان ذلك فى علم العليم الخبير، قبل أن يخلق الله الأرض ومن عليها، إذن، فليأخذ الرسول الكريم ﷺ بيد هذه المسلمة المؤمنة، وليخلق بها فى الفرديس، إلى أرفع منزلة فى الجنات ليخرجها من ضيق الرق وسجن العبودية لغير الله عز وجل، إلى آفاق العزة، وإلى آمال السؤدد، وإلى أكرم المكارم، ولتكن زوجًا لأكرم البشر، ولتكن أمًا لصفوة البشر، أمًا للمؤمنين، أمًا لثابت بن قيس، ومن فوقه، ومن دونه من المسلمين، ولتكن سيدة نبيلة من سيدات نساء العالمين، ولتنتظم فى سلكن الكريم، وتدخل البيت النبوى الطاهر وتحظى بالفضل العميم.

فى ذلك الموقف النبيل الميمون، أضحت جويرية بكلمة واحدة أمًا للمؤمنين، عندما قال لها سيد الأولين والآخرين حبيبنا محمد ﷺ وهى تسأله كتابتها: «هل لك فى خير من ذلك»؟.

فقال ويقين الآمال وأنوارها تضىء نفسها: «وما هو يا رسول الله»؟.

فقال الحبيب المصطفى ﷺ: «أودى عنك كتابتك وأتزوجك».

الله أكبر...!!!

الله أكبر، أى غيث هطال هذا الذى فاضت به سموات الغيب، لتروى بنميره العذب قلبًا كان قبل لحظات يتحرق طلبًا لاستنشاق عبير الحرية.

الله أكبر، أى شعور استأثر بمشاعر جويرية، وأى سمة أجل وأسمى وأعظم من هذا الذى تسمعه من رسول الله ﷺ هو يقول: «أودى عنك كتابك وأتزوجك» لقد كانت ترجوه فى أمر بسيط، فإذا به ﷺ يرجى للعظام، ومعالي المكارم...

كانت جويرية حين أجابها النبي ﷺ، وتسمع كلامه، مليئة الفؤاد بالأمل المرجى، تتكلم وتسمع وهي رابطة القلب، ثابتة الجأش، ساكنة الفؤاد، مضيئة الروح، تنظر بعين البصيرة إلى المستقبل القريب، فأجابت رسول الله ﷺ إجابة نورانية، فلم تتلعثم، ولم تتردد، ولكنها أسرعت بكل مشاعرها وهي تقول: «نعم، يا رسول الله، وقد فعلت».

بركة جويرية على قومها:

دخلت السيدة النبيلة جويرية بنت الحارث إلى خدرها أمًا للمؤمنين، وزوجًا لسيد الأولين والآخرين، وحين ذلك سرى هذا النبأ الجميل همسًا نديًا يصافح أسماع المسلمين، ويلامس نفوسهم، فتسامعوه بينهم، وتعالموه في محافلهم، وأضاء ذلك الحدث والحديث الآفاق، كما يضيء لمع البرق في السماء.

قال المسلمون وقد صقلتهم التربية المحمدية، وهذبهم الآيات القرآنية الندية: «إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطقلية» فأرسلوا كلهم ما في أيديهم من السبى، وقالوا متعاضمين: «هم أصهار رسول الله ﷺ».

عن هذا الموقف النبيل تتحدث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وتصور تلك الرشحات الندية في جميع جوانبها، بأبداع أسلوب، وأوجز كلام، فتقول: «فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، فلقد أعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بنى المصطلق».

وكان اسم جويرية رضى الله عنها برة، فغيره رسول الله ﷺ، وسماها جويرية، كره أن يقال: «خرج من عند برة».

ومن الجدير بالذكر ما أورده أبو عمر القرطبي في «الاستيعاب» نقلًا عن أبي عبيدة قال: «تزوج رسول الله ﷺ جويرية في سنة خمس من التاريخ».

وقال أبو عمر القرطبي في «الاستيعاب» «كان اسمها برة، فغير رسول الله ﷺ اسمها وسماها جويرية» وكذلك فعل مع زينب بنت جحش أم المؤمنين، وميمونة أم المؤمنين، وزينب بنت أبي سلمة رضى الله عنها، كان اسم كل واحدة منهن برة، فحواله إلى هذه الأسماء.

جُوَيْرِيَّةُ وَنَفَحَاتُ الْإِنْعَامِ الرَّبَّانِيَّةِ:

روى الإمام البيهقي رحمه الله عن أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها قالت: «رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليال، كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر أحداً، فلما سُبِينَا، رجوت الرؤيا، فأعتقنى وتزوجنى». وكانت أم المؤمنين جويرية عندما تزوجت رسول الله ﷺ فى ميعة الصبا، وقد ذكرت عمرها وقتذاك فقالت: «تزوجنى رسول الله ﷺ وأنا بنت عشرين سنة». وكانت جويرية رضى الله عنها من أجمل النساء، ذكر هذا الإمام الذهبى رحمه الله فى سيره.

وأعتقد أن نفحة من نفحات الإنعام الإلهى، جعلت جويرية رضى الله عنها بهذه المنزلة العظيمة، منزلة أمهات المؤمنين الطاهرات، فقد أكرمها الله عز وجل بالعقل الحصيف، والرأى الموفق الرصين، وتغلغل الإيمان ورسخ فى نفسها فجعلها رزينة هادئة مطمئنة الضمير، وراحت بفكرها المتسامى عن رغائب الأرض، ودنيا الأمور تنظر إلى العلياء، وإلى معالى المعالى فى السيادة الحقيقية.

تركت وتناست ترف البيت الذى كانت سيدة ومتسيدة فيه بمواريث الجاهلية الجهلاء التى لا تعرف فرشاً وثيرة، وسرراً مرفوعة، ونمارق مصفوفة، وطعاماً شهياً، وشراباً سائغاً هنيئاً، وذواقاً مرئياً طرياً، وذلك بين أتراب تعلق وجوهن ابتسامات وضحكات، ينعمن فى حياة معطلة بترفٍ عن الحركة النفسية أو الفكرية، وحتى الحركة البدنية التى شلها الفراغ الملول.

فى لحظة مرت كمر السحاب، تركت جويرية هذا كله، ورغبت فى النعيم المقيم الذى رأته بأفاق بصيرتها الممتدة إلى ما وراء الأشياء، ورأته كذلك ببصيرة عقلها الذى جعلته الدليل على الحكم بين الأشياء، ناهيك بالنفحة الربانية الإلهية التى اكتنفت أمنا جويرية حتى تحظى بأشرف مقامات الشرف، وأعلى مقامات السمو بأومة المؤمنين.

وإلا فما الذى جعل امرأة سيدة مثل جويرية ابنة سيد قومها توافق بالإيجاب، وهى فى عمر الزهرة التى تطل من برعها متنفسة أنفاس الحياة مع أنداد الصباح فى ظلال الربيع الساحر ذى النسائم المستحلاة، والأوقات المستحلاة.

أجل، إن النفحة الإلهية، والمقادير الغيبية هي التي ألقت بآمال جويرية ورجاواتها بين يدي أكمل البشر، وأكرم الكرماء سيدنا وحبیبنا محمد، وجاءته على استحياء تسأله في كتابتها وهو في بيت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضی الله عنها. في رحلة الإنصاف الممزوج بالصدق، تقول أمنا عائشة تصف جويرية فأنصفت القول، وأنصفت جويرية: «وكانت امرأة حلوة ملاحه، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه». لكن هذه الملاحه والحلاوة، فعلت ما فعلت في نفس عائشة رضی الله عنها، فهل استطاعت عائشة وهي الحبيبة النبوية أن تصنع شيئاً؟!.

إن العناية الإلهية، والنفحات الندية المجللة بإنعام الإنعام، جعلت من هذه الوافدة أمًا أخرى لجماعة المؤمنين، وشاركت في هذا العقد بقية الأخريات اللواتي سبقنها إلى دوحة البيت الطاهر.

ولكن أمنا عائشة مع هذا كله، تنفحننا برحيق أحاديثها الفواحة بالصدق، الممزوجة بحب الإخلاص، ورسوخ الإيمان، وكيف لا وقد نشأت عائشة في بيت الصديق، وأحاطت بها الرعاية المحمدية.

إذن دعونا نستمع إلى عائشة وهي تتحدث عن مشاعرهما في تلك الساعة التي رأت فيها جويرية على باب حجرتها، قالت عائشة رضی الله عنها: «فوالله، ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت أي من ملاحظتها».

ولكن نفحات الإنعام الربانية جاءت على جويرية رضی الله عنها، وخلعت النفحات الرحمانية جلايبب السيادة الحقيقية عليها، فكانت أمًا المؤمنين توقيرًا وتعظيمًا، وإسعادًا لها بكنف رسول الله ﷺ، وإدخالاً للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله عز وجل من كمال إنسانى كانت به من صفة الصفوة من نساء العالمين.

القائنة العابدة الذائرة:

لقيت أم المؤمنين جويرية رضی الله عنها في بيت الرسول ﷺ، ما تشتهيبه الأنفس، وتلذ الأعين في العبادة والتقى وحسن الصلة بالله عز وجل على أساس صحيح، فراحت تحذو حذو أمهات المؤمنين في الصلاح والعبادة، وتقتبس من الرسول ﷺ ومن أخلاقه،

ومن شمائله الحميدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى غدت مثلاً كريماً في الفضل والفضيلة والعبادة والذكر.

كانت جويرية أم المؤمنين عليها سحائب الرضوان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، ومن العابدات الصابرات، ومن المجتهدات في مجال مناجاة الله عز وجل، وتحميده، وتقديسه وتسبيحه، وذكره بالغدو والأصال.

روى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن جويرية رضى الله عنها: «أن النبي ﷺ مر عليها، وهى فى مسجدها أول النهار ثم مر عليها قريباً من نصف النهار، فقال لها: ما زلت على الحال التى فارقتك عليها!.

قالت: نعم.

قال ﷺ: ألا أعلمك كلمات تقوليهن؟.

سبحان الله عدد خلقه.

سبحان الله رضا نفسه.

سبحان الله زنة عرشه.

سبحان الله مداد كلماته».

وفى رواية أخرى عن جويرية رضى الله عنها قالت: أتى على رسول الله ﷺ فقال: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

أى فضل أفضل وأرفع، وأى شرف أشرف وأعلى، من فضل وشرف جمعا بين الفضائل العلم والتسبيح؟! وأى مكرمة أفضل من هذا الحدث لجويرية رضى الله عنها؟. لقد انتهت بما انتهت إليه من النور، والهدى، والرحمة، والسعادة فى زواجها من رسول الله ﷺ، وشرف بنو المصطلق وشرف رئيسهم الحارث بهذه المصاهرة التى رفعتهم علواً، فقد صارت ابنة سيدهم أمّاً للمؤمنين، وكانت ميمونة السنا والنقيبة على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها وببركتها من رق العبودية، وأقبل بهم أبو جويرية الحارث بن أبى ضرار على الإسلام، ودخلوا فى دين الله أفواجا، وحسن إسلامهم،

وشرفوا به، وكانوا من كتائب المجاهدين، ومن فرسان مدرسة النبوة الميامين، الذين اختصهم الله عز وجل لنصرة دينه، ونشر رسالته، وإعلاء كلمته.

ويظهر لنا أن بركة أم المؤمنين جويرية تخطت قومها، لتعم المسلمين، فلقد كانت غزاة قومها غزاة جمعت من معالم منهج الرسالة أحياناً تشريعية، وحوادث اجتماعية، وأحكاماً فقهية، وأدباً سياسية قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وشددت من قوة تماسك هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا خيراً.

العَالِمَةُ نَاقِلَةُ الْحَدِيثِ:

إذا أراد الله عز وجل بامرئٍ خيراً، أكرمه بالإقبال على العلم يقبَس من نوره ما شاء، ليكمل طريق الهداية والحق في هذه الحياة الدنيا ليكون من المقبولين، ومن الفائزين، ومن السعداء.

وأما جويرية رضى الله عنها ممن أراد الله بها خيراً، فقد زادها الله عز وجل كمالاً فوق كمالها، ونبلاً فوق سيادتها، ومكانة فوق سؤدها، فقد جعلت حصافة عقلها، ونبيل تفكيرها، وإشراق روحها، وصفاء قلبها، ونقاء سريرتها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي ترقُبُه في عبادته الخاصة يوم يكون في بيتها، وتشهده في تسبيحه لخالقه، وتقديسه لبارئه، وتصغى إليه وهو يوحد الله عز وجل، وتصيخ إليه، وهي تسمع أحاديثه العذاب في أدب ولهف وهي عطشى للتزود من آداب الإسلام الاجتماعية، وأحكامه العبادية، وشرائعه النظامية، وتلحظ بعين الحقيقة تَلطُفه في عشرته الزوجية وتقرأ الرحمة في معاملته الداخلية والخارجية، فتعى ذلك كله وعيًا ضابطاً محكمًا يرويه عنها من أصحابه الذين وهبوا حياتهم للعلم، فوهبهم العلم تاجه ونوره، إذ يأخذونه عن رسول الله ﷺ مشافهة، أو رواية أقرب ما تكون للمشافهة، إما لأنه سماع عن أقرانهم، أو شهود لمجالس سماعه، أن تلقياً لأسراره من أمهات المؤمنين زوجاته الطاهرات، وأخذاً لحقائقه العلمية ممن كان أهلاً لحمل هذه الحقائق والأسرار، التشريعية، والآداب السلوكية في تربية البيت ومن يضمنه بين جنباته.

كانت أم المؤمنين جويرية واعية عالمة بما تسمع، عاملة بما تعلم، نقية، نقية، ورعة، فقيهة، عابدة، مضاءة القلب والعقل، مشرقة الروح، تحب الله عز وجل، وتحب رسوله الكريم ﷺ وتحب الخير للناس أجمعين.

كانت جويرية رضى الله عنها تروى من حديث رسول الله ﷺ، يرويه عنها رواة العلم من علماء الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لينشروه في المجتمع المسلم علماً وعملاً، ودعوة وهداية وهدياً.

روى عن أمنا جويرية من الصحابة: حبر الأمة عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين.

وروى عنها من الأجلة: كريب مولى ابن عباس، والطفيل ابن أخيها، وعبيد بن السباق، ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي وآخرون.

روى لأم المؤمنين جويرية رضى الله عنها سبعة أحاديث، منها حديث عند البخارى، وعند مسلم حديثان.

وقد روى عنها أصحاب السنن الأربعة أيضاً فى كتبهم، ومن مرويات الحديث الذى أخرجه البخارى رحمه الله بسنده عن قتادة عن أبى أيوب عن جويرية بنت الحارث رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها يوم الجمعة، وهى صائمة فقال: «أصمت أمس»؟.

قالت: لا.

قال: «تريدين أن تصومى غداً»؟.

قالت: لا.

قال: «فأطرى».

فقد كان من هديه ﷺ كراهة تخصيص يوم الجمعة بالصوم فعلاً منه وقولاً، وصح النهى عن إفراده بالصوم، ولذلك أدلة فى الصحاح والسنن من حديث جابر بن عبد الله وأبى هريرة، وحديث جويرية الأنف الذكر، وعبد الله بن عمرو، وجنادة الأزدي وغيرهم، رضى الله عنهم.

وثبت أنه ﷺ قد شرب يوم الجمعة وهو على المنبر، يريهم أنه لا يصوم يوم الجمعة، وعلل المنع من صومه، بأنه يوم عيد، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الجمعة يوم عيد، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده».

ومن الجدير بالذكر أن أمتنا جويرية قد كتبت لها شرف الجهاد، وشرف الصحبة مع الرسول الكريم ﷺ إلى ساحات إعلاء كلمة الله، فقد أخرج ابن سعد رحمه الله عن عبد الله بن أبي فروة قال: «سمعت عبد الرحمن الأعرج يحدث في مجلسه بالمدينة يقول: أطعم رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث بخيبر ثمانين وسقاً تمرًا، وعشرين وسقاً شعيرًا».

مَعَ الْعُمَرَيْنِ الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

عاشت أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها عيشة كريمة في ظلال الخلافة الراشدة، فقد كان سيدنا أبو بكر الصديق ؓ يعرف مكانة أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن، وكان يقسم المال بينهن بالسوية.

فلما مات أبو بكر ؓ، واستخلف عمر ؓ، فتح الله عليه الفتوح، فجاءه المال أكثر من ذي قبل فقال: «قد كان لأبى بكر في هذا المال رأى، ولى رأى... ثم فرض لأزواج رسول الله ﷺ اثني عشر ألفاً لكل امرأة، إلا صفية بنته حياً، وجويرية بنت الحارث رضى الله عنهما، ففرض لكل واحدة ستة آلاف درهم، فأبين أن يأخذنها، فقال: إنما فرضت لهن بالهجرة» فقلن لعمر: ما فرضت لهن بالهجرة، إنما فرضت لهن بمكانتهن من رسول الله ﷺ، ولنا مثل مكانهن.

فقالت عائشة رضى الله عنها: «إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا» فأبصر عمر ذلك فجعلهن سواء، وعدل بينهن.

وظلت مكانة جويرية رفيعة في الخلافة الراشدة، وكذلك ظلت في بداية العهد الأموي تحظى بالاحترام والتوقير من الناس أجمعين.

﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾:

توفى الحبيب المصطفى ﷺ وهو راضٍ عن أزواجه الطاهرات، ومنهن جويرية بنت الحارث رضوان الله عليها.

فقد عاشت أمنا جويرية بعد رسول الله ﷺ راضيةً عابدةً ذاكرةً، وقضت شطر حياتها في أفياء عدل خلفاء النبي ﷺ ومع أزواجه الطاهرات، وكانت حياتها مليئةً بالعلم والذكر والدعاء والتسبيح، وتلقين العلم لأهل العلم الذين ينشدون مآربهم العلمية في المدينة المنورة، ويقصدون منارات العلم، وثقافة الرواة، ومن هؤلاء زوجات النبي الطاهرات رضى الله عنهن.

وكانت جويرية أم المؤمنين بما حفظته عن رسول الله ﷺ تروى بعض الذكريات عن حياتها مع الرسول ﷺ، أو تتحدث عن قصة زواجها من رسول الله ﷺ. وامتدت حياة أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها إلى خلافة سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما وقد بلغت قرابة سبعين عامًا.

ففى عام خمسين من الهجرة النبوية الشريفة، شعرت أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها بقرب لقاء الله عز وجل، وفى شهر ربيع الأول من العام نفسه توفيت رضى الله عنها، وشُيع جثمانها إلى البقيع لترقد فى مثاها الأخير، إلى جانب أمهات المؤمنين، وبنات الحبيب الأعظم ﷺ، وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان إذ ذاك أمير المدينة المنورة.

هذه قطوف دانية مباركة من سيرة أمنا جويرية إحدى نساء أهل البيت الطاهرات، فما أعظم بركة جويرية عليها، وما أجمل سيرتها التى تشرح الصدور رضى الله عنها وأرضاها، وعفا عنا ورحمنا، وحشرنا فى معية أمهاتنا أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

أم المؤمنين صفية بنت حيى رضى الله عنها

من علاقات النساء، ومن ذوات التقى، والصفاء، والشرف والحلم، والوقار والفضل، والعبادة والورع والزهد.

قال لها النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي». شهد لها النبي ﷺ بالصدق فقال: «والله إنها لصادقة». كانت محبة للعلم والمعرفة، وهى من راويات الحديث النبوى الشريف. كانت وفاتها فى عام (٥٠هـ) ودفنت بالبقيع رضى الله عنها.

أم المؤمنين صفية بنت حيى رضى الله عنها

قَبَسٌ مِنْ سَنَا السَّيِّرَةِ:

كان اليهود فى المدينة المنورة وغيرها ينظرون إلى الإسلام بعين الحقد والكراهية والحسد، فالحبيب المصطفى ﷺ لم يكن من قومهم، حتى يسكن جأش غضبتهم العرقية التى كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم.

من ناحية أخرى، كانت دعوة الإسلام دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب، وتطفى نار العداوة والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة فى الأمور كلها، وإلى الالتزام بالأخلاق والآداب المثلى والتعامل الإنسانى بعدم أكل الربا، والتقيد بأكل الحلال من طيب الأموال.

وهذا يعنى أن قبائل المدينة العربية ستتآلف فيما بينها، وحينئذ لا بد من أن تفلت هذه القبائل من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجارى، ويحرموا أموال الربا التى كانت رأس مال ثروتهم، وأساس تعاملهم، وكانت تقوى به شوكتهم وممتلكاتهم.

كان اليهود بخبثهم ومراوغتهم ونفسياتهم الضبابية الصدئة، يدخلون ذلك كله فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام ستستقر فى المدينة ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة للإسلام، وللرسول الكريم ﷺ وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها علانية، إلا بعد حينٍ من الدهر.

ويظهر ذلك جلياً واضحاً أشد الوضوح فيما ذكرته أمنا التي نعطر الأسماع والأفواه بسيرتها، وهي واحدة من نساء أهل البيت الطاهر السيدة صفية بنت حبي بن أخطب الهارونية رضى الله عنها، وأمها: برة بنت سموعل أخت رفاعة بن سموعل القرظي.

روى ابن إسحاق رحمه الله عن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها قال: حدثت عن صفية بنت حبي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بنى عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حبي بن أخطب، فلم يرجعاً حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالين، كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حبي بن أخطب: أهو، هو؟!.

قال: نعم والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟.

قال: نعم.

قال: فما في نفسك منه؟.

قال: عداوته والله ما بقيت».

هذه هي النفسية القاتمة الحاقدة التي عاشها حبي بن أخطب، وقتل عليها بعد أن بذر من بذور الفتن في الجزيرة العربية، وفعل ما فعل من أفاعيل الغدر ونقض العهود التي أوردت به وبنى قريظة.

كانت صفية بنت حبي تصغى إلى حديث أبيها الذي ينفث خبثاً وحقداً وضغينة على النبي العربي ﷺ الذي جاء يدعو إلى المحبة والسلام والفضيلة، إنها تحس عطفاً على رسالته، بل وحماسة إلى دعوته، وإن همساً غريباً يهجس في أغوارها أن سيكون لها شأن في حياة النبي ﷺ، ولو رفعت عن بصيرتها حجب الغيب لرأت نفسها زوجة للرسول ﷺ، ولخفق قلبها سروراً، وتهللت بالفرح أن من الله عليها بأن تصبح أم المؤمنين.

ويعتبر هذا القبس الذي قرأناه آنفاً، شهادة من صفة على شدة كفر حُيى بن أخطب، ومن شايعة من صحبه من اليهود الذين أكل الحقد قلوبهم، وتسرب الغدر إلى نفوسهم فكمّن فيها، فباتوا يحيكون العداوة والمؤامرة لكل مسلم ومؤمن.

ومن الجدير بالذكر أن صفة أم المؤمنين هذه، من سبط اللاوى ابن نبي الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ثم من ذرية رسول الله ﷺ هارون أخى موسى عليهما السلام.

كانت صفة من عاقلات النساء، ومن ذوات التقى والزهد والصفاء، وممن عرفن بالكرم والتجاوز والصفح عن الناس، ففى «حليته» ذكرها الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله بقوله: «ومنهن التقية الزاكية، ذات العين الباكية، صفة الصافية زوجة النبي ﷺ».

إن فلنشهد ساعاتٍ من الصفاء مع أمنا صفة رضوان الله عليها، ولنشهد معاً غزاة خيبر مع الحبيب المصطفى ﷺ، تلك الغزاة التى سببت فيها صفة ومن ثم دخلت خدر أمهات المؤمنين، فكانت من البيت الذى أذهب عنه الرجس وطهره تطهيراً.

مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي خَيْبَرَ:

عرفنا أن اليهود يبطنون العداوة لرسول الله ﷺ وللإسلام، ومن هؤلاء يهود خيبر، إذ كانوا - وهم فى خيبر - يطوون أفئدتهم على البغضاء للرسول ﷺ، وكانوا يتحينون الفرص، وأحياناً يختلقونها ليطعنوا الإسلام طعنة فى الصميم، وكانت خيبر إذ ذاك وكر الدس والتآمر، ونواة التحرشات وإثارة الحروب، وسبب كل بلاء وبليّة.

ولما أن عاد المسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة، دون أن تسمح لهم قريش بدخول مكة والطواف حول البيت، ظن اليهود أن نبي الإسلام محمد ﷺ، لم يقبل شروط الصلح المجحفة بالمسلمين إلا لوهنٍ وضعفٍ تسلل إلى أصحابه فأرادوا أن يستغلوا ذلك الوهن، وحسبوا أنهم سيصيبون من المسلمين مقتلاً، فبعثوا إلى غطفان وأعراب البادية، ليؤلبوهم على حرب رسول الله ﷺ.

ترامت الأنباء التى تحمل غدرهم إلى رسول الله ﷺ أن خيبر تتأهب للوقعة به وبمن حوله، ولم تنتظر رسول الله ﷺ حتى يفجأه اليهود وحلفاؤهم بهجومهم وغدرهم،

فاستنفر من حوله حتى يغزوا معه، وجاء المخلفون عنه في الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، وكانوا من المنافقين وضعفة الإيمان، فأمر الله عز وجل الحبيب الأعظم ﷺ فيهم فقال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ الْمَخْلَفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَّبْكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَ النَّبَّاءَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الفتح: ١٥).

وحدد رسول الله ﷺ من يخرج معه إلى خيبر، لكي يقطع الطريق أمام المنافقين وأذبالهم، فأعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، وأما الغنيمة فلا، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة الذين رضى الله عنهم، وهم ألف وأربع مائة مسلم ممن بايعوا الله ورسوله تحت الشجرة في الحديبية، وخرج رسول الله ﷺ بأصحابه في المحرم افتتاح سنة سبع.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: «أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج بقية المحرم إلى خيبر». وذكر المفسرون وأهل العلم فقالوا: «إن خيبر كانت وعدًا وعدها الله تعالى بقوله: ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَيْدَهُ ﴾ (الفتح: ٢٠) يعنى صلح الحديبية، والمغانم الكثيرة خيبر».

ومن العجيب أن المنافقين كانوا على اتصال دائم بأسيادهم اليهود، فقد كان المنافقون يعملون لليهود صباح مساء، وأرسل رأس المنافقين وزعيمهم الخاسر عبد الله ابن أبي سلول إلى يهود خيبر: أن محمداً قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شزيمة قليلون، عُزل لا سلاح معهم إلا قليل، ولكن رسول الله ﷺ وأصحابه، كانوا في طريقهم إلى خيبر وهم مجهزون تجهيزاً حسناً، وقد خرج مع الجيش المسلم نساء المقاتلين، ليعتنين بالجرحى، وليحرضن الرجال على القتال في سبيل الله عز وجل.

كان الجيش الإسلامي يحمل الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب وكانت من بُرْدِ لعائشة بنت الصديق رضى الله عنهما، ولما أشرف الحبيب المصطفى ﷺ على خيبر وناحياتها قال لأصحابه الكرام: «قفوا» فوقف الجيش: فقال: «اللهم رب السموات

وما أضللن، ورب الأرضين وما أقلن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله» وكان يقول ذلك لكل قرية قدمها».

أشرف المسلمون على خيبر، وباتوا تلك الليلة، ولا تشعر بهم اليهود، وكان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم لا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: «محمد والله، محمد والخميس» ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم وأفندتهم تخفق وتكاد تنقطع، وأنفاسهم تضطرب وتكاد تتوقف، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

ونصر الله عز وجل رسوله على أهل خيبر، وفتح رسول الله ﷺ حصونهم، وسبيت صفية بنت حبي، وابنة عم لها، وجاء سيدنا بلال بن رباح بهما، فمر على قتلى اليهود، فلما رأتهم بنت عمه صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها النبي ﷺ قال: «اعزبوا عنى هذه الشيطانة».

والنفت إلى بلال وقال له: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلهما» وكان كنانة بن أبي الحقيق، زوج صفية قد قتل لغدره في هذه الغزوة.

إسلام صفية:

جاء الصحابي الكريم دحية بن خليفة الكلبي عندما جمع السبي.

فقال: «يا نبي الله، أعطني جارية من السبي».

فقال ﷺ: «أذهب فخذ جارية».

فأخذ صفية بنت حبي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ.

فقال: «يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حبي سيدة قريظة، وبنى النضير، لا

تصلح إلا لك».

قال: «ادعوه بها».

فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «خذ جارية من السبي غيرها» وذهب دحية إلى حيث جمع السبي، وأخذ جارية أخرى هي أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صفية.

وكان لرسول الله ﷺ من الغنيمة يدعى الصّفى، إن شاء عبداً وإن شاء أمة، وإن شاء فرساً يختاره قبل الخمس.

قالت أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما: «وكانت صفية من الصفى» فاختارها ﷺ.

ونقل أحمد زيني دحلان رحمه الله فى سيرته عن الحافظ ابن حجر فى شأن صفية قال: «ولد صفية مئة نبي ﷺ، ومئة ملك، ثم صيرها الله إلى نبيه ﷺ، وليس ممن توهب لدحية لكثرة من فى الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان فى السبي مثل صفية فى نسابتها نسباً وجمالاً، فلو خصه بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه ﷺ بها، فإن فى ذلك رضا الجميع».

وبعد أن تم الفتح المبين لخيبر، ركب المسلمون وانطلقوا، وكل خالجة وجارحة فيهم تشكر الله عز وجل على ما آتاهم من نصر، ورزقهم من غنائم.

وقطع رسول الله ﷺ ستة أميال من خيبر، وأراد أن يعرس بصفية بنت حبي، فأبّت ورفضت لشيء كان فى نفسها، فوجد النبي ﷺ فى نفسه، فلما سار ووصل إلى مكان يسمى الصهباء، مال إلى هناك، ودخل على صفية، وما من الناس أحد أكره إليها منه، قتل أباه فى قريظة، وزوجها وقومها فى خيبر، وأخبرها بأن قومها صنعوا ما صنعوا، وغدروا حتى حاق بهم سوء أعمالهم فما زال كذلك حتى أذهب الله الكره من نفسها.

روت صفية رضى الله عنها تلك اللحظات التى التقت رسول الله ﷺ وذهب ما بنفسها فقالت: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وما من الناس أحد أكره إلىّ منه، فقال: «إن قومك صنعوا كذا وكذا» قالت: فما قمت من مقعدى، وما من الناس أحد أحب إلىّ منه».

وخير النبي ﷺ صفة بين أن يعتقها، فترجع إلى من بقى من أهلها في خير، أو أن تشهد شهادة الحق فتسلم، وحينذاك يتخذها لنفسه فقالت: «أختار الله ورسوله» فأعتقها.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: ومن خصائص صفة: «أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها».

قال أنس بن مالك ؓ: «أمهرها نفسها، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة، يجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها، وتصير زوجته، على منصوص الإمام أحمد».

لقد اختارت صفة الله ورسوله، وعللت ذلك بقولها: «يا رسول الله ﷺ، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت إليه رحلك، وما لى فى اليهودية أرب، وما لى فيها والد ولا أخ من العتق، وأن أرجع إلى قومي».

وهذه الإجابة من صفة تشير إلى حكمتها ونظرتها سليمة إلى الأمور، قال عنها الإمام الذهبي رحمه الله: «وكانت شريفة عاقلة، ذات حسب وجمالٍ ودين رضى الله عنها وكانت ذات حلم ووقار».

ووصفها أبو عمر القرطبي رحمه الله بقوله: «كانت صفة عاقلة حليلة فاضلة» وبعد ذلك أعرس بها رسول الله ﷺ بعد أن حلت، فمشطتها أم سليم الأنصارية وعطرتها، وكانت أضوا ما يكون من النساء.

ولما أصبح رسول الله ﷺ، سأل صفة: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟».

فقالت: «خشيت عليك من قرب اليهود».

فزادها ذلك مكانة ومنزلة عند النبي ﷺ وما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها من النبي ﷺ، وأولم وأطعم أصحابه.

ولنترك سيدنا أنس بن مالك ؓ يمتع الأسماع فى سرد وقائع ذلك الحدث السعيد، حسب ما ورد فى الصحيح.

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدمنا خير، فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حبي بن أخطب، وقد قتل زوجها، وكانت عروساً، فاصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه، فخرج بها، حتى بلغنا سد الصهباء حلت، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صنع حيساً في نطع صغير، ثم قال لن: أذن من حولك فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يحوى لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى عين صفية خضرة من أثر ضربة فسألها: ما هذه الخضرة فقالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حجري فلطمنى وقال: أتريدين ملك يثرب، أو قال: والله ما تتمنين إلا ملك العرب . وكان عمر صفية عندما دخلت رحاب البيت النبوي الطاهر سبعة عشر عاماً على أصح الأقوال، وكانت تكنى أم يحيى.

صفية في البيت النبوي:

قدمت صفية بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم من خير إلى المدينة، وكان يعاملها في غاية الرفق، ووجدت صفية منه رقة وكياسة ولطفاً، فقالت: ما رأيت قط أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء البشير إلى أهل المدينة يعلمهم بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجوا يستقبلونه عند عودته من هذه الغزاة منصوراً ظافراً... كانت وجوه الرجال تتهلل بالبشر، والولدان يغمرهم الفرح، بينما كانت النساء على أسطح المنازل، وقد عمرت أفئدتهم بالسرور. أما المنافقون وأسيادهم، فقد كانوا في كمدٍ رهيب يكاد الغيظ يصهرهم، ولكنهم يظهرون غير ما تخفى الصدور، غصت حلاقيهم بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفضحهم الله عز وجل، وجعل كلمتهم وكلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا. وكانت النسوة في دور النبي صلى الله عليه وسلم يتأهبون لاستقبال نبي الإسلام، وحبیب المسلمين الذى نصره الله عز وجل بقلوبٍ سليمة، وعزائم صادقة، ونفوس صافية.

بلغ الركب الميمون المدينة المنورة، وآثر رسول الله ﷺ ألا يدخل على نسائه الطاهرات بصفية الصافية، وأحب أن ينزلها في بيت الصحابي النجيب حارثة بن النعمان الأنصاري ؓ.

وتسامعت نساء الأنصار بصفية زوج النبي ﷺ تلك التي دخلت فيها عداد أمهات المؤمنين الطاهرات، وجئن زرافات ووحداناً ينظرون إلى جمالها وملاحتها.

وأخذ النبي الكريم ﷺ يزور أهل بيته، فبدأ كعادته بابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وأخذ يقبل سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما، ثم دار على نسائه فأخذن يرحبن بمقدمه ويهنئنه بما فتح الله عليه.

وفى تلك الساعة خرجت أمنا عائشة رضي الله عنها منتقبة على حذر، لرؤية السيدة صفية التي أخذت مكانة فسيحة في نفوس نساء المسلمين، وقد أثنين على جمالها، ووصفنها بكل مفردات الجمال وأدواته ومحاسنه.

كانت السيدة عائشة رضي الله عنهما تسير في هدوء منتقبة إلى بيت حارثة بن النعمان الأنصاري، حيث تقيم هناك صفية بنت حبي أم المؤمنين، تلك الجميلة ذات الربيع السابع عشر، ودخلت عائشة وسط النساء، وهي تظن أن لن يعرفها أحد، ولكن الحبيب المصطفى ﷺ عرفها، وانتظر حتى خرجت، فأدركها، وأخذ بثوبها فقال: يا شقراء كيف رأيت .

وحاولت عائشة رضوان الله عليها أن تغالب عواطفها وتجاهد نفسها، وقالت: رأيت يهودية بين يهوديات فقال الحبيب الأعظم ﷺ يصحح مفهوم عائشة ويعلمها بإيمان صفية: لا تقولى ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها .

صفية ونساء أهل البيت:

انتقلت صفية أم المؤمنين إلى بيوت النبي ﷺ، ويظهر أنها أخذت على نفسها عهداً أن تصافى جميع نساء أهل البيت، وتكون لهن صديقة وفية، فبدأت في استجلاب القلوب واستمالتها، بتقديم الهدية التي تعجب جماعة النساء وترضيهن.

بدأت صفية بدرة البيت النبوي الطاهر فاطمة الزهراء رضي الله عنها التي ألفتها، وأحببتها حباً شديداً، فوهبت لها حلية من ذهب كانت في أذنيها اعترافاً بحبها وولائها

للسول الكرم ﷺ، ووهبت كذلك بعض نساء أهل البيت بعض حلًى من ذهب، كان معها لما قدمت من خبير.

كانت صفية رضى الله عنها عاقلة فاضلة، تتودد إلى صواحبها من نساء أهل البيت النبوى، ولكنها ظلت تحس بأنها غريبة فى بيوت النبى ﷺ، فأزواجه الطاهرات، لا يستطيعن أن ينسين أصلها، فهذه حفصة تعيرها بأنها ابنة يهودى، ولكن الحبيب المصطفى ﷺ يعلمها كيف ترد وتتنصف لنفسها.

أخرج أبو عيسى الترمذى رحمه الله بسنده عن معمر عن ثابت بن أنس رضى الله عنه قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودى، فبكت، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى، فقال: ما يبكيك قالت: قالت لى حفصة: إنى ابنة يهودى، فقال النبى ﷺ: وإنك لابنة نبى، وابن عمك لنبى ﷺ، وإنك لتحت نبى، ففيم تفخر عليك .
ثم قال: اتقى الله يا حفصة .

كانت أم المؤمنين صفية رضوان الله عليها تجد فيما يقوله لها ﷺ بلسماً شافياً لما يعتلج فى صدرها من تلميح وتلويح نساء أهل البيت لها، وتفخر هى الأخرى بما يفخرون به عليها.

فدعونا نستمع إلى أمنا صفية، وهى تحدثنا عن ذلك فتقول: دخل على رسول الله ﷺ، وقد بلغنى عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منى؟ وزوجى محمد، وأبى هارون، وعمى موسى؟! وكان الذى بلغها أنهم قالوا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النبى ﷺ وبنات عمه .

ويظهر أن عائشة رضى الله عنها قد ذكرت صفية بأنها قصيرة، ولكن رسول الله ﷺ لم يرض بهذا، ولم يقره، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - قال بعض الرواة: تعنى قصيرة - فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

أحسب أن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها كانت مثار غيرة أيضاً لابنة عمته وزوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش، وعلى الرغم من زهد زينب وجودها

ومعروفها، إلا أنها قد نددت منها كلمة في حق السيدة صفية، ويبدو أن رسول الله ﷺ قد غضب إذ ذاك، وعتب على زينب زمناً إلى أن رضى عنها، رضى الله عنها.
ورد عن أمنا صفية رضى الله عنها: أن النبي ﷺ حج بنسائه، فبرك بصفية جملها، فبكت وجاء رسول الله ﷺ لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده، وهى تبكى، وهو ينهاها، فنزل رسول الله ﷺ بالناس، فلما كان عند الرواح، قال لزينب بنت جحش: أفقرى أختك جملًا - وكانت من أكثرهن ظهراً - فقالت: أنا أفقر يهوديتك!

فغضب فلم يكلمها، حين رجع إلى المدينة، ومحرم، وصفر، فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويست منه، فلما كان ربيع الأول دخل عليها فلما رأته، قالت: يا رسول الله، ما أصنع؟ قال: وكانت لها جارية تخبؤها من رسول الله ﷺ، فقالت: هي لك فمشى النبي ﷺ إلى سريرها، وكان قد رفع، فوضعه بيده، ورضى عن أهله.

ولعل هذا التوجيه النبوى الحكيم لزينب رضوان الله عليها، خفف عن صفية رضى الله عنها ما كانت تجده من بعض نساء أهل البيت، ونعمت بنعيم العشرة النبوية التى أبدلتها كل خير عن أهلها وعشيرتها، وفازت بنعيم أبدى اختصت به من لدن عليم خبير.

كان نساء النبي ﷺ يقتبسن من أخلاقه وشمائله، وخصائله الحميدة شيئاً كثيراً، فكانت الواحدة منهن تراعى الأخرى فى بعض الشئون، فهذه عائشة رضى الله عنها، كانت ترعى صفية، وتحسن إليها لتأخذ حظها من رسول الله ﷺ.

أخرج ابن ماجه رحمه الله بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ وجد - غضب - على صفية بنت حبي فى شىء، فقالت صفية: يا عائشة هل لك أن ترضى رسول الله ﷺ علىّ ولك يومى؟

قالت: نعم.

فأخذت خماراً لها مصبوغاً بزعفران، فرشته بالماء ليفوح ريحه، ثم قعدت إلى جنب رسول الله ﷺ.

فقال النبي ﷺ: يا عائشة! إليك عنى، إنه ليس يومك.

فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فأخبرته بالأمر فرضى عنها.

والله إنها لصادقة:

إذا كان الإنسان سليم الفطرة، نقي السريرة، فإنه يتكلم بلهجة صادقة لا تعرف إلى المكر سبيلاً، ولا يعرف المكر لها طريقاً، ولذا فإن هذه الصفات تكسب صاحبها احترام الناس جميعاً.

كانت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها ذات سريرة صافية، وعلاية نقية، فقد أحببت رسول الله ﷺ، وصدقت في حبها لله عز وجل، فجاءت تصرفاتها نابعة من معين الصدق، ونبوع الوفاء، مما جعلها متفردة في بعض المواقف العطرة التي تنفح سيرتها بعطر فواح بالأريج، وشهد رسول الله ﷺ لأمنا صفية بالصدق بعد أن أقسم على ذلك.

روى زيد بن أسلم رحمه الله قال: «اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضعه الذي توفي فيه، فقالت صفية بنت حبي: والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمزنها أزواجه، فأبصرهن فقال: «مَضْمُضُنْ».

قلن: من أى شيء يا نبي الله؟.

قال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة».

فأكرم بهذه الشهادة النبوية العظيمة لأمنا صفية رضي الله عنها! وهل هناك شهادة أعظم من الصدق؟.

ومِنْ مَنْ؟ من الصادق المصدوق رسول الله ﷺ.

إنما هي صفية:

كانت أمنا صفية رضوان الله عليها تحتل مكاناً علياً بين نساء رسول الله ﷺ في مقام الصدق، وكان رسول الله ﷺ يعرف قدرها ويكرمها، وهو من أعرف الناس، فكان وهو في معتكفه يخرج من المسجد تكرمة لها.

أخرج البخاري رحمه الله عن الزهري قال: أخبرني علي بن الحسين رضي الله عنهما، أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ، تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تتقلب، فقام النبي ﷺ يقلبها، حتى على رسول الله ﷺ، فقال لها النبي ﷺ: «على رسلكما، إنما هي صفية بنت حبي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبرَ عليهما.

فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً».

مَعْرِفَتُهَا قَدَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

عرفت أم المؤمنين صفية رضی الله عنها بتبصرها في الأمور على ضوء القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولذلك كانت تحاكم الأمور من هذه النافذة المضيئة، ولا تكاد تخرج عن مفهوم القرآن الكريم.

وأعتقد أن أم المؤمنين صفية رضی الله عنها كانت تدرك معاني القرآن الكريم، وتعرف بعض أسرارها، ومدى أثره وتأثيره في النفوس الصافية التي تعيش في آفاق الذكر الحكيم، وتتعمق في تلاوته أثناء الليل، وأطراف النهار.

فالمؤمنون حقاً هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وارتبطوا على أساس صحيح سليم متين بالله عز وجل.

لكن الذين يخالفون هذه القاعدة، هم مقصرون، ويحتاجون إلى تبصير وإرشاد إلى الطريق السليمة، وهذا ما كانت تفعله أمنا صفية، إذا كانت تأخذ بأيدي هذه الفئة التي تود العبادة على أساس صحيح، روى أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله عن عبد الله بن عبيدة، أن نفراً اجتمعوا في حجرة صفية بنت حبي زوج رسول الله ﷺ، فذكروا الله، وتلوا القرآن، وسجدوا، فنادتهم صفية رضی الله عنها: «هذا السجود، وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟».

لقد أرادت أمنا صفية أن ترشدهم إلى روح العبادة، وإلى الخشوع والخوف من الله عز وجل، فإذا ما تحقق الخشوع، وصحبه الخوف من الله، فاضت الدموع من العيون، ودلت على الخشوع، وهذا يشير إلى معرفة أمنا صفية بقدر الله عز وجل.

حُلْمُهَا وَكَرَمُهَا وَصِدْقَتُهَا:

كانت أم المؤمنين صفية رضی الله عنها تتخلق بالآداب المحمدية التي تلقتها في بيت رسول الله ﷺ، ولذلك اكتسبت حلماً فوق حلمها، وآداباً فوق أدبها، فغدت قدوة النساء في الحلم والتقوى والورع والفضل، وفي معرض حديثه عنها، قال أبو عمر القرطبي رحمه الله في «الاستيعاب»: «كانت صفية حليلة عاقلة فاضلة».

والحق يقال فهذه صفات الكمال عند الرجال، فكيف إذا اجتمعت في امرأة مثل أم المؤمنين صفية رضي الله عنها!!.

لا شك في أن أمنا صفية قد ضربت مثلاً طيباً في فضائل الأعمال، وأعلاها الصدق والحلم، ولهذا عندما تحدث عنها الذهبي رحمه الله وصفها بأنها من ذوات العقل والدين، واستدل على ذلك بما نقله عن أبي عمر بن عبد البر - رحمه الله - قال: «روينا أن جارية لصفية، زعمت أن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود، فإن لي فيهم رحماً، فأنا أصلها.

ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟.

قالت الجارية: الشيطان.

فقالت صفية رضي الله عنها في أناة: فاذهبي، فأنت حرة».

إن هذا التصرف الكريم هو ذروة الحلم الذي تحلت به أمنا صفية رضي الله عنها، في حين كانت صفية تقدر على القصاص، ولكنها آثرت مرضاة الله عز وجل الذي تهتدى بنور هدايته، والذي أثنى على عباده المتقين بقوله: ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْأَعَابِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤) وقال تعالى أيضاً: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦).

إن صفية أم المؤمنين في رحمتها للجارية وعفوها عنها، أوتيت أجرها مرتين: صلة رحمها، وعتق الجارية.

ولذلك كانت صفية أم المؤمنين تتصرف في أمورها من مشكاة الأنوار المقتبسة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وهذا ما جعلها ذات حلم ووقار، ومكان احترام في نفوس من حولها من نساء أهل البيت ومن صحابة رسول الله ﷺ وغيرهم من الناس.

وفي حياة الخليفة عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان كان لأمنا صفية رضي الله عنها، موقف وضيء يشير إلى فضلها ومعرفتها مكانة عثمان ﷺ.

ورد ما يؤيد هذا، عن كنانة مولى أمنا صفية أنه قال: «كنت أقود بصفية لترد عن عثمان، فلقبها الأستر، فضرب وجهه بغلته حتى مالت، فقال: ردني لا يفضحني هذا. قال: ثم وضعت خشباً بين منزلها، ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام».

وبهذا التصرف الكريم، عبرت أم المؤمنين صفية عن عدم رضاها عن الذين ظلموا سيدنا عثمان، وضيقوا عليه، ومنعوا عنه الطعام والماء، فرأت من واجبها أن تكون خير معوان لذي النورين عثمان، كما عبرت عن سعة أفقها، وكمال عقلها الذي كانت تزن به الأمور، ولذلك وصفها ابن الأثير والنووي رحمهما الله بقولهما: «كانت عاقلة من عقلاء النساء» وأثنى عليها الحافظ بن كثير رحمه الله فقالت: «كانت من سيدات النساء عبادة، وورعاً، وزهادة، وبراً، وصدقة، رضى الله عنها وأرضاها».

وفى مجال الصدقة والجود، عرفت أم المؤمنين صفية رضى الله عنها بأن الدراهم والأموال لا تستقر على كفها إلا عابرات سبيل إلى أماكنها، وعرفت بأنها لا يقيم لعرض الدنيا قيمة، وهى تعرف أن ما عند الله خير وأبقى، وكانت تدرك ما للصدقة من عظيم الأثر فى النفوس، وما لها من ثواب عظيم عند الله عز وجل، ولذا فإنه قد كانت لها دار فتصدقت بها فى حياتها طلباً لرضوان الله ومغفرته، واقتداءً بالنبي ﷺ، وما أجمل قول ابن العماء فيها: «وكانت جميلة فاضلة، كفاها فضلاً ونبلاً زواج النبي ﷺ بها»!

علمها وحفظها للحديث النبوى:

لما اتصلت صفية بنت حبي رضى الله تعالى عنها برسول الله ﷺ، ودخلت فى عقد أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، أخذت تنهل من العلم والمعرفة فى شغف شديد، وراحت تحفظ من القرآن الكريم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فقد أثر عنها بأنها ذات دين وحب للكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد لاحظنا من خلال نفحات سيرتها الطيبة، مقدار حبها للقرآن الكريم، والعمل بما جاء فيه.

أما حياتها مع الحديث النبوى الشريف، فكانت ممن نقل أقوال رسول الله ﷺ عملاً بقول الله عز وجل: ﴿ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(الأحزاب: ٣٤) ورد لها من حفظها عشرة أحاديث روتها عن النبي الكريم ﷺ، منها حديث واحد متفق عليه في الصحيحين عند البخاري ومسلم.

حدث عن صفية أم المؤمنين ثلة من أكابر التابعين، منهم: علي بن الحسين، وإسحاق بن عبد الله بن الحارث، وكنانة مولاها، وابن أخيها وآخرون.

ومن مرويات أمنا صفية ما أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده، بسنده عن مسلم ابن صفوان، عن صفية أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا ينتهي الناس عن غزو هذا البيت حتى يغزوه جيش، حتى إذا كانوا بببءاء من الأرض، خسف بأولهم وآخرهم، ولم ينج أوسطهم» قالت: قلت: يا رسول الله ﷺ أريت المكره منهم؟.

قال: «يبعثهم الله عز وجل على ما في أنفسهم».

ومن مروياتها، ما رواه إسحاق بن عبد الله بن الحارث الهاشمي قال: حدثتنا صفية قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ، ففرت إليه كتفاً بارداً، فكننت أسحاها، فأكلها، ثم قام فصلى».

مَعَ خَالَدَاتِ النِّسَاءِ:

مكثت صفية أم المؤمنين رضي الله عنها قرابة أربعين سنة بعد وفاة النبي ﷺ، وكانت تقضى حياتها في الطاعات والقربات بين صلاة وصيام، ونسك وصدقة، وعلم وفقه، وقد شهدنا جانباً من فضائلها في الصفحات السابقة.

عاشت أمنا صفية عصر الخلفاء الراشدين كله، وشهدت أحداثه، وفتوحات الإسلام العظيمة شرقاً وغرباً، فسرت بذلك أيما سرور بانتصار الإسلام، وارتفاع رايات الحق والعدل، ونشر السلام والإسلام.

وفي سنة خمسين من الهجرة، ودعت صفية أم المؤمنين هذه الدنيا بعد أن تركت في نساء أهل البيت الطاهر أثراً كريماً طيباً حميداً، سيظل باقياً بإذن الله إلى ما شاء الله تعالى.

وفي اليوم الذي توفيت فيه صفية، أتى من أبلغ ابن عباس خبر وفاتها، فسجد، ذكر هذا الحديث الترمذي في جامعه بسنده عن الحكم بن أبان عن عكرمة قال: قيل لابن عباس بعد صلاة الصبح: «ماتت فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ، فسجد.

قيل له: أتسجد هذه الساعة.

فقال: أليس قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا»؟ فأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ؟!».

وفى المدينة المنورة دفنت أمنا صفية إلى جوار أمهات المؤمنين الطاهرات، وبنات النبي ﷺ، وقد شيع جثمانها عدد من كبار الصحابة حيث دفنت فى البقيع، وتبقى أم المؤمنين صفية مع الخالدات وتظل سيرتها الصافية تروى القلوب، وتبقى صفية قدوة للنساء، فهل تقتدى النساء بها، وهل يسرن على دريها؟! وينهلن الصفاء من صفائها؟! .
رضى الله عن أمنا صفية، وعن نساء أهل البيت النبوى الطاهر، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والحمد لله رب العالمين.

أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان (أم حبيبة) رضى الله عنها

مؤمنة صابرة، قوية، ذات عقل راجح، نزل بحقها قرآن يتلى.
من مهاجرة الحبشة، ثبتت في وجه الكفر والكفرة ثبات الرواسي، ولم يستطع أحد
أن يؤثر على إسلامها.

نظمت في عداد أمهات المؤمنين وهي لا تزال في أرض الحبشة.
لها موقف مشهور مع أبيها لما قدم المدينة، ينم عن إيمانها الصحيح، ومعرفتها
قدر النبي ﷺ.
ولدت قبل البعثة — (١٧ سنة) وتوفيت بالمدينة سنة (٤٤ هـ) وروت (٦٥
حديثاً).

أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان رضى الله عنها

بَاحِثُونَ عَنِ الْحَقِيقَةِ:

سجى الليل، وغفا الناس، وما كان يُبْعَثُ الصمت الذى خيم على مكة إلا أصوات
بضعة رجال، كانوا يتحاجون فيما بينهم ويتسامرون، ويتحدثون عن الأصنام وتعظيمها،
وتقديم النذور لها، وعن مكانتها عند العرب بعامّة، وعند قريش خاصة.

كان هؤلاء الرجال أربعة هم: ورقة بن نوفل، عثمان بن الحويرث بن أسد، زيد
ابن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش، وكانت أم عبيد الله بن جحش هي أميمة بنت
عبد المطلب عمّة النبي الكريم ﷺ.

راق الحديث وطاب لهؤلاء في سكون الليل من خلال أنسامه الرقيقة اللطيفة التي
تداعب وجوههم، وطاب لهم السمر في تلك الليلة الصافية التي تقلدت بالنجوم، فقال
بعضهم لبعض: «تصادقوا، وقولوا الحقيقة، ولْيَكُنَّ بعضكم على بعض، فلا تعلم قريش
بذلك».

فقالوا: «نعم».

فقال أحدهم: «إنكم تعلمون والله ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم وملته» ثم قال ساخرًا متعجبًا: «ويلكم، ما حجر نطيفُ به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ولا يغنى شيئًا! ويحكم قوموا فالتمسوا لأنفسكم دينًا، فإنكم وأيم الله ما أنتم على شيء!...».

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ويقولون: «أفرأيتم اللات والعزى؟ ومناة الثالثة الأخرى؟ وهل رأيتم هبل وإساف ونائلة؟ وغيرها من الأصنام إنها مهزلة سخيفة حقيرة، تستولى على عقولنا، وعقول آبائنا وأجدادنا، وعقول العرب والأعراب، ولا تغنى من الحق شيئًا، ويحكم تعالوا نبحث عن الطريق التي توصلنا إلى الحقيقة لعننا نصيب خيرًا».

فى آخر تلك الليلة تنفس الصبح وتبسم الفجر، وانبسبت أشعة الشمس كأنها تبتز في الأفق الشرقى، وعند ذلك نهض الأربعة، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

فأما ورقة بن نوفل، فاستحکم فى النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب، ومات قبل الجهر بالدعوة وكان ورقة عربيًا أصيل النسب من ذروة بيوتات قريش، وهو كما روى الأصبهاني في الأغاني: «أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية، وطلب الدين، وقرأ الكتب، وامتتع من أكل ذبائح الأوثان».

وأما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم، وتنصر وحسنت منزلته هناك، فكان يقال له: «البطريق» ومات بالشام مسمومًا.

وأنا يزيد بن عمرو بن نفيل، فلم يدخل فى نصرانية ولا يهودية بل اعتزل الأوثان، وحرّم على نفسه الميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموعودة وقال: «أعبد رب إبراهيم» ومات قبل البعثة.

ويبدو أن زيد بن عمرو قد عاب ورقة بن نوفل على اعتناقه النصرانية، وأراد منه أن يتخلى عنها فقال ورقة: «أنا أستمّر على نصرانيتى إلى أن يأتى الذى تبشرنا به الأخبار».

وحينما اطمأن زيد على التوحيد، وأعلن ذلك قال له ورقة:

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما
تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربًا ليس رب كمثلها
وتركك جنان الجبال كما هيا
وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس والاضطراب، لم
يثبت على أمرٍ من الأمور، ولم تستقر بفكره ديانة أو عقيدة.

وكان عبيد الله بن جحش قد تزوج إحدى عقيلات قريش حسبًا ونسبًا وهى رملة
بنت أبي سفيان زعيم مكة وسيد بنى أمية، وأمها هى صفية بن أبى العاص بن أمية
عمة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ولم تمض مدة من الزمن، حتى ذاع فى مكة ذلك النبأ العظيم، نبأ محمد صلى الله عليه وسلم،
ونزول الوحي عليه، فطغى هذا الحدث العظيم، وغطى كل الأنباء والأحداث.

رَمَلَةٌ وَإِيمَانٌ مُبَكَّرٌ:

أخذت أخبار الإسلام تصافح الأسماع فى مكة المكرمة، فدخلت بعض بيوتها
العريقة، وعندئذ وقف الناس وانقسموا إلى فريقين اثنين:
فريق آمن بالله عز وجل، وبرسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

وفريق كفر بما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وكان من زعماء هذا الفريق أبو
سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب، وأميه بن خلف
وغيرهم.

لكن أبا سفيان على الرغم من حزمه ومكانته الرفيعة فى قريش خاصة وعند
العرب بعامة، لم يستطع أن يحجب نور الهداية عن قلب ابنته رملة، التى شرح الله
صدرها للإيمان، وألقى فى قلبها أنوار اليقين، فأمنت مع السابقين الأولين، وسخرت من
الأصنام والأوثان، ومما يعبد هؤلاء وهؤلاء من دون الله الواحد القهار.

ودخل زوجها عبيد الله بن جحش فى دين الله فى أول الأمر، وكان أخواه: عبد
الله، وأبو أحمد قد أسلما أيضًا مع ثلة الأولين وصدقوا العهد مع الله عز وجل، وأسلمت
كذلك أختاه: زينب وحمنة، وكتبت هذه التلة مع زمرة السعداء.

كانت رملة بنت أبي سفيان على جانب كبير من راحة العقل، وجزالة الرأى،
وقوة الإرادة، وكان أبو سفيان يعلم هذه الخصائص المتميزة فى ابنته رملة، لكنه لم يكن

يتوقع أنها ستغدو يوماً واحداً ممن تنبذ تقاليد الجاهلية بعيداً ويزدريها، وتترك ما نشأت عليه من تعظيم للأصنام والأوثان، ثم تكون من السابقات المسارعات إلى الإيمان بالله ورسوله!!!.

كاد أبو سفيان — وهو الجلد الصبور — أن يصعق، وأن يفقد صوابه لما تسللت الأنبياء إليه تشير إلى أن ابنته رملة قد صبأت — بزعمه — عن دين قريش، وعزفت عن هُبل وعن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وغيرها من الأصنام، وعرفت الإسلام ودخلت في دين محمد ﷺ.

ودلف إلى دارها في بني جحش وهو يحاول أن يغالب غضبه وذلك لكي يثنيها عن عزمها، ويمحو الإسلام من قلبها، ويمحو عن نفسه ما لحقه من خزي بإسلامها — كما زعم — ولكن رملة رضت الله عنها أجابته بهدوء ويقين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» ولم تزد على ذلك.

أخذ أبو سفيان يتحدث إلى رملة بهدوء مصطنع، ويحدثها عن مجده ومجدها، ومجد آبائه وأجداده، وراح يقدم ويؤخر، ويراوغ معها، لكنه عجز أن يفتتها، أو يدخل إلى قلبها حرفاً واحداً مما يقول، فقد ملأ الإيمان قلبها، وأضحت إرادتها صلبة لا تحركها العواصف المبتورة، ولا الأحاديث، عن الأمجاد، ولا عن الأجداد.

وقام أبو سفيان بعد تلك الجلسة وهو خالي الوفاض، ورجع إلى بيته كاسف البال، حزين الفؤاد، لقد خرجت ابنته العاقلة عن إرادته، ولم تطاوعه في شيء، وبددت آماله العراض، وأحلامه العذاب بإيمانها بالله عز وجل، وكفرها بآلهة أبيها وقومها.

كانت رملة رضى الله عنها تسمع آيات الله عز وجل، فتزداد إيماناً مع إيمانها، وراحت تحفظ ما ينزل من آيات الذكر الحكيم على محمد ﷺ، وتتذوق حلاوتها ونشعر بجمال روعتها، فقد عرفت رملة بأنها كانت من العاقلات الفصيحات، ومن سيدات النساء.

هجرة وصبر جميل:

من كان يظن من الملائكة الوثنى أن أبا سفيان سيسخط على أقرب الناس إليه؟! ابنته رملة! ومن كان يظن أن أبا سفيان يرى ابنته تعذب في الله ويسكت راضياً.

هذا ما حدث قولاً وفعلاً، فقد وثبت القبائل على من أسلم منها، تكيل لهم ألوان العذاب، فاحتمل المسلمون البلاء وذاقوا مرارة الاضطهاد، حتى إذا ما طفح الكيل، وبلغ السيل الربي، وتجاوز المشركون مقدار الإنسانية، أشار الحبيب المصطفى ﷺ على أحبابه وأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

هاجر بعض المسلمين إلى أرض الحبشة، ولما كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة، هاجر عبيد الله بن جحش فيمن هاجر، واصطحب معه زوجه رملة، وكانت حاملاً حتى إذا ما استقروا في الحبشة عند مليكها النجاشي، وضعت رملة ما في بطنها فكانت أنثى، فسمتها حبيبة، فكنت بها، وأصبحت مشهورة بكينيتها تدعى «أم حبيبة».

صَعَبَ على أبي سفيان ومن معه من جماعة المشركين أن يفلت من أيديهم أولئك المؤمنون، الذين تركوا بيوتهم وديارهم، وخرجوا بعيداً بعيداً عن مراتع صباهم، ليذوقوا طعم الراحة التي فقدوها في مكة، ومنهم ابنته رملة أم حبيبة.

أما المسلمون المهاجرون، فكانوا هنالك في خير دار، وشعروا بأفياء الراحة تظلمهم عند خير جار، وعبدوا الله عز وجل بعيدون عن سفهاء قومهم الذين أذاقوهم أفسى أنواع العذاب وألوانه، وفي أرض الحبشة، كان المسلمون يتبادلون الزيارات، فكانت ثلثة المؤمنات المهاجرات كأم حبيبة، وأم سلمة، ورقية بنت رسول الله ﷺ وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، وليلي بنت أبي حثمة وغيرهن، يجتمعن ويتذاكرن أيام مكة، ويذكرن البيت العتيق، وفي قلوبهن حنين إلى هاتيك الديار الحلوة، وما كان يخفف عنهن ذلك إلا إيمانهن العميق بأنهن على صراط العزيز الحميد، وأنهن يتحملن المصاعب في سبيل الله عز وجل، وفي سبيل رضوانه ومرضاته.

عندما تتحقق الأحلام:

ظلت أم حبيبة رضى الله عنها ملازمة للعبادة، وحسن الصلة بالله عز وجل، ترعى ابنتها وتغذيها على طاعة الله عز وجل، ومحبة رسول الله ﷺ، بينما راح زوجها عبيد الله بن جحش يختلف إلى الرهبان والقساوسة، ويطيل المكث معهم، والجلوس إليهم، فكانت نفسه تميل أحياناً لما يقولون، إلى أن أعجب بهم على مر الأيام.

وفى ليلة من الليالي التى احلوك ظلامها ولمعت نجومها فى السماء، دخلت أم حبيبة غرفتها، وأوت إلى فراشها، وراحت تذكر الله عز وجل، وتسبح بحمده، ثم استسلمت للنوم، وحلمت حلمًا أثار مخاوفها، فقامت مذعورة مفزوعة، مبهورة الأنفاس، ولم يسكن روعها أبدًا، فقد حفرت أحداث الحلم المروع فى وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة، وأعمق أثرًا من الواقع الذى كانت تعيش فيه.

ولكن ما قصة هذا الحلم؟! أم حبيبة نفسها تذكر لنا تفاصيله فتقول: «رأيت فى النوم كأن عبيد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشوهها ففزعت وقلت: تغيرت والله حاله! فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة، إنى نظرت فى الدين، فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت فى دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك، وأخبرته بالرؤيا التى رأيتها له، فلم يحفل بها».

ارتد عبيد الله بن جحش عن الإسلام، واعتنق المسيحية، وغلبت عليه الشقاوة، وحاول أن يرد أم حبيبة عن الإسلام، ورغبها فيما أضحى يدين به، ولكن محاولاته لم تجد فتيلًا وأخذت تذروها الرياح، وأبت أم حبيبة أن تجيبه إلى ما يريد، وصبرت صبر الكرام، وأخذ إيمانها الصحيح يعمل عمله، فأضاء جوانب نفسها، وزاد من ثقتها بالله عز وجل، وأن الله مع الصابرين، وأنه لبالمرصاد لمن ضل وخرج عن جادة الصراط السوى.

ولم تقبل أم حبيبة رضى الله عنها أن تبقى مع إنسان مشرك كافر، أو أن تجالسه أو تحادثه، فكان لا بد من الفراق والانفصال عن هذا الزوج العاق، الذى عق دينه، وعق أهله وخان العهد الذى فارق عليه رسول الله ﷺ.

إذن، فليكن الفراق، واتخذت أم حبيبة هذا القرار الحاسم، فاعتكفت فى دارها لا تزور ولا تزار، تضى سحابة نهارها تذكر الله عز وجل، وتقوم الليل تناجيه، وتبته همومها، وتشكو إليه حالها، فهو عليم بها، وبما أصابها فى غربتها، وفى وحدتها.

إن الظروف التى أحاطت بأم حبيبة كانت قاسية جدًا ومضنية إلى حد كبير، فهى لا تستطيع أن تعود إلى مكة وهى على هذه الحالة، فأبوها أبو سفيان عدو الإسلام اللدود — الآن — ولن يقر له قرار حتى يفتتها عن دينها، لتعود مكانته وهيبته بين

صفوف فجار قريش الذين أخذوا يعيرونه بإسلام ابنته أم حبيبة وبهجرتها، وفرارها إلى الحبشة، وهي لا تستطيع أن تهجر إلى المدينة المنورة لا تريد أن تكون كلاً على زينب بنت جحش أخت زوجها عبيد الله، فاستسلمت لله عز وجل، وسلمت إليه أمرها فهو علام الغيوب.

أما زوجها عبيد الله بن جحش، فقد استهوته خمور الحبشة وراح يعب من دنائها ما جعله صريع أقداحها، يصل ليله بنهاره وهو يعاقرها، وأكب على احتسائها حتى مات كافرًا طريدًا خسر الدنيا والآخرة.

قال الطبري رحمه الله «فتنصر زوجها، وحاولها أن تتابعه، فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية».

ومن الجدير بالذكر أن عددًا من النساء توفين في الحبشة مهاجرات وهي: فاطمة بنت صفوان بن أمية، وأم خزيمة (أم حرملة) وتوفيت ربطة بينت الحارث بن جبيلة بالطريق وهي راجعة ومات معها ابنها موسى وابنتاها: عائشة وزينب من ماء شربوه بالطريق.

أما النساء اللواتي مات عنهن أزواجهن بالحبشة فهن: سيدتنا أم حبيبة بنت أبي سفيان، وفاطمة بنت المجال مات عنها زوجها حاطب بن الحارث بن معمر، ورملة بنت أبي عوف بن ضبيرة، مات زوجها المطلب بن أزهر، وفكيهة بنت يسار مات عنها زوجها حطاب بن الحارث.

يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ:

مكثت أم حبيبة بنت أبي سفيان وحدها في ديار الغربية، فقد مات زوجها وهو مكب على الخمر، وراحت أم حبيبة تدعو الله عز وجل أن يلهمها الصواب، وأن يرحم غربتها، ويرحمها لما تعرضت من هزات عنيفة، آخرها دعوة زوجها إلى ترك الإسلام والتنصر، ولكن الله عز وجل، أبي لأم حبيبة أن تنتصر، وأتم لها الإسلام والهجرة.

بلغ الحبيب المصطفى ﷺ وهو بالمدينة المنورة أخبار أم حبيبة بنت أبي سفيان المؤمنة المسلمة السابقة إلى ارتشاف رحيق الإيمان وأندائه وهي بمكة، ثم هاجرت إلى الله ورسوله وفي سبيل الله إلى الحبشة.

وبلغه ﷺ أن زوجها عبيد الله بن جحش ارتد عن الإسلام، ومات نصرانيًا، وها هي ذى تعيش وحدها معها طفلتها الصغيرة حبيبة، فرأى ﷺ أن يكرمها، وأن يجزيها خير الجزاء عن صبرها، وعن تمسكها بدينها، وبلغه ما بلغه من صيانتها وعبادتها وعفتها وصبرها، فعزم ﷺ أن يتزوجها، وأن يشرفها بأشرف مقامات القرب، بأن تكون أمًا للمؤمنين وأن تكون من نساء أهل البيت النبوي الطاهر ذى الأصل الثابت، والفرع المتطاوّل فى السماء.

كانت أم حبيبة رضى الله عنها قد اقتربت من الأربعين، وقد أثر عنها ورعها ودينها وصلاتها، ولذلك وصفها الإمام الذهبى رحمه الله بقوله: «السيدة المحجبة رملة بنت أبى سفيان».

لكن رسول الله ﷺ قد عزم أن يرفعها فوق مكانتها، وذلك بالزواج منها، وأنه بذلك الزواج سيحقق إحدى الحسنين: جدع أنف أبى سفيان والد رملة القاسى، أو أن يلين طبعه الغليظ ويخضع قلبه لما نزل من الحق، فيشرح صدره للإسلام.

كل هذا كان فى المدينة المنورة، وكانت هذه الأحداث تدور فى بيت رسول الله ﷺ، أما السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان، فقد كانت فى الحبشة تنتظر انقضاء عدتها حتى يأتى الله بالفرج، أو أمر من عنده.

وذات عشية أوت أم حبيبة إلى مخدعها لتنام، فرأت فى نومها كأن قائلاً يقول: «يا أم المؤمنين» فهبت من نومها وقعدت تفكر فى هذا الحلم العجيب والجميل فى أن واحد، ولكن سرعان ما سرت سكينه الهدوء إلى نفسها، فأولت أن رسول الله ﷺ يتزوجها وها هي ذى الأيام تمضى يومًا بعد يوم، ولم يبق على انقضاء عدتها سوى أيام معدودات.

كان الرسول ﷺ قد جهز بالمدينة المنورة عمرو بن أمية الضمري، ليقوم بمهمة كريمة، وينقل أعظم البشارات للسيدة المحجبة رملة بنت أبى سفيان وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أبى أمية إلى النجاشى يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان.

كانت أم حبيبة رضى الله عنها، تفكر فى وحدتها، وتتفكر فى الحلم الذى رأت منذ أيام، فلم يرعها إلا رسول النجاشى، وكانت جارية يقال لها أبرهة، كانت تقوم على ثيابه

ودهنه قد دخلت عليها وقالت: «إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه، شعرت أم حبيبة رضى الله عنها بهالات السرور تجللها، وأحست بأن فيضاً مباركاً قد غمرها، وغمر أحاسيسها، ولم تستطع أن تكتم عواطفها، بل قالت للجارية وهي مبتسمة ضاحكة من قولها: بشرك الله بخير...».

فقالت الجارية: «يقول لك الملك، وكلّى من يزوجك».

فأرسلت أم حبيبة إلى أحد أقاربها وهو خالد بن سعيد بن العاص الأموي رضي الله عنه فوكلته».

ثم إن أم حبيبة رضى الله عنها أعطت الجارية أبرهة سوارين من فضة وحلتها بهما، وخلخالين وخواتيم من فضة أيضاً كانت في أصابعها بما بشرتها، وهل هناك أمنية أو بشارة أعظم من هذه البشرية التي نظمت أم حبيبة في ذلك العقد الثمين عقد أمهات المؤمنين الطاهرات اللواتي أكرهن الله عز وجل برسول محمد ﷺ وأكرمننا أيضاً بالحديث عن سيرهن...

خطبة الزواح والمهر النفيس:

في ترجمته النفيسة لأم حبيبة أم المؤمنين رضى الله عنها، ذكر الإمام الذهبي رحمه الله بعض المعارف النفيسة اللطيفة، في شأن مهر أم حبيبة وزواجها فقال: «وهي من بنات عم الرسول ﷺ، ليس من أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، عقد له عليها بالحبشة، وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجعلها بأشياء».

وهذا القول يتوافق ويوافق ما جاء في الصحيحين من قرابته من رسول الله ﷺ.

إن هذا الإنعام الرباني كله من فضل الله على أم حبيبة، ومن رحمته العظيمة بها وبأمهات المؤمنين الطاهرات اللاتي ذكرهن الله عز وجل بقوله: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

أما كيف كانت الخطبة المباركة، والمهر الكريم، فنحن مرسلو القول في ذلك إن شاء الله.

ففى ذلك اليوم الذى زفت البشرى لأم حبيبه بالزواج من رسول الله ﷺ، أمر النجاشى ملك الحبشة جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين أن يحضروا: فحضروا، وإذ ذاك قام النجاشى خطيباً فى ذلك الحفل البهيج فقال: «الحمد لله الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم، أما بعد: فإن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقته أربعة مائة دينار».

ثم إن النجاشى سكب الدنانير بين يدى القوم المسلمين وجلس فى مكانه، فقام وكيل أم حبيبة خالد بن سعيد بن العاص ﷺ يخطب فقال: «الحمد لله أحمده، وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ».

ودفع النجاشى الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أراد المسلمون أن يقوموا، وإذ ذاك قال لهم النجاشى: «اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج» فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

ولنستمع إلى ما نظمه أحمد محرم فى هذه المناسبة الطيبة إذ يقول:

بشراكِ أم حبيبة بمحمدٍ	تمت لك النعمى ففوزى واسعدى
بشراكِ أم المؤمنين فهذه	رؤياك عند أوانها والموعدي
قلدت أمراً خالداً فمضى به	شرفاً على شرفٍ أشم مخلصي
هتف الرسول أجب وكيل محمدٍ	فمشى إلى الملك الأعز الأصيلي
جمع الأحبة والرفاق فأقبلوا	من كل عالٍ فى الرجال ممجدي
أدى النجاشى الصداق مباركاً	ملء الديدن يسوقه من عسجدي
وأقام الله الولائم كلما	زادت وفود القوم قال لها ازددى

«وَعَلَيْهَا السَّلَامُ»:

إن الأقدار التي تجرى في أعنتها، رفعت من قدر أم حبيبة، وجعلتها في مكانة مباركة، هي نفسها الأقدار التي رفعت قدر تلك الجارية «أبرهة» التي بشرت أم حبيبة بأمر الزواج المبارك، وجعلت رسول الله ﷺ يهديها السلام، وهنيئاً لمن سلم عليه رسول الله ﷺ.

وإني لأكبر تلك الجارية التي عمل الإيمان عمله في قلبها، فزهدت فيما يحبه النساء من حلّى وذهب وفضة، ورغبت في سلامها على النبي ﷺ - وهي لم تره - هذه أمنيته التي عرضتها على أم حبيبة رضی الله عنها.

لنستمع إلى أمنا أم حبيبة تروى خبر ذلك السلام: قالت أم حبيبة: «لما وصل المال وهو مهري من النجاشي، أرسلت إلى الجارية أبرهة التي بشرتني، فأنتت، فقلت لها: يا أبرهة، إني كنت قد أعطيتك ما أعطيتك بالأمس، ولا مال بيدي، فهذه الخمسون متقالاً، فخذها فاستعيني واستعني بها، ولكن الجارية أبت ذلك، وأخرجت حقاً فيه كل ما كنت أعطيتها، فردته عليّ وقالت: عزم عليّ الملك ألا أرزأك شيئاً، أنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعت دين محمد رسول الله ﷺ، واسلمت لله عز وجل، وقر أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر، قالت أم حبيبة: فلما كان من الغد، جاءتني بعود وورس وعنبر، فقدمت بذلك كله على رسول الله ﷺ، فكان يراه عليّ فلا ينكره، ثم قالت الجارية أبرهة: يا أم حبيبة إن حاجتي إليك أن تقرئي رسول الله ﷺ مني السلام، وتعلميه أني قد اتبعت دينه».

قالت أم حبيبة: ثم لطفت الجارية أبرهة بي، وكانت هي التي جهزنتني، وكانت كلما دخلت على تقول: يا أم حبيبة لا تنسى حاجتي إليك.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة، وما فعلت بي أبرهة، فتبسم رسول الله ﷺ، وأقرأته منها السلام، فقال: «وعليها السلام ورحمة الله وبركاته».

أُمُّ حَبِيبَةَ فِي أَفْيَاءِ الْبَيْتِ الطَّاهِرِ:

بعد أن مكث المسلمون في الحبشة زمناً طويلاً، أخذوا يتأهبون للهجرة إلى المدينة بعد أن استقر فيها الإسلام والسلام، وبعد أن فصلت المعارك بين المسلمين والمشركين،

فقد كانت معركة بدر، وأحد، والخندق، وغيرها، وفي هذه المعارك كان أبو سفيان من قاداتها ضد المسلمين.

كان آخر المعارك التي قادها أبو سفيان معركة الأحزاب التي هزم الله فيها الأحزاب وحده، بعد أن زاغت أبصار المؤمنين، وبلغت القلوب الحناجر، ونادى أبو سفيان بالرحيل ليلحق بمكة، وقد انهارت آمال الأحزاب ورئيسها أبو سفيان في استئصال المسلمين.

وقد عبر أبو سفيان في كتاب أرسله إلى رسول الله ﷺ عن مشاعره عقب الانسحاب جاء فيه: «باسمك اللهم، فإنني أحلف باللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، لقد سرت إليك في جمع، وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى استأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما كانت تعرف ظل رماحها، وشب سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا، ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد».

فأرسل إليه جواباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى صخر بن حرب أما بعد: فقد أتاني كتابك، وقديماً غرك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى، وإسافاً ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك يا سفي بنى غالب».

كان المسلمون في الحبشة في شوق شديد إلى لقاء رسول الله ﷺ، وإلى لقاء الأحبة والأصحاب، وكانت أم حبيبة رضى الله عنها أكثرهم شوقاً ولهفة، فما إن تدخل دور النبي ﷺ، حتى تصبح أم المؤمنين، وإنها لأمنية غالية، قد نالتها بإيمانها وصبرها، وإنه لشرف عظيم يتقاصر دونه كل شرف، ويتضاءل أمامه كل شيء، فليس بالقليل لقب أم المؤمنين، إنه لتاج مبارك ألنساها إياه رب العالمين.

أما أبو سفيان، فكان في مكة، تهب عليه الذكريات، وتطوف بذهنه ما كان بينه وبين محمد والمسلمين يوم بدر ويوم الخندق، وتذكر تلك الريح التي قلبت قلوبهم، واقتلعت خيامهم في يوم الخندق، وجاشت الذكريات في وجدانه، وكانت جميعها تخز

نفسه، وخزاً أليماً، فقد أثارها ابنته أم حبيبة بعد أن جاء من الحبشة من يخبره أن محمداً ﷺ قد كتب إلى النجاشي أن يزوجه أم حبيبة، وأنها قد وكلت خالد بن سعيد ليزوجها من نبي الإسلام هذا الذي يحاربه منذ اليوم الأول لانبثاق الرسالة المحمدية. وتأججت في جوفه نار الغيظ، وزاد في حنقه أن الخبر الذي أتاه من الحبشة يقول: «إن ابنته أم حبيبة كادت تطير من الفرح لما علمت أن رسول الله ﷺ قد بعث يخطبها، وأنها أعطت الجارية التي بشرتها سوارين ثم قالت لها بعد أن قبضت الصداق: كنت أعطيتك السوارين بالأمس، وليس بيدي شيء من المال، وقد جاعني الله عز وجل بهذا...».

أم المؤمنين، أم حبيبة ابنة زعيم قريش تصبح أمّاً لأعدائه الذين يحاربهم منذ زمن بعيد!!! لقد دارت به الأرض لما بلغه ذلك النبأ، ولكن كلمة الحقيقة فرت من شفثيه لترسم في سجل التاريخ معبرة عن صدق وجدانه، شاء أم أبي، لقد قال: «ذلك الفحل لا يقرع أنفه».

وعادت أم حبيبة مهاجرة إلى المدينة سنة سبع من الهجرة عقب فتح خيبر، عادت مع ركب المهاجرين وفيهم جعفر بن أبي طالب ومن معه، وقد سر النبي ﷺ لقدم هؤلاء الأحبة بعد غياب دام طويلاً، ومعهم الصابرة الطاهرة السيدة المحجبة أم حبيبة التي غدت زوجه وأم المؤمنين.

دخلت أم حبيبة البيت النبوي الطاهر في المدينة، وغدت أم المؤمنين رغماً عن أناف المشركين... وتزوج النبي ﷺ أم حبيبة سنة سبع من الهجرة بعد زواجه من صفية بنت حيي أم المؤمنين، أما عن كيفية قدومها من الحبشة ودخولها البيت النبوي الطاهر، فعند أبي القاسم بن عساكر الخبر اليقين حيث قال: «لما قدمت أم حبيبة رضى الله عنها، أمر رسول الله ﷺ بلالاً فأخذ بخطام بعيرها، فأنزلها المنزل، الذي أمره النبي ﷺ، فإذا فيه كناسة، فقالت لمولاة لها: إن شئت كفيتني السقى وكنست، وإن شئت استقيت وكنست، قال: فكنت البيت، ثم بسطت فيه بساطاً عليه شيء ثم أسرت، ثم أذن رسول الله ﷺ بالدخول على أهله، فلما دخل عليها وجد ريح الطيب، وقال: «إنهن قرشيات بطاحيات قرويات، لسن بأعرابيات ولا بدويات».

ومنذ أن دخلت أم حبيبة البيت النبوي غدت من نساء آل البيت الطاهر، وراحت تنهل من معين القرآن الكريم، والحديث الشريف الذي فاتها في هجرتها بالحبشة حتى غدت واحدة من فقيحات نساء الأمة.

ومن الجدير بالذكر أن رسول الله ﷺ قد أشرك المهاجرين في الحبشة من مغام خيبر، ولم يقسم لأحد غيرهم معهم، وقال في حقهم: «لكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

إِخْلَاصُ أَمِّ حَبِيبَةَ وَوَقَاؤُهَا:

كانت هدنة الحديبية بين المسلمين والمشركين أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن الكريم، والحديث النبوي، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين مطمئنين، وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله عز وجل: ﴿فَتَحًّا مُبِينًا﴾ (الفتح: ١).

كان من شروط المعاهدة شرط تضمن حرية الاختيار للقبائل في الانضمام إلى أحد الفريقين المتصالحين، فقد توثبت خزاعة وقالوا: «نحن في عقد محمد ﷺ» وتوثبت بنو بكر وقالوا: «نحن في عقد قريش وعهدهم».

كان بين خزاعة وبكر إحن وضغائن جاهلية، خلفت بينهم تراباً ودماءً، وكانوا يتحنون الفرص لإثارتها، فلما جاء الإسلام حجز بينهم، وظلوا على ما بينهم من الإحن والبغضاء حتى ثم عقد صلح هدنة الحديبية، فانتهزها البكريون غدراً وخيانة، وعدوا على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وبيتوهم في ديارهم وعلى مياههم وهم غارون آمنون، ورفدت قريش حلفاءها بنى بكر بالسلاح والرجال مستخلفين، وظاهروهم على حلفاء رسول الله ﷺ الداخلين في عقده وعهده، فنقضت بذلك قريش عهدها مع رسول الله ﷺ.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين من قومه، إلى المدينة المنورة يستنصر رسول الله ﷺ، وأخبره بغدر قريش، وأنشده أبياتاً من الشعر يستصرخه بها، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم».

وتسامعت قريش برحلة الخزاعيين إلى المدينة يستصرخون رسول الله ﷺ، فرعبت رعباً شديداً، وأخذها ما أخذها من الخوف، وندمت على ما فعلت، وما قدمت يداها، وسقط في يدها، فأرسلت زعيمها أبا سفيان بن حرب ليشد عقد الهدنة ويستزيد مدتها، وقدم أبو سفيان المدينة المنورة، فلما وصلها دخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها، فذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال لها: «يا بنية، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟».

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس.

قال: «والله لقد أصابك بعدى شر».

قالت: «هدانى الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك دخول فى الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟».

قال: «يا عجباء، وهذا منك أيضاً؟! أأترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد؟! ثم

قام من عندها».

ودعنى عزيزى القارئ أتحدث عن موقف أم المؤمنين أم حبيبة أمام أبيها، فها هنا توجد إشراقة مباركة من لونٍ عجيب من هذه المرأة الحصيصة الكريمة التى ظهرت بأرفع الإخلاص وأخلصه فى عقيدتها، وفى حبها لله عز وجل، ولرسوله ﷺ.

فالسيدة الجليلة أم حبيبة بنت أبي سفيان، بنت زعيم قريش، وسيد بطحاء مكة، يدخل عليها أبوها بعد طول عهدٍ بفراقها، ويגיע ليجلس على فراشٍ فى بيتها فتطويه عنه، فيتساءل بعنجهية الكبرياء المتعطرس الممزوج برواسب الجاهلية: «هو طوى عنه الفراش لأنه لا يليق بكبرياء سيد البطحاء وزعيم قريش أو طوى هذا الفراش تعظيماً به أن يدنسه رجس الشرك فى زعامة البطحاء؟».

وفى هدوء ممزوج بنور اليقين، وأنوار الإيمان المستقر فى الأعماق، تجيبه ابنته الوفية لدينها، ولنبيها ورسالته، ولزوجها وعظمته مبينة له بصراحةٍ كاملة ودون مواردية: «بأنه فراش رسول الله ﷺ الطاهر المطهر، وأنت رجل مشرك نجس، لا تصلح للجلوس عليه خشية أن تدنسه».

لقد تقاصرت نفس شيخ قریش، فما دار في خلدہ أن یأتی یوم یتوی عنہ فراش، وهو الذی قدمت إلیہ النمارق فی قصر قیصر، وكانت الأبواب تفتح له فی قصور الشام، ومن ذا الذی طوی عنہ الفراش؟ إنها أم حبیبة ابنته التي كانت أطوع له من بنانه من قبل، والیوم افترقا فقد عرفت الطریق وضل هو بعناده وصلفه، فقام بینهما حاجز تجاوز الأبوة النبویة، إنه التنافر بین الإیمان والشرك، الإیمان الذی إذا خالطت ذراته بشاشته شغاف القلوب، وامتزجت حلاوته بالأرواح والجوارح والعقول، صنع الأعاجیب.

لم ینتفع أبو سفیان بن حرب بهذا الدرس الذی تلقاه من أقرب الناس إلیه لحمًا ودمًا من ابنته فی بیت رسول الله ﷺ، ولكنه ذهب إلی رسول الله ﷺ، وفی جعبته حصیلة من الخداع والكذب، فکلمه فیما هو قادم من أجله، فلم یرد علیه شیئًا فاستشعر مذلة وراودته فکرة أن یعود من حیث جاء، ولكنه عزم أن یسیر إلی نهاية الشوط.

فقام یجر رجلیه جرًا، وذهب إلی الصدیق أبی بکر ؓ، فکلمه لیکلم له رسول الله ﷺ، فأبى علیه أبو بکر، ثم أتى أبو سفیان عمر بن الخطاب ؓ، وکلمه لیشفع لهم عند رسول الله ﷺ فكان عمر أشد الناس وطأة علی کبریاء زعیم البطحاء ابن حرب.

وانطلق أبو سفیان وأتى عثمان بن عفان ؓ، فكان جواب عثمان کجواب سابقیه: هُوَ هُوَ أو قریب من هُوَ، فحار أبو سفیان، ثم أتى علی بن طالب ؓ وعنده زوجة فاطمة الزهراء رضی الله عنها، وابنها الحسن غلام یدب علی الأرض بین یدیها، فاستعطف علیًا وسأله بالرحم أن یشفع له إلی رسول الله ﷺ، فأبى علیه، ولكنه لابنه، ورفق به، فالتفت زعیم البطحاء فی ذلة إلی السیدة النبیلة أطهر الطاهرات، فاطمة البتول رضوان الله علیها وقال لها: «یا بنت محمد، هل لك أن تأمری بنیک هذا فیجیر بین الناس فیكون سید العرب إلی آخر الدهر؟!».

فقالته أم الحسنین سیدة نساء العالمین رضی الله عنها: «والله ما یبلغ بنی هذا أن یجیر بین الناس، وما یجیر أحد علی رسول الله ﷺ».

وخرج أبو سفیان من عند هؤلاء حائرًا، یجرر أذیال الخیبة والفشل وقد أظلمت الدنیا علیه، ولم یدر أیشرق أم یغرب، حتی ألقته الحیره إلی أشراف الأنصار، فأتی

سعد بن عبادة سيد الخزرج، فقال له: «يا أبتا ثابت، إنك سيد هذه البحيرة، فأجر بين الناس، وزد في المدة».

فقال له سعد ﷺ: «جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد عليه».

ثم عاد أبو سفيان يجره الشيطان من خياشيم اليأس والطغيان إلى أشرف قريش من المسلمين والأنصار، يتهافت ويتهافت، ويستجير ويستصرخ، ويتملق، وكلهم يقول له: «جوارى فى جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه».

أرأيت عزيزى القارئ أبا بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب والزهاء كيف تكلم هؤلاء من مشكاة واحدة، وكيف جابهوا أبا سفيان بحقيقة حاله.

إنه الإيمان العظيم، وإنه الأدب الكريم الذى استقوه من رسول الله ﷺ، فنطق جميعهم بالحكمة وفصل الخطاب، عاد أبو سفيان زعيم قريش بعد غيبة طويلة إلى قريش خائباً مردولاً متقللاً بالخيبة فى سفارته التى كان يرجو منها الخير وخصوصاً من ابنته أم حبيبة رضى الله عنها التى قابلته بما يستحق أن تقابل به كل مشرك ظلوم كفار، وتحققت بذلك نبوة رسول الله ﷺ، حينما قال لأصحابه: «كأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول: جدد العهد، وزد فى المدة وهو راجع بسخطه».

أما رسول الله ﷺ فقد تجهز، وأمر المسلمين أن يتجهزوا، وسار إلى مكة فى حشود جند الله وكتائب الإيمان، وأنصار الإسلام، وفى الطريق التقطت عناية الله أبا سفيان، ورحمة الله وبركاته، فدخل فى الإسلام، بعد أن رأى عظمته وعظمة نبيه وفتح الله على رسوله مكة المشرفة، ودخلت قريش فى الإسلام، وأطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكانوا بفضل الوفاء بالعهد، وببركة هدنة الحديبية، هم كتائب الجولة الأولى لفتوح الإسلام كلها، وكانت مكة قلعة وحصناً من قلاع وحصون الدعوة إلى الله بالعلم والحجة النيرة، ثم بالجهاد فى سبيل الله عز وجل.

نزول القرآن بها وبشارة نبوية:

ماتت أم حبيبة راضية النفس، مطمئنة الفؤاد لا تفتأ تذكر الله وتشكره على أن هدى أبا سفيان وأهل بيته إلى الإسلام، وتحمد الله عز وجل أن اجتذب الإسلام أفئدة أقربائها وذويها ليكونوا من جنود مدرسة النبوة وفرسانها، وكانت قبل فتح مكة ترتجف

فرقاً أن يموت شيخ بنى أمية على الكفر، ويحرم من النعيم المقيم في ظل الإيمان، ويموت على الكفر طريذاً مطروداً من رحمة الله، كما مات شيوخ من بنى مخزوم كآبى جهل والوليد بن المغيرة، ومات شيوخ من بنى سهم كالعاص بن وائل، ومن بنى عبد شمس كعتبة بن ربيعة وأخيه شيبعة وغيرهم.

كانت أمنا أم حبيبة رضوان الله عليها دائبة الشاء على الله، دائمة الشكر له، فقد منَّ عليها وأكرمها بنزول قرآن بها يتلى في المحاريب إلى ما شاء الله.

فقد ذكر المفسرون والمؤرخون وبعض كتاب السيرة والتراجم بأسانيدهم عن ابن عباس أنه قال: «في هذه الآية: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً ۗ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المتحنة: ٧) قال: فكانت المودة التي جعل الله عز وجل بينهم تزويج النبي أم حبيبة بنت أبي سفيان رضى الله عنهما، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين».

وقال الطبرى رحمه الله فى التفسير: «عسى الله أيها المؤمنون أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم من أعدائهم من مشركى قريش مودة، ففعل الله ذلك بهم، بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزاباً».

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله: الله تعالى قادر على تقليب القلوب، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة، قال بعضهم: لا تهجروا كل الهجر، فإن الله مطلع على الخفيات والسرائر، ويروى: أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بفيضك يوماً ما».

وقد خصها رسول الله ﷺ بحديثه، وبشرها بالجنة مع أخيها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

أخرج أبو القاسم بن عساكر رحمه الله بسنده عن الحسن قال: «دخل معاوية ﷺ على النبي ﷺ وعنده أم حبيبة رضى الله عنها، وكانت إلى جانب النبي ﷺ، فلما رآها رجع، فقال النبي ﷺ «يا معاوية ارجع» فرجع، ففقد معهم، فقال لها النبي ﷺ: «والله إنى لأرجو أن أكون أنا وأنت وهذه فى الجنة ندير الكأس بيننا».

وفى حديث نبوى آخر، يدل على مكانة أم حبيبة، ومكانة نساء النبى ﷺ، ما أخرجه ابن عساکر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أبى لى أن أتزوج إلا أهل الجنة».

أُمُ حَبِيبَةَ وَذَكَرِيَّاتُ الْحَبَشَةِ:

النجاشى الذى أحسن نزول المهاجرين فى الحبشة، اسمه «أصحمة» وتعنى كلمة أصحمة بالعربى «عطية» وملك الحبشة هذا معدود فى الصحابة رضى الله عنهم، وكان ممن حسن إسلامه، ولم يهاجر، وليس له رؤية، فهو تابعى من وجه صاحب من وجه.

وفى يوم جاء جبريل عليه السلام، وقال للحبيب المصطفى ﷺ: «إن النجاشى الرجل الصالح قد مات، فصلى عليه بالناس صلاة الغائب».

وذكرت المصادر أنه لم يثبت عن النبى ﷺ أنه قد صلى على غائب سواه، وسبب ذلك أنه مات بين قوم نصارى، ولم يكن عنده من صلى عليه، لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين ثانية إلى المدينة المنورة عام خيبر.

وذاع فى دور النبى ﷺ أن النجاشى قد مات فصارت فى نفوس أهل البيت النبوى الذكريات، فتذكرت أم المؤمنين أم سلمة أيامها بالحبشة وإكرام النجاشى للمهاجرين. كانت أم حبيبة أم المؤمنين رضى الله عنها قد عادت بها الذكريات إلى أيام الحبشة... تذكرت تلك الرؤيا التى هفتت بها: «يا أم المؤمنين» فطار خيالها إلى المدينة حيث كان رسول الله ﷺ، إنها بشارة وبشرى بأنها ستصبح ذات يوم من أمهات المؤمنين.

وأطرقت أم حبيبة تصيخ السمع إلى الماضى القريب البعيد، إنها تسمع أو تستحضر صوت «أبرهة» جارية النجاشى، وهى تزف إليها البشرى تلك التى أدخلتها إلى عقد أمهات المؤمنين.

رَوَايَتُهَا وَحَفِظُهَا:

أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها إحدى نساء أهل البيت النبوى اللواتى أكرمهن الله عز وجل بالعلم ورواية الحديث، فهى واحدة من حافظات النساء، واحدة

من اللواتي شغلن أنفسهن بحب كتاب الله عز وجل، وسنة الحبيب الأعظم محمد ﷺ، فراحت بعد عودتها من الحبشة تنهل من معين الآيات القرآنية وتحفظ من الأحاديث الشريفة ما جعلها إحدى المكثرات من الرواية، فلم يسبقها في الحفظ والرواية من أمهات المؤمنين إلا عائشة وإلا أمنا أم سلمة وأمنا ميمونة رضى الله عنهن أجمعين، ثم تأتي أمنا أم حبيبة في المرتبة الرابعة بين أمهات المؤمنين وفي نساء أهل البيت الطاهرات.

ولعل مرد هذا إلى أن أم حبيبة رضى الله عنها تعد إحدى فصیحات النساء، وإحدى النسوة اللواتي عرفن بالبلاغة، وحسن الخطاب، كما كانت من ذوات الرأى الجزل والمكانة والحصافة والذكاء الذى صقل موهبتها وجعلها من سادة قریش وفضلیاتهن.

كانت أم حبيبة رضى الله عنها شديدة التمسك بهدى الرسول الكريم ﷺ، ولعلها فى حياتها بعده ﷺ كانت لا تريم قيد أنملة عما حكاها المصطفى ﷺ، فكانت تروى الحديث الشريف، وتعمل به، وتوصى بالعمل بما جاء فيه وتفقه حكمه، وهذا يشير إلى فضلها وفضائلها رضى الله عنها.

بلغ مسند أمنا أم حبيبة رضى الله عنها خمسة وستين حديثًا اتفق لها البخارى ومسلم على حديثين، وتفرد مسلم بحديث.

وروى لأم حبيبة أصحاب السنن والمسانيد، وروى عنها كبار الصحابة والصحابيات، وكذلك كبار التابعين.

وحدث عن أم حبيبة أخوها: الخليفة معاوية، وعنبسة، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبى سفيان، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن الزبير، ومولياها: سالم بن شوال المكى، وأبو الجراح القرشى وآخرون.

وحدث عنها من النساء الصحابيات: زينب بنت أبى سلمى المخزومية، وصفية بنت شيبة العبدرية رضى الله عنهما.

ومما رواه لها البخارى رحمه الله ما أخرجه بسنده عن حميد بن نافع عن زينب ابنة أم سلمة، عن أم حبيبة ابنة أبى سفيان: لما جاءها نعى أبيها، دعت بطيب، فمسحت

ذراعيها وقالت: ما لى بالطيب من حاجة، لولا أنى سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً».

وفى مسنده أخرج أبو يعلى الموصلى رحمه الله بسنده عن أبى الجراح مولى أم حبيبة، عن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، كما يتوضئون».

وعن فضائل الصلاة وفضلها روت أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من صلى أربعاً قبل الظهر، وأربعاً بعدها، حرمه الله عليه النار». كانت أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وكانت موصولة القلب بالله عز وجل، وصلت نهارها بليلها، وليلها بنهارها فى الطاعات، تسير مفتتحة نهج رسول الله ﷺ وسنته، وكانت تحث أهلها وأخواتها على التمسك بالهدى النبوى فى الصلاة، حيث إنها لم تترك صلاة التطوع مذ سمعت ذلك من فم رسول الله ﷺ.

أخرج أبو يعلى رحمه الله فى مسنده عن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس قال: «قال لى عنبة بن أبى سفيان: ألا أحدثك حديثاً حدثناه أم حبيبة بنت أبى سفيان؟»

قال: بلى.

قال: وما رئيته.

قال: وما ذاك إلا كبشارة إليك.

قال: حدثتنا أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى فى يوم ثنتى عشرة سجدة تطوعاً

بُنى له بهن بيت فى الجنة».

فقالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن.

قال النعمان: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو.

قال داود: أما نحن، فقد نصلى ونترك».

ومن مرويات أم حبيبة ما أخرجه ابن ماجه بسنده عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذكر الله عز وجل».

وَدَاعًا أُمَّنَا الْحَبِيبَةَ أُمَ حَبِيبَةَ:

عاشت أمنا أم حبيبة رضى الله عنها حياة العلم والزهد بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلم تكن تفارق مصلاها، أو تترك أثرًا من الآثار النبوية إلا اقتفته وسارت على هداها. قال عنها الإمام ابن كثير رحمه الله: «كانت أم حبيبة من سيدات أمهات المؤمنين، ومن العابدات الورعات رضى الله عنها».

كانت أمنا أم حبيبة مكان احترام وتقدير من الخلفاء الراشدين، فكان سيدنا أبو بكر يكرم أمهات المؤمنين، ويرعى شئونهن، وكذلك كان عمر يتفقد أحوالهن، وفي عهد عثمان ؓ كان يقوم على رعايتها وقضاء حوائجها، ولما حصر عثمان عليه سحائب الرضوان أته أم حبيبة، فجاء رجل فاطلع في خدرها، فجعل ينعته للناس، فقالت: «ما له قطع الله يده، وأبدى عورته؟!» فدخل عليه داخل فضربه بالسيف فاتقى بيمينه فقطعها، وانطلق هاربًا أخذًا إزاره بفيه، أو بشماله باديا عورته، وهكذا استجاب الله عز وجل دعاء أم المؤمنين أم حبيبة فتحققت دعوتها.

عاشت أم حبيبة رضى الله عنها حتى أدركت خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما، وقدمت دمشق زائرة له، ثم عادت إلى المدينة المنورة، تتابع حياة العلم وحياة الزهد.

وفى خلافة أخيها سيدنا معاوية توفيت أمنا أم حبيبة رضى الله عنها، وتركت فى البيت النبوى، وعند نساء النبى ﷺ كل أثرٍ طيبٍ كريمٍ مباركٍ.

تروى أمنا الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، هذا الخبر الكريم عن محاسن أم حبيبة رضى الله عنها فتقول: «دعتنى أم حبيبة زوج النبى ﷺ عند موتها، فقالت: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك.

فقلت: غفر الله لك ذلك كله، وتجاوزته، وحللتك من ذلك كله.

فقالت: سررتنى سرّك الله.

وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك». ثم توفيت رضى الله عنها وقد أحببت أن تلحق بالنبي ﷺ نظيفة القلب، نقيه السريرة، لا تحمل ذرة مشاحنة لأحد، وكانت وفاتها سنة أربع وأربعين من الهجرة الشريفة...

وكانت ولادتها قبل البعثة بسبعة عشر عاماً رضى الله عنها. كانت وفاة أم المؤمنين أم حبيبة بالمدينة المنورة، في الدار التي كانت لعلى بن أبي طالب ؓ.

روى على بن الحسين قال: «قدمت منزلي في دار على بن أبي طالب، فحفرنا في ناحية منه، فأخرجنا حجراً، فإذا فيه مكتوب: هذا قبر رملة بنت صخر، فأعدناه في مكانه».

هذه قطوف مباركة من حياة أمنا الحبيبة أم حبيبة، إحدى نساء أهل البيت الطاهر، نسأل الله عز وجل، أن يكرمنا بالسير على هذا الدرب القويم، وأن يجعلنا معهم في النعيم المقيم، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

أم المؤمنين

ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها

شهد لها النبي ﷺ ولأخواتها بالإيمان فقال: «إن الأخوات لمؤمنات».

أم ميمونة أكرم عجوز في الأرض أصهاراً.

وهبت ميمونة نفسها للنبي ﷺ، ونزل القرآن مسجلاً قصتها.

هي آخر امرأة تزوجها النبي ﷺ، وكانت تقيّة تصل الرحم.

من حفاظات الحديث النبوي روت (٤٦ حديثاً) ماتت بسرف قرب مكة سنة

(٥١هـ) رضى الله عنها.

أم المؤمنين

ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها

المرأة الميمونة:

ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين، واحدة من سادات النساء، دخلت العقد

النظيم، فأضحت درة في البيت النبوي الطاهر، كان اسمها برة فسامها ﷺ ميمونة.

وكان كاسمها ميمونة السنا، والله در أحمد محرم إذ قال:

اسم سما لفظه وازدان معناه حلاك ربك بالحسنى وحلاه

ميمونة أنتِ هذا ما تخيره لك الذى اختاره من خلقه الله

وفى رحاب الكرم، والأصل الحسيب، والنسب الرفيع، كانت نشأة ميمونة آخر

نساء رسول الله ﷺ ولعل يمنها جعلها فى هذا المقام الرفيع الذى تبوأته، وحظيت

بأمومة المؤمنين لتغدو من اللواتى ذكرهن الله عز وجل فى كتابه الكريم حيث قال:

﴿ يَبْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتْقَيْنَ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

إن أمنا ميمونة رضى الله عنها، وأخواتها من سادات النساء، وممن شهد لهن

الرسول الكريم ﷺ بالإيمان، وناهيك بشهادة رسول الله ﷺ.

فأختها أم الفضل بنت الحارث زوج العباس الحرة الجليية، وأم أولاده الستة

النجباء، كانت أول امرأة آمنت برسول الله ﷺ بعد أمنا خديجة بنت خويلد ولطالما

حدثت أم الفضل ميمونة عن الإيمان، وعن رسول الله ﷺ، فهفا إليه فؤادها، وكانت من التلة الأولى من المؤمنات المسارعات إلى الاستجابة لدعوة الإيمان، والتلذذ برحيقها.

لم تكن أم الفضل وحدها التي ارتبطت بالإسلام من أهلها، فأختها من أمها أسماء بنت عميس، كانت زوج الشهيد جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقد تزوجت من بعده بشيخ الصحابة والمهاجرين سيدنا أبي بكر الصديق عليه سحابات الرضوان، ثم تزوجت بعده من فارس الصحابة والمهاجرين سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ.

وأختها الأخرى سلمى بنت عميس زوج أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، ومن اللواتي شهدن مشرق الإسلام منذ أن أضاء أم القرى في ساعاته الأولى.

وهؤلاء السيدات السادات من النساء كانت أمهن جميعاً: هند بنت عوف بن زهير، إنها أكرم عجوز في مكة.

ولما شاعت إرادة الله أن ترتبط إحدى بناتها برسول الله ﷺ، صارت هند بنت عوف أكرم عجوز في الأرض أصهاراً.

فمن أصهارها: الحبيب المصطفى ﷺ.

أبو بكر الصديق عليه سحائب الرضوان.

حمزة بن عبد المطلب عم النبي وأسد الرحمن وفارس الميدان، وفتى قريش ﷺ.

العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وصنو أبيه.

جعفر بن أبي طالب، الشهيد الكريم وابن عم النبي ﷺ.

ومن أحفادها: عبد الله بن عباس أحد العبادلة الأربعة، حبر الأمة وفقه الفقهاء،

وابن عم المصطفى ﷺ، وخالد بن الوليد، فارس الإسلام، وسيف الرحمن، ومثل المشركين أهل الطغيان ﷺ وأرضاه.

إذن فأمنا ميمونة رضى الله عنها، ميمونة النقية، إذ زوجها رسول الله ﷺ، وهى

كذلك خالة عبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد، وأم المؤمنين، وتلك فضائل حسان، فهل

فوق ذلك من مفخر؟!.

هَمْسُ الْقُلُوبِ:

كان اسم ميمونة كما أسلفنا برة بنت الحارث، فسامها رسول الله ﷺ ميمونة، وكانت زوجاً لأبى رُهم بن عبد العزى العامرى القرشى، فأضحت أرملة وهى لا تزال فى ريعان الشباب، إلا أن نور الإيمان، كان يضىء جوانب نفسها، وتغذى به روحها، فغدت صافية السريرة، عظيمة الإيمان بالله عز وجل، حتى شهد الله لها بالإيمان، وحظيت بشرف الزواج من رسول الله ﷺ فى وقت فراغه من عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة فى ذى القعدة.

فى السنة السابعة من الهجرة النبوية الشريفة، دخل الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه مكة معتمرين، وطاف رسول الله ﷺ والمسلمون بالبيت العتيق، بيت الله الحرام، وكان الصحابى الجليل سيدنا عبد الله بن رواحة الأنصارى ؓ، بين يدى حبيبنا رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيهه	فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقبيله	أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيهه
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وكانت ميمونة رضى الله عنها فى مكة، وما أن سمعت واستمعت واستمعت بجداء عبد الله بن رواحة ورجزه، وما أن ملأت عينها من النبى ﷺ حتى استولت عليها فكرة أن تتال شرف الزواج من رسول الله ﷺ، وأن تصبح أمّاً للمؤمنين، وما يمنعها من أن تحقق حلمها الذى طالما راودها فى يقظتها وفى منامها، وهى من النثة الأولى فى سجل الإيمان وقائمة المؤمنين، وأخواتها: أم الفضل، وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات.

وهى تلك اللحظات التى سرت فيها أنسام الإيمان تخفق على مكة، همست ميمونة بما فى قلبها إلى أختها أم الفضل زوج العباس، فهل تحققت أمنيتها، وهل أكرمها الله

بما فى نفسها؟ لقد سجل القرآن الكريم تلك الخطرات الهامسة فى وجدان ميمونة، فهلم نستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى قصة ميمونة.

مَيْمُونَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

قلنا: إن ميمونة رضى الله عنها، كانت قد أفضت بأمنيتهأ إلى أختها أم الفضل بنت الحارث رضى الله عنها، وحدثتها عما تحلم به من أن تكون زوجاً للرسول الأعظم ﷺ، ليكون لبنى هلال شرف مصاهرتة، كما نال هذا الشرف قبلها: بنو تيم، وبنو عدى، وبنو أمية، وبنو مخزوم، وبنو أسد، وبنو المصطلق وغيرهم».

ويبدو أن أم الفضل لم تكتم هذا الخبر عن زوجها العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وصنو أبيه ويبدو أيضاً أن العباس قد أفضى إلى ابن أخيه بأمنية ميمونة بنت الحارث الهلالية، فبعث رسول الله ﷺ ابن عمه جعفر بن أبى طالب ليخطبها، فما أن خرج جعفر من عندها، حتى سرت لهذا الخبر الميمون، فركبت بعيرها ثم انطلقت إلى حيث كان الرسول الحبيب ﷺ فى قنبة بالأبطح، فما أن وقعت عينها عليه حتى قالت: «البعير وما عليه لله ورسوله».

وتحدث الناس عما فعلت ميمونة، إنها لم تستطع الانتصار، فجاءت تهب نفسها لله ورسوله، وقد سماها رسول الله ﷺ ميمونة بعد أن كان برة.

سرى الهمس بين مرضى القلوب استخفافاً بالشابة التى استجابت استجابة صادقة لمشاعرها دون رياء، ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز، ومحاولة ذر الرماد فى العيون، وبذر بذور الاستياء فى قلوب المسلمين، وإذ ذاك أنزل الله عز وجل قرأنا يتلى ويحسم أقوال أولئك الذين فى قلوبهم مرض قال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَوَاتِ عَمَّكَ وَنَوَاتِ عَمَّكَ وَنَوَاتِ خَالِكَ وَنَوَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَأَحْرَاءَ مُؤْمِنَةٍ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

ميمونة وزواج ميمون:

فى عمرة القضاء، انساب المهاجرون فى دروب مكة يستنشقون عبير أرض الذكريات الحلوة، ويتملسون مراتع الصبا والشباب فرحين مسرورين وكانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة فيها، قد خيم عليها السكون، فتبعث الأسي فى النفوس، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تترك أثرًا فى قلوبهم التى عمرها الإيمان بحب الله ورسوله.

كان المسلمون المهاجرون وهم فى المدينة المنورة، يستشعرون شوقًا شديدًا إلى مكة أم القرى، وكانت أعز أمانيتهم أن يعودوا إليها، وأن يروا أقرباءهم، وأن يروا ظمأهم من ماء زمزم، وأن يطوفوا بالبيت العتيق، فإذا بأماله كلها تتحقق، وهامهم أولاء اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ.

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع، أتى حُوَيْطِب بن عبد العزى — وقد أسلم فيما بعد — ونفر من مشركى قريش، فقالوا لرسول الله ﷺ، قد انقضى الأجل، فاخرج عنا فقد مضت الثلاث — وكان قد أتم عمرة القضاء — فقال: «وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعامًا فحضرتموه».

فقالوا: «لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنا» فخرج النبى ﷺ، ونزل فى سرف فأقام بها.

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة، خلف مولاه أبا رافع ليحمل ميمونة أم المؤمنين إليه حين يمسى، ثم خرج أبو رافع بميمونة ليلحق رسول الله ﷺ والمسلمين فى سرف. وفى ذلك الموضع، ضربت قبتها، وبنى رسول الله ﷺ بها فى هذه البقعة المباركة، ويومئذ سماها رسول الله ﷺ ميمونة فقد كان زواجه بها فى هذه المناسبة الميمونة التى دخل فيها مكة للمرة الأولى، منذ أن خرج منها مهاجرًا فى سبيل الله منذ سبعة أعوام كوامل.

وأعرس رسول الله ﷺ، بعد أن أحل من العمرة، وفرح الصحابة الكرام بهذه المناسبة الميمونة المباركة...

روى بعض أصحاب السنن وغيرهم عن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة حلالاً، وكنت الرسول بينهما».

وروى أبو داود بسنده عن ميمونة رضي الله عنها قالت: «تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن حلالان بسرف».

وقال ابن سعد رحمه الله: «هي آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني ممن دخل بها».

دخلت ميمونة البيت النبوي ولما تتجاوز السادسة والعشرين، وإنه لشرف ما بعده شرف لميمونة، التي أحست كأنها ارتفعت حتى كادت تلمس الثريا ونجوم السماء، عندما نظمت في عداد أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن وأرضاهن. في المدينة المنورة، دخلت ميمونة أم المؤمنين الحجر التي أعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكون بيتاً لها، واستقبلت نساء النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة استقبالاً حسناً، وأكرمن مئاها، إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وطلباً لمرضاة الله عز وجل.

أخذت ميمونة رضي الله عنها تستمع إلى الأحاديث النبوية من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتهتدي بما يقوله صلى الله عليه وسلم، فكانت تكثر من الصلاة في المسجد النبوي، لأنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

ظلت أمنا الميمونة رضوان الله عليها في البيت النبوي، وظلت مكانتها رفيعة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما اشتد المرض بالنبي صلى الله عليه وسلم نزل في بيتها، ثم انتقل إلى بيت عائشة رضي الله عنها ليمرض هنالك، فرحبت أم المؤمنين ميمونة بذلك ونقل إلى بيت عائشة.

روت أم المؤمنين عائشة هذا فقالت: «أول ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، فأذن له».

انتقل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وهو راضٍ عن زوجاته الطاهرات، وكن تسعاً.

وقد نظم بعض العلماء زوجات النبي صلى الله عليه وسلم اللواتي مات عنهن فقال:

توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسبُ

فعاثشة ميمونة وصفية
 جويرية مع سودة ثم زينب
 كذا رملة مع هذا أيضًا وحفصة
 ثلاث وست نظمن مهذب
 ويبدو أن كبار الشعراء العلماء قد أغرموا في هذا الفن العظيم، فتنابروا فيما بينهم
 في نظم أسماء النبي ﷺ، وأسماء زوجاته، وبناته، وأولاده، وصحبه المبشرين بالجنة،
 وكذلك أسماء من كان يشبهه، وأسماء الخلفاء وغير ذلك.

قال أحدهم وقد أدلى دلوه في هذا المجال، فنظم أسماء نساء النبي ﷺ اللواتي بقين
 بعده ومات عنهن فقال:

توفى رسول الله عن تسع نسوة
 وهن ابنة الصديق رملة حفصة
 جويرية هند وزينب سودة
 وميمونة والمصطفاة صفية
 وهذا الباب طويل يحتاج إلى كتاب وحده.

مَيْمُونَةُ وَابْنُ أُخْتِهَا:

لما كان عام الوفود، قدم وفد بنى هلال بن عامر، رهط أم المؤمنين ميمونة رضى
 الله عنها، وقدم في وفدهم عبد عوف بن أصرم، فأسلم وسماه رسول الله ﷺ عبد الله،
 وقبيصة بن مخارق الذى له حديث فى الصدقات.

وذكر فى وفد بنى هلال زياد بن عبد الله بن مالك العامرى، فلما دخل المدينة
 المنورة، قصد منزل خالته ميمونة بنت الحارث، فدخل عليها، فلما دخل رسول الله ﷺ
 منزله، رآه فغضب ورجع.

فقالت له ميمونة: «يا رسول الله، إنه ابن أختي» فدخل، ثم خرج إلى المسجد،
 ومعه زياد فصلى الظهر، ثم أدنى زيادًا، فدعا له، ووضع يده على رأسه ثم حذرها
 على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول: «ما زلنا نتعرف البركة فى وجه زياد مذ
 مسح رسول الله ﷺ على وجهه» وفى هذه البركة قال أحد الشعراء لزياد بن عبد الله
 هذا:

إن الذى مسح الرسول برأسه
 أعنى زيادًا لا أريد سواءه
 ما زال ذاك النور فى عرنيه
 ودعا له بالخير عند المسجد
 من عابرٍ أو متهمٍ أو منجدٍ
 حتى تبوأ بيته فى ملحدٍ

مَيْمُونَةٌ وَشَهَادَةُ مَيْمُونَةَ:

عكفت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها على العبادة والصلاة فى البيت النبوى، وأخذت تهتدى بهدى رسول الله ﷺ، فكانت تكثر من الصلاة والوقوف بين يدى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار.

وفى البيت النبوى الطاهر، أخذت أمنا ميمونة تقتبس من أخلاق النبى ﷺ، وتمشى على الطريق الذى أمر به، وكانت شديدة غاية الشدة فيما يتعارض مع حدود الله عز وجل، ولعل تطبيق الحدود الإلهية من أجل ما كانت تحاول أم المؤمنين ميمونة تطبيقه والحض عليه.

ذكر ابن سعد رحمه الله: «أن ذا قرابة لميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها، قد دخل عليها ذات يوم، فوجدت منه ريح شراب، فقالت وقد أخذها الغضب: والله لئن لم تخرج إلى المسلمين، فيقام عليك الحد بالجلد، لا تدخل على أبداً بعد هذا اليوم، وأمرته بالخروج فخرج».

وهذا الموقف يشير إلى تمسك أمنا ميمونة بأوامر الله سبحانه وتعالى، وتطبيق السنة المطهرة، فلا يمكن لها أن تحابى قرابتها فى تعطيل حد من حدود الله تعالى.

وقد زكى رسول الله ﷺ إيمان ميمونة وشهد لها ولأخواتها بالإيمان، وحسن الثقة بالله سبحانه، فقد أوردت المصادر الوثيقة بإسنادها إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «إن الأخوات لمؤمنات» وفى لفظ: «الأخوات مؤمنات» ميمونة زوج النبى ﷺ، وأم الفضل، وسلمى امرأة حمزة، وأسماء بنت عميس أختهن لأمهن.

وشهدت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لميمونة بصفات كريمة، منها التقوى، وصلة الرحم، فقد قالت فى حقها بعد وفاتها: «ذهبت والله ميمونة، أما إنها كانت من أتقانا، وأوصلنا للرحم».

مِنْ حَافِظَاتِ الْحَدِيثِ وَرَاوِيَاتِهِ:

نستطيع أن نقول: «إن أمنا ميمونة بنت الحارث واحدة من أمهات المؤمنين اللاتى نقلن لنا حديث رسول الله ﷺ».

كانت أم المؤمنين ميمونة ممن وعين الحديث الشريف، وتلقينه عن رسول الله ﷺ، وكانت حافظة متقنة، وتشير أخبارها التي وصلت إلينا بأنها شديدة التمسك بالهدى النبوى، وبالأثار المحمدية وشمائلها، ومنها حفظ الحديث النبوى الشريف، وروايته، ونقله إلى أئمة العلماء الذين كانوا يقصدون المدينة المنورة، ليأخذوا الحديث عن أمهات المؤمنين، وعن كبار الصحابة الذين عنوا برواية الحديث.

وكانت أم المؤمنين ميمونة أيضًا من الحافظات المكثرات لرواية الحديث النبوى الشريف من بين أمهات المؤمنين الطاهرات، ولم يسبقها في هذا سوى اثنتين من أمهات المؤمنين وهما: أم المؤمنين عائشة التي روت (٢٢١٠) أحاديث، وأم سلمة أم المؤمنين التي روت (٣٧٨) حديثًا، ثم تأتي ميمونة في المرتبة الثالثة إذ روت عن رسول الله ﷺ (٧٦ حديثًا).

وقد أخرج لها منها في الصحيحين ثلاثة عشر حديثًا، المتفق عليه منها سبعة، وانفرد لها البخارى بحديث واحد، بينما انفرد مسلم بخمسة أحاديث.

ولم يحدد الإمام الذهبى رحمه الله أحاديث أمنا ميمونة، وإنما قال: «روت عدة أحاديث» بينما روى لها الإمام أحمد فى المسند (٦٣ حديثًا).

روى عن ميمونة رضى الله عنها أولاد أختها الأربعة وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن شداد بن الهاد، وعبيد بن السباق، ويزيد بن الأصم.

كما روى عنها عبد الرحمن بن السائب الهالكى، وكريب مولى ابن عباس، وربيبها عبيد الله الخولانى، ومولاها: سليمان بن يسار، وأخوه عطاء بن يسار، ومولاتها: ندية، والعالية بنت سبيع وغيرهم.

ومما رواه لها البخارى وغيره، بسندٍ عن عبد الله بن شداد عن ميمونة، قالت: «كان النبى ﷺ يصلى على الخمرة»...

وأخرج لها البخارى أيضًا فى صحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن ميمونة أن رسول الله ﷺ سئل عن فأرة سقطت فى سمنٍ فقال: «ألقوها، وما حولها فاطرحوه، وكلوا سمنكم».

ومما أخرجه أبو يعلى وغيره بسند عن ابن عباس عن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: «أصبح النبي ﷺ خائراً، ثم أمسى وهو كذلك، ثم أصبح وهو كذلك. قالت: فقلت: يا رسول الله، ما لى أراك خائراً؟». قال: «إن جبريل ﷺ واعدنى أن يأتينى، وما أخلفنى». قال: فنظروا فإذا جرو كلب تحت نضدٍ لهم، فأمر النبي ﷺ بذلك المكان فغسل بالماء، قال: وجاءه جبريل ﷺ فقال له النبي ﷺ: «واعدتني أن تأتيني وما أخلفتني!». فقال له جبريل ﷺ: «أوما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة». ومما أخرجه ابن ماجه فى سننه بسنده عن عمران بن حذيفة عن أم المؤمنين ميمونة قال: «كانت تدان ديناً.

فقال لها بعض أهلها: لا تفعلى، وأنكر ذلك عليها. قالت: بلى، إنى سمعت نبى وخليلى ﷺ يقول: «ما من مسلم يدان ديناً يعلم الله منه أنه يريد أداءه، إلا أداه الله عنه فى الدنيا». تلکم صورة من صور روايات الحديث الشريف التى دونتها كتب الحديث لأمنا ميمونة رضوان الله عليها.

الأيام الأخيرة:

كانت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها قد عاشت الخلافة الراشدة وهى تحظى باحترام الخلفاء والعلماء، وامتدت بها الحياة إلى خلافة معاوية ؓ. قال الإمام الذهبى وغيره: «توفيت سنة إحدى وخمسين رضى الله عنها». كانت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها فى زيارة لمكة المكرمة فى عام وفاتها، ولكن رسول الله ﷺ كان قد أخبرها أنها لا تموت بمكة. روى هذا الأثر ابن أخيها يزيد الأصم قال: «نقلت ميمونة زوج النبي ﷺ بمكة، وليس عندها من بنى أخيها، فقالت: أخرجونى من مكة، فإنى لا أموت بها، إن رسول الله ﷺ أخبرنى أنى لا أموت بمكة، قال: فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التى بنى بها رسول الله ﷺ تحتها فى موضع القبة، فماتت فلما وضعناها فى لحدنا أخذت ردائى فوضعتها تحت خدها فى اللحد، فأخذها ابن عباس فرمى به».

وعن عطاء رحمه الله قال: «توفيت ميمونة بسرّف، فخرجت مع ابن عباس إليها، فقال: «إذا رفعتم نعشها، فلا تُرْزِلُوها ولا تززعوها».

وفى رواية: «ارفقوا بها، ولا تززعوا فإنها أمكم، وموضعها من رسول الله ﷺ موضعكم».

وهكذا جعل الله عز وجل المكان الذي تزوجت به ميمونة هو مكان وفاتها، قال يزيد بن الأصم: «دفنا ميمونة بسرّف في الظلة التي بنى فيها رسول الله ﷺ».

وقد صلى على جنازتها سيدنا عبد الله بن عباس، ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد بن الهاد، وهم أولاد أخواتها.

هذه أمنا ميمونة بنت الحارث الهلالية، آخر حبات العقد الفريد، وإحدى أمهات المؤمنين اللواتي ينضوين تحت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣) صدق الله العظيم.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	أم المؤمنين		مقدمة
	سودة بنت زمعة		أم المؤمنين
٦١	رضى الله عنها		خديجة بنت خويلد
	أم المؤمنين	١٣	رضى الله عنها
	سودة بنت زمعة	١٣	الطاهرة وبداية مونقة عنها
٦١	رضى الله عنها	١٤	الطاهرة وأنداء الماضي
٦١	رحلة مع السابقين	١٦	الطاهرة ورؤيا نورانية
٦٣	فَرَجٌ قَرِيبٌ	١٩	الطاهرة ترسل إلى محمد
٦٤	سَوْدَةٌ فِي مَكَّةَ	٢١	الطاهرة وأطراف من الذكريات
٦٥	رؤيا جميلة	٢٣	الطاهرة ورغبة مباركة
٦٦	اذكريها على	٢٥	الطاهرة وخطبة الزواج
٧٠	سودة في بيت النبي ﷺ	٢٦	الطاهرة والسعادة للروحية وللزوجية
٧٣	سودة وعائشة وأخبار لطيفة	٢٨	الطاهرة وذرية طيبة
٧٥	فكاهة ووداعة	٣١	الطاهرة ومكارم المعالي
٧٦	اعتذار مقبول	٣٤	الطاهرة ومعرفتها قدر النبي ﷺ
٧٨	من مناقبها	٣٥	الطاهرة وبدء الوحي
٧٩	سودة والحديث النبوي	٣٧	الطاهرة وكلمات النور والإلهام
٨٠	مع الأبرار والمتقين	٣٨	الطاهرة ووقفه ندية مع كلماتها
	أم المؤمنين	٤٢	الطاهرة والفراسة والإلهام
	عائشة بنت أبي بكر	٤٤	الطاهرة أول السابقين
٨٢	رضى الله عنها	٤٦	الطاهرة ورحلة مع المكارم
	أم المؤمنين	٤٧	الطاهرة والصلاة
	عائشة بنت أبي بكر	٤٨	الطاهرة تتحمل أذى الكفار
٨٢	رضى الله عنها	٤٩	الطاهرة وصور من صبرها
٨٢	الصديقة ومناقب فريدة	٥٢	الطاهرة ورحلة الخلود
٨٣	الصديقة والدوحة السابقة		الطاهرة و ﴿ سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾
	الصديقة هذه فهل فوق ذلك	٥٤	الطاهرة والحياة الحقيقية
٨٥	مَفْخَرَةٌ؟	٥٥	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٣٦	حفصة وسنة عمرية حسنة	٨٦	الصديقة ونور على نور
١٣٩	حفصة والوصية العمرية	٨٨	الصديقة وأحداث الهجرة
١٤٠	لا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ	٩٠	الصديقة والزواج المبارك
١٤٢	حفصة ومارية وتوجيه قرآني	٩٣	الصديقة في البيت النبوي للطاهر
١٤٤	حفصة وتربية نبوية	٩٤	الصديقة واللطف النبوي
١٤٧	زَهْرٌ من رياض شمائلها	٩٥	الصديقة وأحكام الجهاد
١٤٩	القرآن الكريم وحفصة	٩٧	الصديقة ومحنة ومنحة
١٥٢	المُحَدَّثَةُ الحَافِظَةُ	٩٨	الصديقة وحسد الحُساد
١٥٤	الزَّاهِدَةُ العَالِمَةُ	٩٩	الصديقة وشدة بلاء الإفك
	أم المؤمنين	١٠٠	الصديقة وبداية الموقف
	زينب بنت خزيمة	١٠١	الصديقة وشهادة البراءة الربانية
١٥٨	رضى الله عنها	١٠٤	الصديقة ووقفة تأمل
١٥٨	من أبواب الخير	١٠٦	الصديقة وخصائص مميزة
١٥٩	شذرات من حياتها	١١١	الصديقة وأمّهات المؤمنين
١٦٠	زينب من أمّهات المؤمنين	١١٢	الصديقة ورخصة التيمم
١٦١	أم المؤمنين وأم المساكين	١١٤	الصديقة أولى حافظات الحديث
١٦٢	أم المساكين وعائشة وحفصة	١١٧	الصديقة وثناء الأكابر عليها
١٦٣	إلى دار السلام	١١٩	الصديقة والفضائل الكريمة
	أم المؤمنين	١٢١	الصديقة والأدب
	هند بنت أبي أمية	١٢٤	الصديقة وأثارة من أقوالها
	(أم سلمة)	١٢٦	الصديقة وبنات حواء
١٦٦	رضى الله عنها	١٢٧	الصديقة ورحلة الخلود
١٦٧	كَرَّمَ الأَعْرَافِ		أم المؤمنين
١٧٠	أم سلمة وحديث الهجرة		حفصة بنت عمر
١٧٣	أم سلمة وأضواء الإيمان	١٣٠	رضى الله عنها
١٧٥	ذروة المروءة ووفائها	١٣٠	طَيْبُ عَرَفِ العُودِ
١٧٧	دعوة مستجابة وعقبى صالحه	١٣١	أنسام رغيدة مع السابقين
١٧٩	إلى رحاب أمّهات المؤمنين	١٣٣	زَوْجُ الشَّهِيدِ

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٦	شخصية فريدة	١٨٠	أم سلمة في كنف النبي ﷺ
٢٢٧	بدايات النور	١٨٢	أم سلمة من أهل البيت
٢٢٨	حكمة نبوية	١٨٥	أم سلمة تحمل بشرة ربانية ونبوية
٢٢٩	جويرية ونصر المؤمنين	١٨٩	أم سلمة والجهاد ورأيها للمؤمن
٢٣٠	سؤدد وطموح	١٩٢	فصاحة أم سلمة وأدبها
٢٣٢	بركة جويرية على قومها	١٩٣	العالمة راوية الحديث
٢٣٣	جويرية ونفحات الإنعام الربانية	١٩٦	وفاة أم سلمة رضى الله عنها
٢٣٤	القائنة العابدة الذاكرة		أم المؤمنين
٢٣٦	العالمة ناقلة الحديث		زينب بنت جحش
	مع العُمَريين الصديق والفاروق	١٩٨	رضى الله عنها
٢٣٨	رضى الله عنهما	١٩٨	ينبوع الهداية
	أم المؤمنين	١٩٩	السيدة الشريفة
	صفية بنت حيى	٢٠٠	المؤمنة المهاجرة إلى الله
٢٤٠	رضى الله عنها	٢٠٢	مع الأنصار فى المدينة
٢٤٠	قبس من سنا السيرة	٢٠٣	نفحات زينبية
٢٤٢	مع الرسول ﷺ فى خيبر	٢٠٤	زينب فى القرآن الكريم
٢٤٤	إسلام صفية	٢٠٨	منهج قويم
٢٤٧	صفية فى البيت النبوى	٢١١	أما زينب وآية الحجاب
٢٤٨	صفية ونساء أهل البيت	٢١٤	من الفضائل الزينية
٢٥١	والله إنها لصديقة	٢١٥	القرآن وزينب وعائشة وحفصة
٢٥١	إنما هى صفية	٢١٦	الخاشعة المتضرعة
٢٥٢	معرفة قدر الله عز وجل	٢١٨	ثناء أمهات المؤمنين عليها
٢٥٢	حلمها وكرمها وصدقها	٢٢١	زينب فى ظلال الخلافة الراشدة
٢٥٤	علمها وحفظها للحديث النبوى	٢٢٣	روايتها لأحاديث المصطفى
٢٥٥	مع خالات النساء	٢٢٤	وفاتها ووصيتها
	أم المؤمنين		أم المؤمنين
	رملة بنت أبى سفيان		جويرية بنت الحارث
٢٥٧	(أم حبيبة)	٢٢٦	رضى الله عنها

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
بَاحِثُونَ عَنِ الْحَقِيقَةِ	٢٥٧	أم المؤمنين	
رَمَلَةٌ وَإِيمَانٌ مُبَكَّرٌ	٢٥٩	ميمونة بنت الحارث	
هجرة وصبر جميل	٢٦٠	رضى الله عنها	٢٨٠
عندما تتحقق الأحلام	٢٦١	المرأة الميمونة	٢٨٠
يا أم المؤمنين	٢٦٣	ومن أحفادها	٢٨١
خطبة الزواج والمهر النفيس	٢٦٥	همس القلوب	٢٨٢
«وَعَلَيْهَا السَّلَامُ»:	٢٦٧	ميمونة في القرآن الكريم	٢٨٣
أم حبيبة في أضياف النبت الطاهر	٢٦٧	ميمونة وزواج ميمون	٢٨٤
إخلاص أم حبيبة ورفاؤها	٢٧٠	ميمونة وابن أختها	٢٨٦
نزول القرآن بها وبشارة نبوية	٢٧٣	ميمونة وشهادة ميمونة	٢٨٧
أم حبيبة وذكريات الحبشة	٢٧٥	من حافظات الحديث ورواياته	٢٨٧
روايتها وحفظها	٢٧٥	الأيام الأخيرة	٢٨٩
وداعا أمنا الحبيبة أم حبيبة	٢٧٨	فهرس الموضوعات	٢٩٣

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET